الإسلام يتحدى

مدخل علمي إلى الإيمان

بِسۡمِ اللّٰہِ الرَّحۡمٰنِ الرَّحِیۡمِ

سَنُرِیۡہِمۡ اٰیٰتِنَا فِی الۡاٰفَاقِ وَ فِیۡۤ اَنۡفُسِہِمۡ
حَتّٰی یَتَبَیَّنَ لَہُمۡ اَنَّہُ الۡحَقُّ ؕ (حٰمٓ سجدہ ۵۳)

وحيد الدين خان

الإسلام يتحدى

مدخل علمي إلى الإيمان

تعريب
دكتور ظفر الإسلام خان

مراجعة وتحقيق
دكتور عبد الصبور شاهين

مكتبة الرسالة

This book, written originally in Urdu and first published in 1966, has subsequently been translated into Arabic, English, French, Turkish, Malay, Malayalam, Marathi, Serbo-Croatian, Sindhi, Tamil, etc.

ARABIC: الاسلام يتحدى

Translated by Dr Zafarul-Islam Khan
Published by Scientific Research House, P.O. Box 2857, Kuwait and Al-Mukhtar Al-Islami, P.O. Box 1707, Cairo Egypt.

ENGLISH: *God Arises*

Translated by Dr Farida Khanam
Published by The Islamic Centre, C-29 Nizamuddin West, New Delhi-110 013 India.

MALAY: *Islam Menjawab Tantagan Zaman*

Translated by A. Rofi'i
Published by Pt. Bina Ilmu, Jl. Tunjungan 53 E, Surabaya, Indonesia

MALAYALAM: *Islam Velluvilikkunnu*

Translated by Muhammad Kodiyathoor
Published by Indian Islahi Centre, c/o Yuvatha Book House, P.O. Box 524, Calicut-2, Kerala, India

SINDHI: جديد علم جو چيلنج

Translated by Sirajuddin Bhutto
Published by Sindh National Academy, P.O. Box 258, Hyderabad, Pakistan.

TURKISH: *Islâm Meydan Okuyor!*

Translated by Cihad H. Resad
Published by Sebil Yayinevi, Vilâyet Han Kat: 1, Nu: 101-102, Cagaloglu, Istanbul, Turkey

URDU: مذهب اور جديد چيلنج

Published by Maktaba Al-Risala, C-29 Nizamuddin West, New Delhi-110 013, India.

First published, Kuwait/Beirut, 1974
First published in India, 1992
Reprinted 2000, 2005

Goodword Books Pvt. Ltd.
1, Nizamuddin West Market, New Delhi- 110 013
e-mail: info@goodwordbooks.com

Printed at Rashtrya Printers

تمهيد

الموضوع الذي سندرسه في الصفحات التالية ليس بجديد بالنسبة إلى اللغة الأردية . ولكن المؤلف يشعر بأنه لا يزال ناقصاً ، رغم الجهود الطيبة التي بذلها بعض الكتاب .

والعصر الحديث يسمى : « عصر الإلحاد » ، لإنكاره الدين . وهذا الإلحاد ليس محض ادعاء . بل يرى أصحاب نظريته أنها طريقة بحث ودراسة ، اهتدى إليها الإنسان ، بعد التطور الحديث في ميادين العلم المختلفة ، وهذه « الدراسة التطورية » لا تهدف إلى إثبات نظرية ما أو إنكارها ، وإنما هي منهج خالص في البحث ، أثبت لأصحابه أن الدين باطل ؛ ويمكن أن نفهم هذه الطريقة الجديدة في ما قاله ت . ر . مايلز :

« إن الدراسة الجديدة هي تكنيك ومنهج ونمط معين لمواجهة الأسئلة ، وهي لا تستهدف وضع إجابات قطعية . وهو — من هذا الوجه — تغير هام طرأ على الفلسفة في النصف الأخير من هذا القرن ، ولسوف يبقى هذا التغير مستمراً ، دون أمل في توقفه على المدى[1] البعيد » .

---

(١) *Religion and the Scientific Outlook*, 1954, p.13

ولا بد لباحثينا ، إذا ما أرادوا البحثَ في العلوم الحديثة ، دفاعاً عن الدين ، ألا يغيب عن أذهانهم هذا التفسير ، سواء اعتبرناه تفسيراً علمياً محضاً ، توصل إليه المفكرون المحدثون، أو اعتبرناه مجرد ملجأ جميل ، ركنوا إليه ، حين أخفقوا في البحث عن التفسير المادي للكون ، بعد إنكار الدين .

وعلى سبيل المثال : إن الأعمال التي قام بها علماؤنا ، لإثبات النبوة ، تفترض مقدماً أن العصر الحديث يدعي : أن محمداً صلى الله عليه وسلم «كان نبياً كاذباً » ، فيبدأون في جمع كميات كبيرة من المواد التي تثبت أن محمداً كان « نبياً صادقاً » . ومغزى القول : « كان محمد نبياً كاذباً » ، هو أن هناك أنبياء آخرين صادقين ؛ على حين يشك الإنسان الجديد في المبدأ نفسه ، فهو لا يؤمن بالنبوة أصلاً . فأما « النبي الكاذب False Prophet » ، فهو اعتراض قديم جاء به اليهود والنصارى ، الذين يؤمنون بأنبيائهم ، وينكرون نبي الإسلام . وأما العقل الحديث ، فلا يبحث عما إذا كان محمد نبياً « صادقاً أو كاذباً » ، وإنما يبحث عن منبع كلامه النبوي ، وينتهي ، اعتماداً على المناهج المعروفة ، إلى أن مصدر هذا الكلام الغريب هو : « اللاشعور » ... وهو يرى أن التعبير عن كلام اللاشعور بالوحي والإلهام يصلح أن يكون استعارة جميلة ، ولكنه يستحيل اعتباره واقعاً حقيقياً .

ولذا ، فإن مهمتنا لا تنتهي عند إثبات صدق نبوة رسول الإسلام ، بل علينا أن نضطلع بالبحث عن الوحي والإلهام ، ونثبت أن الوحي ينزل على أناس معينين ، من بينهم نبيّ الإسلام .

كان هذا موقف من يتصدى لنقد الفكر الحديث ، دون فهم موقفه من القضية . وهناك نوع آخر من علمائنا يدركون موقف الفكر الحديث من قضية الدين . ولكنهم ، لشدة تأثرهم بالفكر الحديث ، يرون أن كل ما توصل إليه أئمة الغرب يعدّ من (المسلمات العلمية) ، ومن ثم تقتصر بطولتهم على إثبات أن هذه النظريات ، التي سلم بها علماء الغرب ، هي

نفس ما ورد في القرآن الكريم ، وكتب الأحاديث الأخرى . وهذه الطريقة في التطبيق والتوفيق ، بين الإسلام وغيره ، هي نفس الطريقة التي تتبعها شعوب الحضارات المقهورة تجاه الحضارات القاهرة . وأية نظرية ، تُقَدَّم على هذا النحو ، يمكنها أن تكون تابعة ، ولكنها لا يمكن أن تكون رائدة ! ولو خيل إلى أحدنا أنه يستطيع أن يغير مجال الفكر في العالم بمثل هذه المحاولات التوفيقية ، ليشرق على البشرية نور الحق ، فهو هائم ، ولا شك ، في عالم خيالي ، لا يمت إلى الحقائق بسبب .. فإن تغيير الأفكار والمعتقدات لا يأتي من طريق التلفيق ، بل عن طريق الثورة الفكرية .

وهذه الحالة تورِّطنا ، بصورة أكبر ، عندما تتعلق المسألة بجانب أساسي وهام من أفكار الدين ، فلا بأس بأن يقوم أحدنا بتفسير جديد لظاهرة « الشهاب الثاقب » التي وردت في القرآن ، حين يجد كشفاً جديداً في علم الفلك الحديث ، ولكننا لو قبلنا نظرية كلية شاملة ، وذات علاقة بالمشكلات الأخرى التي تثار حول الدين ، فسوف يكون لذلك تأثير عميق وكلي في هيكل الفلسفة الدينية نفسه .

وأوضح مثال في هذا ، هو تلك الجماعة من علمائنا الذين قبلوا « نظرية النشوء والارتقاء » ، لأن علماء الغرب أعلنوا اقتناعهم الكامل بصدقها ، بعد دراساتهم ومشاهداتهم .. واضطروا ، بناء على هذا ، إلى تفسير جديد للإسلام في ضوء النظرية الجديدة ، وحين احتاجوا إلى لباس جديد ، قاموا بتفصيل ثوب الإسلام مرة أخرى ، ولكنه ثوب مشوه المعالم ، لا أثر فيه من روح الإسلام ، التي ضاعت مع الأجزاء المقطعة في عملية التلفيق الجديدة .

إن نظرية النشوء والارتقاء تستهدف إقرار فكرة التطور بصفة مستمرة بحيث تبلغ الحياة أوجها عند النهاية . وبناء على هذا : لا بد من أن تحدث الأحوال السيئة في الماضي ، لا في المستقبل . ويروق لهذه النظرية حياة الخلود في الجنة ، ولكنها لا تقبل الخلود في نار الجحيم . ولذا ، ادعى العلماء المسلمون ،

الذين قبلوا هذه النظرية ، أن الجحيم ليست مكاناً للعذاب ، وإنما هي مركز للتربية والتزكية . فالحياة تواصل مسيرتها في مواجهة الصعاب والمشكلات . والذين لم يستطيعوا مواصلة مسيرتهم بسبب عوائق الذنوب ، سوف يمرون بأحوال الجحيم الصعبة ،حتى يواصلوا رحلتهم التطورية خلال الحياة القادمة . ومن هنا ترى هذه الطائفة أن قوانين الملكية — مثلاً — في الإسلام ، ليست إلاَّ « أحكاماً مؤقتة » ، فإن هذه القوانين لا تتفق ونظرية التطور الاجتماعي .

ويمكن فهم نوعية الأعمال التي قام بها بعض علمائنا من المثالين المذكورين ، فهي أعمال ناقصة ، رغم الجهود التي بذلت في صوغها . ولا يدعي المؤلف أن محاولته تخلو من النقائص . ولكنه يقول : إن المحرك الحقيقي لمحاولته هو شعوره بأن عملاً من هذا القبيل كان لا بد أن يكون .

إن الطريقة التي يتبعها الكتّاب للدفاع عن الدين ذات وجهين : فكرية وتجريبية ؛ وبعبارة أخرى : فلسفية وعلمية ، إن صح التعبير . وقد راعى المؤلف الطريقة الثانية ، وهي التجريبية أو العلمية . والسبب في ذلك أن مكتبتنا تزخر بمجلدات ضخمة من الكتب التي وضعت على المنهج الأول ، على حين يوجد نقص شديد في الكتب من المنهج الثاني .

وإنني لأشعر بأن المضمار الفسيح الذي هيأته الدراسات العلمية الحديثة لإثبات الدين ، هو تصديق لما جاء في القرآن ، في سورة النمل : « وقُلِ الحمدُ للهِ ، سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا » . وهذا الكتاب محاولة لاستغلال الإمكانات الجديدة لصالح الدين بطريقة منظمة .

وحيد الدين

The Islamic Centre
C-29 Nizamuddin West
New Delhi 110 013, (India)

• • •

الباب الأول

قضيَّة معارضي الدين

« تعتبر التطورات العلميّة التي حدثت في القرن الماضي « انفجاراً معرفياً » Knowledge Explosion في وجه جميع الأساطير الإنسانية عن الآلهــة والدين كما تفجرت الأفكار القديمة عن المادة ونُسفت بمجرد تفجير الذرة » ... هذه هي قضية العلم الحديث الموجهة إلى الدين كما يقول البروفيسور جوليان هكسلي[1]. وتعتبر الصفحات التالية رداً على هذا التحدي ؛ فلقد كشفت أضواء العلم الحديث عن حقائق الدين ، ولم تنجح من أية ناحية في الإساءة إليه . بل إن جميع ما وصل أو سيصل إليه العلم الحديث هو بمثابة تصديق لما أسماه الإسلام : « بالحقيقة الأخيرة » قبل أربعة عشر قرناً من الزمان :

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقّ »[2].

• •

---

(١) *The Hindustan Times*, Sunday Magazine, Sept. 24, 1961

(٢) فصلت / ٥٣ .

والدين ، كما يزعم الملحدون من العلماء ، شيء لا حقيقة له ، وهو مظهر للغريزة الإنسانية الباحثة عن حقائق الكون ، والتي تحاول تفسيره . إن هذه الغريزة الإنسانية في ذاتها شيء مستحسن ، ولكن المعلومات والوسائل المحدودة قد انتهت بأجدادنا إلى إجابات غير صحيحة ، وهي التي تحتويها الآن أفكارهم عن الإله والدين . أما اليوم، وبعد ما توفرت لدينا الوسائل العلمية، وأصلحت المعلومات الحديثة شيئاً كثيراً من معتقداتنا الاجتماعية والحضارية ، فقد حان الوقت لنعيد النظر في جميع ما وصل إليه أجدادنا من أفكار .

• • •

ويذهب الفيلسوف الفرنسي « أوجست كونت » – الذي نشأ في النصف الأول من القرن التاسع عشر – إلى أن تاريخ تطور الفكر الإنساني ينقسم إلى ثلاث مراحل :

الأولى : **المرحلة اللاهوتية** (Theological Stage) وهي التي فسرت الأحداث فيها بإسم الإله .

والثانية : **المرحلة الميتافيزيقية** : وفيها فسّر الإنسان الأحداث باسم « عناصر خارجية » ، لا يعلمها ، ولكنه لا يذكر اسم الإله .

والثالثة : **المرحلة الوضعية** (Positive Stage) ، التي أخذ الإنسان يفسر فيها الأحداث باعتبارها عناصر خاضعة لقوانين عامة ، يمكن إدراكها بالمطالعة ، أو بالمشاهدة العلمية . وفي هذه المرحلة لا تُذكر « الأرواح والآلهة والقوى المطلقة » . ونحن ، بناء على هذا ، نعيش في المرحلة الثالثة التي تسمى في الفلسفة الحديثة بالوضعية المنطقية (Logical Positivism) . إن نظرية « الوضعية المنطقيـة » أو التجريبيّة العلمية (Scientific Empiricism) لم تعرف كحركة علمية عالمية إلاّ خلال العقد الرابع من القرن الحاضر ، ولكنها ، كفكرة ، نشأت قبل ذلك بسنين طويلة . وعلى ظهر هذه الفكرة نجد أسماء كبار العلماء والفلاسفة من أمثال : هيوم، وميل، إلى برتراندرسل .

وقد أصبحت هذه الفكرة اليوم ، بفضل العدد الكبير من المؤسسات العلمية التي تقوم بدور فعال في الدعاية لها ، من أهم الحركات العلمية الحديثة . ويقول أحد الباحثين :

« كل معرفة حقة مرتبطةٌ بالتجارب ، بحيث يمكن فحصها أو إثباتها ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة »[1] .

وبناءً على هذا يدعى معارضو الدين أن التطور الذي بلغ به الإنسان اليوم أعلى مستوى من الإنسانية ، هو نَفْيٌ للدين من تلقاء نفسه .. والسر في ذلك أن الأفكار المتطورة الحديثة تؤكد أن « الحقيقة » ليست إلاّ ما يمكن فحصه وتجربته علمياً . وقد قام الدين على « حقيقة » لا سبيل إلى مشاهدتها وفحصها علمياً . وبعبارة أخرى : إن التفسير اللاهوتي للأحداث والوقائع لا يمكن إثباته بالوسائل العلمية ، فهو باطل لا حقيقة له . ويترتب على هذا القولُ بأن : « الدين تفسير زائف لوقائع حقيقية » ؛ ذلك أن علم الإنسان القديم المحدود لم يقدم التفسير الحقيقي للأحداث ، على حين أن القانون العام للتطور أتاح لنا أن نبحث عن الحقائق بالوسائل التجريبية الصحيحة[2]

ويمكن أن نقول هذا الكلام بأسلوب آخر : إن موقف علماء الأديان القديمة أشبه برجل يكتب « شيكاً لا رصيد له في المصرف » ، فهم قد صاغوا عبارات ليس وراءها حقائق علمية ، فعبارة (الحقيقة العليا غير المتغيرة) صحيحة نحواً ، ولكن ليس لها أي أساس علمي .

« لقد أثبت (نيوتن) أنه لا وجود لإله يحكم النجوم . وأكد (لابلاس) بفكرته الشهيرة أن النظام الفلكي لا يحتاج إلى أي أسطورة لاهوتيّة . وقام بهذا الدور العالمان العظيمان (دارون) و (باستور) في ميدان البيولوجيا . وقد ذهب كل من علم النفس المتطور والمعلومات التاريخية الثمينة التي حصلناها

---

(١) *Dictionary of Philosophy*, New York, p. 285.

(٢) *Religion and the Scientific Outlook*, p. 20.

في هذا القرن بمكان الإله ، الذي كان مفروضاً أنه هو مدير شئون الحيـــاة الإنسانية والتاريخ »[1] .

لقد قامت قضية معارضي الدين على أسس ثلاثة :

الأساس الأول : بطل هذا الانقلاب في البيولوجيا هو (نيوتن) ، الذي عرض على الدنيا فكرة تثبت أن الكون مرتبط بقوانين ثابتة ، تتحرك في نطاقها الأجرام السماوية . ثم جاء بعده آخرون فأعطوا هذه الفكرة مجالاً علمياً أوسع ، حتى قيل : إن كل ما يحدث في الكون من الأرض إلى السماء خاضع لقانون معلوم ، سموه « قانون الطبيعة » . فلم يبقَ للعلماء ما يقولون، بعد هذا الكشف ، غير أن الإله كان هو المحرك الأول لهذا الكون . وضرب (والتير) مثلاً في هذا الصدد : أن الكون كالساعة يرتب صانعها آلاتهـــا الدقيقة في هيئة خاصة ويحركها ، ثم تنقطع صلته بها . ثم جاء (هيوم) فتخلص من هذا الإله الميت ، وعلى حد قوله : « لقد رأينا الساعات وهي تصنع في المصانع ، ولكننا لم نر الكون وهو يُصنعَ ، فكيف نسلّم بأن له صانعاً» ؟

• • •

لقد جلى التطور العلمي للإنسان كثيراً من سلسلة الأحداث التي لم يشاهدها من قبل . فهو لم يكن على علم بأسباب شروق الشمس وغروبها ، حتى زعم أن هناك قوة فوق الطبيعة تجعلها تشرق وتغرب . وها قد عرفنا اليوم أن شروق الشمس وغروبها يحدث لدوران الأرض حول نفسها ، وبذلك انتهت ضرورة القول بهذه الطاقة تلقائياً ، بعدما عرفنا الأسباب المؤدية إلى هذه الحركة الكونية . « فإذا كان قوس قزح مظهراً لانكسار أشعة الشمس على المطر ، فماذا يدعونا إلى القول بأنها آية الله في السماء » .

من أجل هذا كله ، وغيره ، قال هكسلي :

---

(١) *Religion Without Revelation*, New York, 1958 p. 58.

« إذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغي أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة »[١] .

° ° °

والأساس الثاني : وقد ازداد العلماء يقيناً بعد البحوث العلمية في ميدان علم النفس ، حين توصلوا إلى نتائج تثبت أن الدين نتاج اللاشعور الإنساني ، وليس انكشافا لواقع خارجي . ويقول عالم كبير من علماء النفس :

« God is nothing but a projection of man on a cosmic screen »

« ليس الإله سوى انعكاس للشخصية الإنسانية على شاشة الكون » . وما عقيدة الدنيا والآخرة إلا صورة مثالية للأماني الإنسانية ؛ وما الوحي والإلهام إلاّ إظهار غير عادي لأساطير الأطفال المكبوتة (Childhood Repression)[٢]

° ° °

ويرى علم النفس الحديث أن العقل الإنساني مركب من شيئين هما : (الشعور) . وهو مركز الأفكار التي تخطر على قلوبنا في ظروف عادية ، و (اللاشعور) وهو مخزن الأفكار التي مرت بنا ونسيناها ؛ ولا تظهر إلاّ في أحوال غير عادية ، كالجنون والهستيريا . وهذا القسم الثاني أكبر بكثير من الأول . ويمكن أن نمثل لهما بجبل من الجليد ؛ فلو قسمناه تسعة أجزاء لكان منها ثمانية في جوف البحر ، ولظهر جزء واحد على السطح .

اكتشف فرويد بعد جهد طويل أن اللاشعور قد يقبل أفكاراً في الطفولة ، وتؤدي إلى أعمال غير عقلية ، وهذا ما يحدث بالنسبة إلى العقائد الدينية : فإن فكرة الجحيم والجنة ترجع إلى صدى الأماني التي تنشأ لدى الإنسان إبان طفولته ، ولكن لم تسنح له الفرصة لتحقيقها ، فتبقى دفينةً في اللاشعور ، ثم يفرض اللاشعور بدوره حياةً أخرى يتيسّر له فيها تحصيل ما كان يتمنّاه ،

---

(١) *Religion Without Revelation*, New York, p. 58.

(٢) *Iqbal Review*, April 1962.

شأن الرجل الذي قد لا يظفر بما يحب في الواقع فيحصله في المنام . وهكذا خرجت عقدة التفرقة بين الصغير والكبير (Father complex) — من الجرائم الاجتماعية ، فصاغوا منها نظرية على مستوى الكون والسماء .

ويقول رالف لنتون :

« إن عقيدة القادر المطلق الظالم في نهاية الأمر ، الذي لا يرضى إلاّ بالطاعة الكاملة والوفاء ، كانت أول ما أنتجه نظام المجتمع السامي . لقد خلق هذا النظام جبروتاً غير عادي . وكانت نتيجته أن شريعة موسى خرجت بقوائم ضخمة مُفصلة عن المحرمات في كل مجال من الحياة الإنسانية . وقد آمن بهذه القوائم الطويلة العوام الذين كانوا يتقبلون أحكام آبائهم العمياء ويطيعونها . وما التصور الإلهي (اليهودي) إلا خيال مثالي لأب سامي ؛ مع شيء من المبالغة والتجريد في الأوصاف والطاقات »[1] .

* * *

والأساس الثالث لقضية معارضي الدين هو : (التاريخ) . يقولون : إن القضايا الدينية وُجدت لأسباب تاريخية أحاطت بالإنسان ، فلم يكن في استطاعته أن يفلت من السيول والأعاصير والطوفانات والزلازل والأمراض ، فأوجد (قوى فرضية) يستغيثها ، لتنقذه من البلايا النازلة . وهكذا ظهرت الحاجة إلى شيء يجتمع الناس حوله ، ولا يتفرقون ، فاستغل اسم (الإله) [الذي تفوق قوته قوة الإنسان ، ويهرع الجميع إلى رضاه] .

يقول محرر دائرة معارف العلوم الاجتماعية تحت اسم «الدين» (Religion) :

« وبجانب المؤثرات الأخرى التي ساعدت في خلق الدين ، فإن إسهام الأحوال السياسية والمدنية عظيم جداً في هذا المجال . إن الأسماء الإلهية وصفاتها خرجت من الأحوال التي كانت تسود على ظهر الأرض . فعقيدة كون الإله

---

(١) *Tree of Culture*, Ralph Linton.

« الملك الأكبر » صورة أخرى للملكية الإنسانية ، كذلك الملكية السماوية صورة طبق الأصل للملكية الأرضية . وكان الملك الأرضي القاضي الأكبر ، فأصبح الإله يحمل هذه الصفات ، ولقّب « بالقاضي الأكبر الأخير » ؛ الذي يجازي الإنسان على الخير والشر من أعماله . وهذه العقيدة القضائية التي تؤمن بكون الإله محاسباً ومجازياً لا توجد في اليهودية فحسب ، وإنما لها مقامها الأساسي في العقائد الدينية ، المسيحية والإسلامية »[1]

° ° °

« لقد خلق العقل الإنساني الدين ، وأتم خلقه. في حالة جهل الإنسان وعجزه عن مواجهة القوى الخارجية » . ويضيف جوليان هكسلي إلى هذا قوله :

« فالدين نتيجة لتعامل خاص بين الإنسان وبيئته »[2] . ويقول أيضاً :

« إن هذه البيئة قد فات أوانها أو كاد ، وقد كانت هي المسئولة عن هذا التعامل ، فأما بعد فنائها وانتهاء التعامل معها فلا داعي للدين » ، ويضيف : « لقد انتهت العقيدة الإلهية إلى آخر نقطة تفيدنا ، وهي لا تستطيع أن تقبل الآن أية تطورات ؛ لقد اخترع الإنسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين ؛ جاء بالسحر ، ثم بالعمليات الروحية ، ثم بالعقيدة الإلهية ، حتى اخترع فكرة (الإله الواحد) . وقد وصل الدين بهذه التطورات إلى آخر مراحل حياته . ولا شك أن هذه العقائد كانت في وقت ما جزءاً مفيداً من حضارتنا ، بيد أن هذه الأجزاء قد فقدت اليوم ضرورتها ، ومدى إفادتها للمجتمع الحاضر المتطور . »[3]

• • •

---

(١) *Encyclopaedia of Social Sciences,* 1957 Vol, 13, p. 233.

(٢) *Man in the Modern World,* p. 130.

(٣) *Ibid.*, p. 131.

وترى الفلسفة الشيوعية أن الدين « خدعة تاريخية » ، وهي تركز الأسباب في عوامل اقتصادية ، لأنها تنظر إلى التاريخ في ضوء الاقتصاد . وهي ترى أن العوامل التاريخية التي خلقت الدين هي النظام البورجوازي الاستعماري القديم . وهذا النظام القديم يلقى اليوم حتفه ، فلندع الدين أيضاً يذهب معه .

يقول فيلسوف الشيوعية انجلز :

« إن كل القيم الأخلاقية هي في تحليلها الأخير من خلق الظروف الاقتصادية» [1]

فالتاريخ الإنساني هو تاريخ حروب الطبقات التي امتص فيها البورجوازيون دماء الفقراء ، وقد كانت الغاية من وضع الدين والأسس الأخلاقية حماية حقوق البورجوازيين .

ويقول البيان الشيوعي : (Communist Manifesto) :

« إن الدستور والأخلاق والدين كلها خدعة البورجوازية ، وهي تتستّر وراءها من أجل مطامعها » .

ويقول لينين في خطاب له ألقاه في المؤتمر الثالث لمنظمة الشباب الشيوعي في أكتوبر سنة ١٩٢٠ :

« إننا لا نؤمن بالإله، ونحن نعرف كل المعرفة أن أربابَ الكنيسة والإقطاعيين والبورجوازيين لا يخاطبوننا باسم الإله إلا استغلالاً، ومحافظةً على مصالحهم، إننا ننكر بشدة جميع هذه الأسس الأخلاقية التي صدرت عن طاقات وراء الطبيعة ، غير الإنسان ، والتي لا تتفق مع أفكارنا الطبقية ، ونؤكد أن كل هذا مكر وخداع ، وهو ستار على عقول الفلاحين والعمال، لصالح الاستعمار والإقطاع ، ونعلن أن نظامنا لا يتبع إلا ثمرة النضال البروليتاري ، فمبدأ جميع نظمنا الأخلاقية هو الحفاظ على الجهود الطبقية البروليتارية »[2] .

---

(١) *Anti Duhring*, Moscow, 1954, p. 131

(٢) *Lenin Selected Works*, Moscow, 1947. Vol, II, p. 667.

كانت هذه هي قضية معارضي الدين ، التي يزعم بعض العلماء الجدد بناءً عليها ما يمكن تلخيصه في كلمة أستاذ أمريكي في طب الأعضاء :

"Science has shown religion to be history's cruelest and wickedest hoax."

« لقد أثبت العلم أن الدين كان أقسى وأسوأ خدعة في التاريخ »[1] .

ولسوف ننظر في مدى صحة هذه القضية على أسس علمية في الباب الآتي ، إن شاء الله .

• • •

---

(١) Quoted by C.A. Coulson, *Science & Christian Belief*, p. 4.

الباب الثاني

نقد قضية المعارضين

عرضنا في الباب الأول قضية المعارضين ، الذين يزعمون أنه لا داعي لأن يبقى الدين في عصرنا الحاضر . والحقيقة أن هذه القضية لا تقوم على أساس ، ولسوف نتناول في الأبواب الآتية ، أفكارَ الدين الأساسية ، واحدة واحدة ، لننظر في مدى حقيتها ، كما كانت قبل العصر الحديث .

وإليكم نقداً عاماً لقضية المعارضين :

أولاً : حقيقة الطبيعة :

لنتكلم أولاً في الدليل الذي يعرض باسم البيولوجيا ، وهو أن الحوادث تحدث طبقاً (لقانون الطبيعة) ، فلا حاجة لأن نفترض لهذه الحوادث إلهاً مجهولاً . إن أحسن ما قيل في هذا الصدد ما قاله عالم مسيحي :

"Nature is a fact, not an explanation."

« إن الطبيعة حقيقة (من حقائق الكون) وليست تفسيراً (له) » . لأن ما كشفتم ليس بياناً لأسباب وجود الدين ، فالدين يبيّن لنا الأسباب والدوافع

الحقيقية التي تدور «وراء الكون» ، وما كشفتموه هو الهيكل الظاهر للكون . إن العلم الحديث تفصيل لما يحدث ، وليس بتفسير لهذا الأمر الواقع ؛ فكل مضمون العلم هو إجابة عن السؤال : «ما هذا ؟ » ، وليس لديه إجابة عن السؤال : «ولكن لماذا ؟ » . وإن التفسير الذي نحن بصدده هنا يتعلق بالأمر الثاني .

• • •

لنفهم هذا من مثال بسيط . فالكتكوت يعيش أيامه الأولى ، داخل قشرة البيضة القوية ، ويخرج منها بعد ما تنكسر مُضْغَةَ لحم ، كان الإنسان القديم يؤمن بأن الله أخرجه . ولكنا شاهدنا اليوم بالمنظار أنه في اليوم الحادي والعشرين يظهر قرن صغير على منقار الكتكوت ، يستعمله في تكسير البيضة ، لينطلق خارجاً منها ، ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام من خروجه من البيضة .

هذه المشاهدة ، كما يزعم المعارضون ، أبطلت الفكرة القديمة القائلة : بأن الإله يخرج الكتكوت من البيضة ؛ إذ قد رأينا يقيناً أن قانوناً لواحد وعشرين يوماً يحدث هذه العملية . والحقيقة أن المشاهدة الجديدة لا تدلنا إلاّ على حلقات جديدة للحادث ، ولا تكشف عن سببه الحقيقي ، فقد تغيّر الوضع الآن فأصبح السؤال لا عن تكسّر البيضة ، بل عن (القرن) ؟ . إن السبب الحقيقي سوف يتجلّى لأعيننا حين نبحث عن العلة التي جاءت بهذا القرن ؛ العلة التي كانت على معرفة كاملة بأن الكتكوت سوف يحتاج إلى هذا القرن ليخرج من البيضة ، فنحن لا نستطيع أن نعتبر الوضع الأخير (وهو مشاهدتنا بالمنظار) إلاّ أنه «مشاهدة للواقع على نطاق أوسع» ، ولكنه ليس تفسيراً له .

• • •

يقول البروفسور (سيسيل بايس هامان) ، وهو أستاذ أمريكي في البيولوجيا :

«كانت العملية المدهشة في صيرورة الغذاء جزءاً من البدن تنسب من قبل

إلى الإله ، فأصبحت اليوم بالمشاهدة الجديدة تفاعلاً كيماوياً ، هل أبطل هذا وجود الإله ؟ فما القوة التي أخضعت العناصر الكيماوية لتصبح تفاعلاً مفيداً ؟.. إن الغذاء بعد دخوله في الجسم الإنساني يمر بمراحل كثيرة خلال نظام ذاتي ، ومن المستحيل أن يتحقق وجود هذا النظام المدهش باتفاق محض . فقد صار حتماً علينا بعد هذه المشاهدات أن نؤمن بأن الله يعمل بقوانينه العظمى التي خلق بها الحياة ! »[1] .

كان الإنسان القديم يعرف أن السماء تمطر ، لكننا اليوم نعرف كل شيء عن عملية تبخر الماء في البحر ، حتى نزول قطرات الماء على الأرض ، وكل هذه المشاهدات صور للوقائع ، وليست في ذاتها تفسيراً لها ، فالعلم لا يكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين ؟ وكيف قامت بين الأرض والسماء على هذه الصورة المفيدة المدهشة ، حتى إن العلماء يستنبطون منها قوانين علمية ؟ والحقيقة أن ادعاء الإنسان بعد كشفه لنظام الطبيعة أنه قد كشف تفسير الكون — ليس سوى خدعة لنفسه ، فإنه قد وضع بهذا الادعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة .

ويضيف العالم الأمريكي سيسيل قائلاً :

"Nature does not explain, she is herself in need of an explanation."

« إن الطبيعة لا تفسّر شيئاً (من الكون) ، وإنما هي نفسها بحاجة إلى تفسير » .

فلو أنك سألت طبيباً : ما السبب وراء احمرار الدم ؟

لأجاب : لأن في الدم خلايا حمراء ، حجم كل خلية منها $\frac{١}{٧٠٠}$ من البوصة !

---

(١) *The Evidence of God in an Expanding Universe*, p. 221.

– حسناً ، ولكن لماذا تكون هذه الخلايا حمراء ؟

– في هذه الخلايا مادة تسمّى (الهميوجلوبين) وهي مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأوكسجين في القلب .

– هذا جميل . ولكن من أين تأتي هذا الخلايا التي تحمل الهميوجلوبين ؟

– إنها تصنع في كبدك .

– عجيب ! ولكن كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم والخلايا والكبد وغيرها ، بعضها ببعض ، ارتباطاً كليّاً ، وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة ؟

– هذا ما نسمّيه بقانون الطبيعة .

– ولكن ما المراد بقانون الطبيعة هذا ، يا سيدي الطبيب ؟

– المراد بهذا القانون هو الحركات الداخلية العمياء للقوى الطبيعية والكيماوية .

– ولكن لماذا تهدف هذه القوى دائماً إلى نتيجة معلومة ؟ وكيف تنظّم نشاطها ، حتّى تطير الطيور في الهواء ، ويعيش السمك في الماء ، ويوجد إنسان في الدنيا ، بجميع ما لديه من الإمكانات والكفاءات العجيبة المثيرة ؟

– لا تسألني عن هذا ، فإن علمي لا يتكلم إلا عن : (ما يحدث) ، وليس له أن يجيب : (لماذا يحدث ؟) .

يتضح من هذه الأسئلة مدى صلاحية العلم الحديث لشرح العلل والأسباب وراء هذا الكون . ولا شك أنه قد أبان لنا عن كثير من الأشياء التي لم نكن على معرفة بها ، ولكن الدين جواب لسؤال آخر ، لا يتعلق بهذه الكشوف الحديثة العلمية ، فلو أن هذه الكشوف زادت مليون ضعف عنها اليوم فسوف تبقى الإنسانية بحاجة إلى الدين؛ إن جميع هذه الكشوف « حلقات ثمينة من السلسلة » ، ولكن ما يحل محلّ الدين لا بد أن يشرح الكون شرحاً كلياً وكاملاً . فما الكون على حاله هذه إلا كمثل ماكينة تدور تحت غطائها ، لا نعلم عنها إلاّ أنها

(تدور) ، ولكنا لو فتحنا غطاءها فسوف نشاهد كيف ترتبط هذه الماكينة بدوائر وتروس كثيرة ، يدور بعضها ببعض ، ونشاهد حركاتها كلها . هل معنى هذا أننا قد علمنا خالق هذه الماكينة بمجرد مشاهدتنا لما يدور داخلها ؟ هل يفهم منطقياً أن مشاهدتنا هذه أثبتت أن الماكينة جاءت من تلقاء ذاتها ، وتقوم بدورها ذاتياً ؟ لو لم يكن هذا الاستدلال منطقياً فكيف إذن نثبت بعد مشاهدة بعض عمليات الكون – أنه جاء تلقائياً ، ويتحرك ذاتياً ؟...

لقد استغل البروفيسور هريز (A. Harris) هذا الاستدلال حين نقد فكرة داروين عن النشوء والارتقاء ، فقال :

« إن الاستدلال بقانون الانتخاب الطبيعي يفسّر عملية (بقاء الأصلح) ، ولكنه لا يستطيع أن يفسر حدوث هذا الأصلح »[1] .

° ° °

ثانياً : اللاشعور ودليل علم النفس :

لنعالج الآن الدليل الذي يقدمه علم النفس والقائل بأن الإله والآخرة قياس للشخصية الإنسانية وأمانيها على مستوى الكون . ولست بمستطيع أن أدرك نقطة الاستدلال في هذا الدليل . ولو أنني ادعيت – بدوري – أن الشخصية الإنسانية وأمانيها موجودة فعلاً على مستوى الكون فلست أدري ما عسى أن يبطل ادعائي هذا من منطق المعارضين ؟!

° ° °

نحن نعرف أن مادة (الجنين) التي لا تشاهد إلا بالمنظار تنبيء في ذاتها عن إنسان طوله ٧٢ بوصة ، وأن (الذرة) التي لا تقبل المشاهدة تحتوي نظاماً رياضياً كونياً يدور عليه النظام الشمسي ، فلا عجب إذن أن يكون النظام الذي نشاهده على مستوى الإنسان في الجنين ، وعلى مستوى النظام الشمسي

---

(١) *Revolt Against Reason*, A. Lunn, p. 133.

في الذرة ، موجوداً أيضاً ، وبصورة أكمل ، على مستوى الكون . إن ضمير الإنسان وفطرته ينشدان عالماً متطوراً كاملاً ، فلو كان هذا الأمل صدىً لعالم حقيقي فلست أرى في ذلك أي ضرب من ضروب الاستحالة !!

• • •

١ ــ لا شك في قول العلماء : إن الذهن الإنساني يحتفظ بأفكار قد تظهر فيما بعد في صورة غير عادية . ولكن سوف يكون قياساً مع الفارق أن نعتمد على هذه الفكرة كي نبطل الدين . فهو قياس في غير محله ، وهو يعتبر استدلالاً غير عادي من واقع عادي . فهو أشبه بمن يشاهد مثّالاً يصنع صنماً فيصرخ : هذا هو الذي قام بعملية خلق الإنسان .

ومن معايب الفكر الحديث أنه يستنبط من حادث عادي دليلاً غير عادي ؛ فهذا الدليل لا وزن له من الناحية المنطقية ، ولو افترضنا أن رجلاً يسير في شارع أخذ يهذي بكلام غريب نتيجة لأفكار مختزنة في ذهنه ، فهل يمكن أن نستغل هذا الحادث في البحث في كلام الأنبياء ، وهو الكلام الذي يكشف سرّ هذا الكون ..؟؟... سوف يكون هذا الاستدلال غير علمي ، وغير منطقي ، ولسوف يدل على أن صاحبه يفتقر إلى القيم حتى يستطيع التفرقة بين كلام رجل الشارع وكلام الأنبياء ، فلا يدعي أن هذا الهذيان هو المسئول عما جاء به الدين .

فالقيم تتغير ذاتياً بتغير الأوضاع ، ومن الخطأ الظن بأنها لا توجد إلا عند أصحاب الفكر الحديث .

ولنتخيل أن رهطاً من سكان بعض النجوم هبط الأرض ، وهم يسمعون ، ولكنهم لا يقدرون على الكلام ، ولنتصور أنهم يذهبون فيبحثون عن الأسباب المؤدية إلى تكلم الإنسان ، وبينما هم في طريقهم إلى هذا البحث هبت الرياح ، واحتك غصنان ، أحدهما مع الآخر ، فنتج صوت ، وتكررت العملية غير مرة حتى توقفت الرياح ، وإذا بهم يعلن كبيرهم : لقد عرفنا سر كلام الإنسان ،

وهو أن فمه يحتوي على فكين من الأسنان ، فإذا احتكّ الفكّ الأعلى بالأسفل صوّت ! ولا شكّ أنه إذا احتك شيء بالآخر يحدث صوتاً ، ولكن هذا الواقع لا يكشف عن سر الكلام الإنساني ، كما لا يصحّ تفسير أسرار النبوة بكلام غريب –كهذيان رجل الشارع ، في حال الجنون أو الهستيريا .

• • •

ب – واللاشعور الإنساني – من الوجهة العلمية – فراغ في أصله ، لا شيء فيه قبل مولد الإنسان ، وإنما يستقر فيه عن طريق الشعور ما يشغله الآن ، لأن (اللاشعور) ليس سوى مخزن للمعلومات والمشاهدات التي شاهدها الإنسان في حياته ، ولو مرة ، ومن المستحيل أن يختزن حقائق لم يعلمها من قبل . والذي يثير الدهشة أن الدين الذي جاء على لسان الأنبياء يشتمل على حقائق أبدية لم تخطر على بال أحد من الناس في أي زمان ، فلو كان اللاشعور هو مخزن هذه المعلومات ، فمن أين يأتي بها هؤلاء الذين يتكلمون عن أشياء لا طريق لهم إلى العلم بها ؟

إن الدين الذي جاء به الأنبياء يتصل من ناحية أو أخرى بجميع العلوم المعاصرة – الطبيعة ، والفلك ، وعلم الحياة ، وعلم الإنسان ، وعلم النفس ، والتاريخ والحضارة والسياسة والاجتماع وغيرها من العلوم ، وكل حديث في التاريخ الإنساني مصدره (الشعور) ، فضلاً عن اللاشعور ، لا يخلو من الأغلاط والأكاذيب والأدلة الباطلة . أما الكلام النبوي فإنه بريء ولا شك من كل هذه العيوب ، رغم اتصاله بجميع العلوم ، ولقد مرت قرون إثر قرون ، أبطل فيها الآخرون ما ادعاه الأولون ، وما زال صدق كلام النبوة باقياً على الزمان ، ولم يستطع أحد أن يدل على باطل جاء به ، وكل من حاول ذلك أخفق .

وإليكم مثالاً من هذا القبيل اعتمد عليه فلكي كبير ، حتى ادعى أنه كشف غلطة علمية في القرآن الكريم .

يقول (جيمز هنري بريستد) :

« لقد راج التقويم القمري في الدنيا لكثرة تداوله في غرب آسيا ، ولغلبة الإسلام سياسياً بوجه خاص . ولقد مضى محمد (صلى الله عليه وسلم) بالاختلاف بين التقويم القمري والشمسي إلى أقصى حد من العبث يمكن تصوره ، حتى إنه أبطل إضافـــة الشهور الكبيسة (Intercalary months) . إن السنة القمرية المزعومة تشتمل على ٣٥٤ يوماً ، وتقل أحد عشر يوماً عن السنة الشمسية . وهكذا تزيد السنة القمرية سنة واحدة كل ٣٣ سنة ، وثلاث سنين في كل قرن . فلو حل رمضان في يونيو في هذه السنة فسوف يحل بعد ست سنين في ابريل » .

« لقد مضى ١٣١٣ عاماً منذ[1] الهجرة ، حيث إن قرننا (الميلادي) هو بمثابة مائة سنة وثلاث سنين في تقويم المسلمين ، وقد سجّل تقويمهم واحداً وأربعين عاماً زائداً في هذه المدة من قرننا . وقد ألغت كنيسة اليهود الشرقية هذه السخافة واختارت طريقة إضافة الشهور (Intercalation) لتجعل تقويمها مثل التقويم الشمسي ، وهذا هو السبب في أن غرب آسيا يعاني حتى الآن لعنة هذه الطريقة القديمة ــ التقويم القمري »[2] .

لسنا هنا بصدد مناقشة الفرق بين التقويم القمري والشمسي ، ولكن لا بد من توضيح أن ما نسبه المؤلف إلى رسول الإسلام هو في الحقيقة غفلة شديدة ترجع إلى المؤلف نفسه ، ولم يمنع القرآن الكريم إضافة (الشهور الكبيسة) ، وإنما حرّم النسيء (التوبة : ٣٨) ، ومعناه في اللغة : (التأخير) ، ومنه : (نسأ الدابة) عن الحوض لكي تشرب الأخرى ، ومعناه في الاصطلاح : (تأخير شهر وتقديم شهر آخر عليه) .

لقد كان من بين العادات الكريمة التي دعا إليها إبراهيم عليه السلام العرب

---

(١) كان ذلك عام ١٩٣٥ م .

(٢) *Time and its Mysteries*, New York, 1962, p. 56.

تحريم أربعة أشهر لا قتال فيها ولا جدال ، وهي : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ، وقد كان العرب يسافرون في هذه الأشهر بكل حرية ، لكي يؤدوا فريضة الحج والعمرة . وحين دب الفساد في بعض القبائل ، اخترعوا بدعة (النسيء) ، وهي أن يضعوا شهراً غير حرام محل الشهر الحرام ، كأن يجعلوا صفر في مكان المحرم ، وذلك لكي يحاربوا قبيلةً يلزم قتالها في الشهر الحرام . وهذه هي البدعة المقيتة التي وصفها القرآن الكريم بأنها : (زيادة في الكفر) .

وقال العلماء : إن الشهور الكبيسة كانت رائجة في العرب ، وكانوا يضيفون عدد الشهور في السنة للتقويم .

وقال مفسر للقرآن الكريم في هذا الموضوع ، وهو مولانا شبير أحمد العثماني في تفسيره :

« إن بعض القبائل تضيف الشهور الكبيسة كل ثلاثة أعوام ليستقيم التقويم القمري ، ولا يدخل هذا العمل في النسيء » .

إن ما قاله رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم في عهد الظلام لم يكن من الجهالة ، ولا يدخل قطعاً في نطاق ما أورده (جيمز هنري بريستد) طعناً عليه . ولو كان كلامه صلى الله عليه وسلم صادراً عن الشعور أو اللاشعور لوقعت فيه أخطاء ، ما من ذلك بد .

° ° °

ثالثاً — الاستدلال بالتاريخ والاجتماع :

إن الذين يستدلون بالتاريخ أو الاجتماع خطأهم الأساسي أنهم لا يدرسون الدين من وجه صحيح ، ولهذا يبدو لهم الدين شيئاً غريباً . ومثال ذلك أن ترى شيئاً مربعاً من زاوية منحرفة فيتراءى لك مثلثاً . إن الخطأ الذي يقعون فيه هو أنهم يتناولون الدين على أنه « مشكلة موضوعية Objective Problem » ، فهم يجمعون في سلة واحدة كل ما أطلق عليه اسم (الدين) ، من رطب

ويابس ، في أي مرحلة من التاريخ ، ثم يتأملون في ضوء هذا المحصول حقيقة الدين ! ! إن موقفهم ينحرف من أولى مراحله ، فيبدو لهم الدين — جرّاءَ هذا الموقف الفاسد — عملاً اجتماعياً، لا كشفاً لحقيقة . ومن المعلوم أن لكل ما يكشف عن حقيقة من الحقائق مثلاً أعلى، ولا بد عند البحث عن هذه الحقائق أن ندرس مظاهرها وتاريخها في ضوء مثله الأعلى . أما الأمور التي تأتي بها أعمال اجتماعية فليس لها مثل أعلى ، وبقاؤها رهن بحاجة المجتمع إليها .

والدين يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فليس من الممكن البحث عن عن حقائقه ، كما يبحث عن تطورات فنون العمارة والنسيج والحياكة والسيارات ، لأن الدين عَلَم على حقيقة يقبلها المجتمع أو يرفضها ، أو يقبلها في شكل ناقص . ويبقى الدين في جميع هـذه الأحوال حقيقة واحدة في ذاتها ، وإنما يختلف في أشكاله المقبولة . ولهذا لا يمكن أن نفهم حقائق (الدين) بمجرد فهرسة مماثلة لجميع الأشكال الموجودة في المجتمعات باسم الدين .

ولنأخذ — على سبيل المثال — لفظَ (الجمهورية) ، فهي قيمة سياسية لنظام خاص بالحكم ، وفي ضوء هذه القيمة نستطيع أن نحكم على بلاد بأنها جمهورية ، أو بأنها ليست كذلك . لكنا لو ذهبنا نبحث عن معاني (الجمهورية) في النماذج السياسية التي توجد عبر القارات ، ويلتصق بها لفظ (الجمهورية) ، ثم زعمنا أن كل هذه البلاد قائمة على (أسس جمهورية) ، فسوف تصبح كلمة « الجمهورية » بلا معنى . ففي هذه الحالة ستختلف (جمهورية) الصين عن (جمهورية) الولايات المتحدة الأمريكية ، وستعارض (جمهورية) انجلترا (الجمهورية) العربية المتحدة . كما أن (جمهورية) باكستان ستصطدم (بالجمهورية) التي تلتزم بها الهند . فإذا تأملنا كل هذه المشاهدات في ضوء (فلسفة التطور) فإن هذه الكلمة سوف تفقد معناها حتماً ؛ لأن فرنسا التي أنجبت النظام الجمهوري سوف تبرهن على أن (الجمهورية) بعد (نشوئها وارتقائها) تتمثل في ديكتاتورية ديجول العسكرية .

وهذا النهج في التناول يؤدي إلى نتيجة غريبة ، هي أنه لا حاجة إلى (الإله)

في الأديان ! ! إذ يوجد مثال لهذا في تاريخ الأديان وهو مثال البوذية ، الّتي تخلو تماماً من فكرة (الإله) . ومن ثم آمنت جماعة من الناس بضرورة البحث عن دين مجرد من الإله. ولو أننا سلّمنا بالفكرة القائلة بأن شيئاً مثل (الدين) لا بد منه للإنسان ، لحاجته إلى الوعي الخلقي والتنظيم الاجتماعي ، فلا داعي إذن للإله أن يوجد ، وربما قيل : « إن الدين الذي يصح لهذا العصر يلزم أن يكون مثل البوذية ، فإن إله العصر الحاضر هو (مجتمعه وأهدافه السياسية) . ورسول هذا الإله هو (البرلمان) الذي يوجه الشعب إلى ما يرضيه ، ومعابد هذا الإله العصري ليست المساجد أو الكنائس القديمة، وإنما هي المصانع الكبيرة والسدود العظيمة »[1] .

إن لهؤلاء الباحثين الاجتماعيين المزعومين قدرة كبيرة على خلق هذه الأفكار الجديدة ، الّتي تنتقل من (دين الإله) إلى فكرة (الدين بغير الإله) ، وذلك ناشيء عن الطريق المعوجة الّتي سلكها بحثهم ، وهم يغمضون أعينهم عن جميع النواحي العلمية الأخرى الّتي تلقى ظلالاً من الشكوك حول جداولهم الارتقائية . ومثاله أن علماء الاجتماع والإنسان قد توصلوا بعد أبحاثهم الفنية الدقيقة إلى أن (نظرية الإله) شكل ارتقائي لفكرة تعدد الآلهة، غير أن هذا الارتقاء ضل طريقه واتجه إلى طريق غريبة ، وحيّر العلماء كما شوّش أمره على نفسه ، بارتقائه الباطل من فكرة تعدد الآلهة إلى فكرة الإله الواحد .

إن فكرة تعدد الآلهة كانت تحمل قيماً اجتماعية مؤداها أن يعيش مؤمنو الآلهة المختلفة في سلام باعتراف متبادل ما بينهم، « ولكن فكرة الإله الواحد أبطلت حتماً هذا الإمكان ، بخلقها نظرية الدين الأعلى (Higher Religion) ، ونتيجتها أن بدأت حروب ضارية لا نهاية لها بين شعوب الدنيا ، وهكذا سعت فكرة الإله الواحد إلى حتفها بظلفها ، بارتقائها في اتجاه مناقض، وهذا هو قانون النشوء والارتقاء »[2] .

---

(١) *Religion Without Revelation*, Julian Huxley

(٢) *Man in the Modern World*, p. 112.

ولكننا ـ فعلاً ـ قد تركنا الواقع الحقيقي في هذا الجدول ، فالتاريخ المعلوم يثبت أن أول رسول معلوم كان سيدنا نوحاً عليه السلام ، وكان يدعو إلى الله الواحد . كما أن تعدد الآلهة (Polytheism) ليس في درجة واحدة ، وإنما معناه : أن يشرك الإنسان مع الإله الأكبر آلهة آخرين ، يقربونه إليه ، ويشفعون له . وفي وجود هذه الحقائق تتحول نظرية النشوء والارتقاء إلى ادعاء لا دليل عليه .

• • •

وفكرة (ماركس) هي أكثر نظريات هذه المجموعة عبثاً ، فهي تقول: إن الأحوال الاجتماعية هي التي تقوم ببناء الإنسانية وتكميلها، ومن ثم كان العصر الذي وجد فيه الدين عصر الإقطاع والرأسمالية ، وهو عصر الانتهازيين اللصوص ، كما أن الأفكار الدينية والأخلاقية التي تولدت في هـذا العصر تحمل نفس الطابع الانتهازي الاستعماري .. والحق أن هذه الفكرة ليست لها قيمة من الناحية العلمية ، كما أنها عند التحليل العلمي والتجربة العملية لا طريق إلى تصديقها .

فالفكرة الماركسية تنفي بشدة إرادة الإنسان ، وهي تحيل الأحداث إلى تأثير عوامل الزمن الاقتصادية، ومعنى ذلك أن الإنسان لا شخصية له ، فهو يصاغ في مجتمعه، كما يصاغ الصابون في المصنع، ولا طريق أمامه كي يشق أفكاراً وطرقاً جديدة ، وإنما هو ينطلق مفكراً على النهج الذي سمحت له به حياته الاقتصادية، فإذا كانت هذه القضية صحيحة ، فكيف تمكن كارل ماركس ـ وليد النظام الرأسمالي ـ من أن يفكّر ضد العوامل الاقتصادية الرائجة في عصره ؛ هل صعد القمر لكي يبحث في أحوال الأرض ؟

وبعبارة أخرى : لو صح أن الدين وليد عصرٍ مخصوص فكيف لم تكن الماركسية وليدة النظام الاقتصادي لعصرها ؟؟.. وإذا لم نسغ هذا الوضع فيما يتعلق بالماركسية فكيف نسيغه بالنسبة إلى الدين؟.. الحق أن هذه الفكرة عبث مثير لا يحمل على ظهره أي دليل علمي أو عقلي .

• • •

هذا وقد اتضحت أخطاء هذه الفكرة بالتجارب العملية ، وحسبنا روسيا ؛ هنالك حيث سادت الماركسية نصف قرن من الزمـــان ، ادعت روسيا خلاله أن أحوال البلاد المادية قد تغيرت تماماً، وأن النظام الزراعي، والمبادلة، وتقسيم الأموال ، قد جرت على أسس غير استغلالية ، ولكنا وجدنا حين مات ستالين أن قادة الروس أنفسهم قد أقروا بأن الظلم والفساد كانا رائجين في عهده ، وأنه كان يستغل الشعب كما يستغله الحكام في البلاد الاستعمارية . ولو وضعنا في اعتبارنا واقع الرقابة الشديدة على الصحف ووسائل الإعلام ، وهي التي تمكن بها ستالين من أن يذيع على العالم أن عهده هو عهد العدل والإنصاف ، فلا ريب أن هذه الرقابة موجودة هناك اليوم أيضاً . ومن هنا نستطيع أن نفهم أن الأمور تجري وراء ستائر الدعاية الجميلة على ما كانت عليه في عهد ستالين . وإذا كان المؤتمر العشرون (١٩٥٦) للحزب الشيوعي الروسي قد أفشى مظالم ستالين، فلا غرابة أن يجيء المؤتمر الأربعون للحزب الشيوعي بإفشاء أسرار حكام روسيا اليوم[١] .

إن هذا النظام الذي استغرقت تجربته نصف قرن من الزمان ليدلّنا على أن الإنسان لا يتغير بتغيير نظام الزراعة والمبادلة المزعوم ، ولو كان العقل الإنساني تابعاً للنظام الاقتصادي فلماذا نجد الظلم والفساد والاستغلال في نظام روسيا الشيوعي ؟

• • •

إن قضية العصر الحاضر لا تعدو أن تكون « سفسطة علمية Scientific Sophism » . ذلك أن علماء هـــذا العصر يعالجون قضاياهم في ضوء العلم الحديث ، غير أن هذه المعالجة لا تجدي نفعاً ، لأنها قائمة عـــلى العلم المحض وحسب ، على حين لا بد من اعتبار أشياء أخرى ، ومثال ذلك : أن نشرع

---

(١) وقد أكد هذا عزل خروشوف والحوادث التي تلته في روسيا في أكتوبر عام ١٩٦٤ م.

في دراسة علمية لأشياء علمية ناقصة ، فسوف تؤدي هذه المطالعة العلمية إلى نتائج غير علمية ، ناقصة ، باطلة .

• • •

لقد عقد في دلهي في يناير ١٩٦٤ مؤتمر دولي للمستشرقين ، اشترك فيه ألف ومائتان من العلماء من جميع أنحاء العالم . وقدم أحدهم في هذا المؤتمر بحثاً يدعي فيه أن مآثر كثيرة لمسلمي الهند ليست من عمل المسلمين ، وإنما هي من عمل الملوك الهندوس . وضرب لذلك مثلاً بمنارة قطب في دلهي ، المنسوبة إلى الملك قطب الدين أيبك ، على حين بناها الملك الهندوسي سامودرا جوبت قبل ٢٣ قرناً . وقد أخطأ المؤرخون المسلمون فنسبوها إلى الملك قطب الدين . ويستدل هذا البحث بأن في المنارة المذكورة بعض أحجار قديمة نحتت قبل عصر الملك قطب الدين .

وهذا – كما يبدو – استدلال علمي . إذ أن بعض أحجار المنارة فعلاً من الصنف الذي ذكره العالم ، ولكن هل يكفي مشاهدة بعض أحجار المنارة للبتّ في أمر بانيها ؟ أو أنه لا بد من نواح أخرى كثيرة لنشاهدها في هذا الصدد . ومن هنا فإن هذا التفسير لا يصدق على منارة قطب – ككل . هذا تفسير . وهناك تفسير آخر ، هو أن هذه الأحجار القديمة التي يوجد بعضها في المنارة ، إنما جاءت من أنقاض أبنية قديمة ، كما هو معروف في كثير من الأبنية التاريخية الحجرية . ولا مناص من أن نقبل هذا التفسير الثاني حين نشاهد منارة قطب الدين ، في ضوء طابعها المعماري ورسومها وتصميمها ، والمسجد الناقص بجوارها ، والمنارة الثانية التي لم تكمل ، ثم نتتهي إلى أن التفسير الأول ليس إلاّ قياساً خاطئاً قائماً على المغالطات .

• • •

وهذا هو أمر قضية المعارضين . فإنهم نظروا إلى حقائق ناقصة وجزئية ، لا يتصل بعضها بالموضوع مطلقاً ، واعتقدوا أن الدراسة العلمية الحديثة قد

أبطلت الدين ، على حين أننا لو نظرنا إلى الواقع جملة وتفصيلاً فسوف نصل إلى نتيجة تختلف عن الأولى كل الاختلاف .

والدليل الذي يقنعني بصدق الدين هو أن عقولاً مثالية منا — بعد أن تركت الدين — قد أخذت تهذي بكلمات لا حقائق وراءها ، وتعمه في تيه الظلام ؛ ذلك أن الإنسان بعد أن يفقد أساس [الدين] لا يجد أساساً آخر لأفكاره . والأسماء التي تأتي في قوائم المعارضين أكثرها من عقولنا الكبيرة ، ولكنهم بعد ما تخلوا عن الدين راحوا يكتبون ضروباً من اللغو غايةً في الإهمال والتمزق ، حتى إنني أتحير — أحياناً — فلا أفهم كيف صدرت هذه الكلمات عن قلم رجل من العلماء؟.. وإن السجل الذي أنتجه هؤلاء ليشتمل على خرافات وآراء متناقضة، واعترافات بجهل الحقيقة، كما يشتمل على أدلة أشبه بالسفسطة . فبطولـــة هؤلاء تكمن في أنهم أغمضوا أعينهم عن الحقائق الظاهرة ، وشادوا قناطر خيالية من الادعاء ، كما تتمثل في استدلالهم بالشاذ من الأمور . وذلك من سمات القضايا الباطلة . أمّا القضايا الصحيحة فإنها تقوم على أسس علمية ثابتة ، لا على الشواذ .

* * *

وتتجلى حقيقة الدين وسفسطة قضية المعارضين أكثر من ذلك حين نطالع صورة الحياة الإنسانية في ضوء الدين ، إنها صورة جميلة لطيفة، تتوافق مع أفكار الإنسان السامية ، كما يتوافق الكون المادي مع القوانين الرياضية ، بعكس تلك الصورة التي يرسمها المعارضون، فهي صورة جد قبيحة، وهي لا تتفق أبداً مع الذهن الإنساني، وانظر إلى ما يقوله برتراند رسل :

« الإنسان وليد عوامل ليست بذات أهداف ، إن بدأه ونشوءه، وأمانيه ومخاوفه ، وحبه وعقائده ، كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضي اتفاقي في نظام الذرة ، والقبر ينهي حياة الإنسان . ولا تستطيع أية قوة إحياءه مرة أخرى . إن هذه المجهودات الطويلة ، والتضحيات ، والأفكار الجميلة ، والبطولات

العبقرية ، كلها سوف تدفن إلى الأبد مع فناء النظام الشمسي . إن الكفاح الإنساني كله سوف يدفن حتماً مع الأرض تحت أنقاض الكون . ولو لم تكن هذه الأفكار قطعية فإنها أقرب ما تكون إلى الحقيقة ، حتى إن أية فلسفة تحاول إنكارها ستلقى فناءها تلقائياً »[1] .

ويكاد هذا الاقتباس أن يكون خلاصة الفكر المادي . فالكون في ضوء هذا الفكر المادي ــ يكاد يفقد كل أهدافه ، ولا يبقى غير الظلام الحالك ؛ الظلام الذي تتلاشى فيه معايير الخير والشر ، حتى إن إبادة الناس بالقنابل لا تعد ظلماً ؛ لأنهم سوف يلقون حتفهم على أية حال يوماً ما . أما الفكر الديني فهو فكر الضوء والأمل ؛ الموت والحياة مرتبطان فيه بأهداف معينة ، وكل القيم والأفكار الإنسانية السامية تجد لها مكاناً فيه . وإذا كان بعض العلماء ، بمجرد تصديق القوانين الرياضية لأفكاره ، يطمئن إلى أنه قد توصل إلى الحقيقة ، فإن تصديق العقل الإنساني للفكر الديني دليل قطعي على أنه هو الحقيقة التي طالما بحثت عنها الفطرة الإنسانية ، وعندئذ لا نجد أساساً واقعياً لإنكار قيمة الفكر الديني ، هذا وهو « المقياس » العلمي الذي يشير إليه الرياضي الأمريكي البروفيسور (ارل تشستر ريكس) قائلاً :

« إنني أستخدم في أبحاثي ذلك المقياس العلمي المسلم ، الذي يستخدم في ترجيح إحدى فكرتين مختلفتين أو أكثر ، عن حقيقة واحدة . وهو المقياس الذي نرجح بناء عليه الفكرة التي تفسر المسائل المتنازع فيها بطريقة أكثر بساطة وسهولة . لقد استخدم العلماء هذا المقياس لاختيار إحدى نظريتي بطليموس وكوبرنيك : كانت الأولى تزعم أن الأرض هي مركز النظام الشمسي ، على حين أكدت الثانية أن النظام الشمسي هو مركز الأرض . وكانت نظرية بطليموس غاية في التعقيد حتى رفضها العلماء »[2] .

° ° °

(١) *Limitations of Science*, p. 133

(٢) *The Evidence of God*, p. 179

ولا بأس من الاعتراف بأن هذه الأدلة لن تقنع بعض الناس ، فإن أبواب عقولهم المادية موصدة دون أي كلام – مهما يكن علمياً – عن الإله أو الدين. ومن المؤكد أن موقفهم هذا ليس لأن استدلالنا ضعيف ، وإنما هو راجع إلى تعصّبهم المقيت ضد الأفكار الدينية ، ولقد صدق عالم بريطانيا العظيم سير جيمس جينز – الذي يعتبر ولا شك أعظم علماء العصر الحديث – حيث قال في كتابه الشهير (عالم الأسرار) :

« إن في عقولنا الجديدة تعصباً يرجح التفسير المادي للحقائق »[1] .

وذكر (ويتكر شامبرز) في كتابه (الشهادة) Witness حادثاً كان من الممكن أن يصبح نقطة تحول في حياته . ذكر أنه بينما كان ينظر إلى ابنته الصغيرة استلفتت أذناها نظره ، فأخذ يفكر في أنه من المستحيل أن يوجد شيء معقد ودقيق ، كهذه الأذن ، بمحض اتفاق ، بل لابد أنه وجد نتيجة إرادة مدبرة ، لكن (ويتكرشامبرز) طرد هـــذه الوسوسة عن قلبـــه ، حتى لا يضطر أن يؤمن – منطقياً – بالذات التي أرادت فدبرت ، لأن ذهنه لم يكن على استعداد لتقبل هذه الفكرة الأخيرة .

ويقول الأستاذ الدكتور (تامس ديود باركس) بعد أن يذكر هذا الحادث :

« إنني أعرف عدداً كبيراً من أساتذتي في الجامعة ، ومن رفقائي العلماء الذين تعرضوا مراراً لمثل هذه المشاعر ، وهم يقومون بعمليات كيماوية وطبيعية في المعامل »[2] .

° ° °

لقد أجمع علماء هذا العصر على صدق نظرية النشوء والارتقاء ... وقد بدأت هذه النظرية تسود فعلاً جميع فروع العلوم الحديثة . فكل مشكلة تحتاج « إلهاً » في تفسيرها توضع مكانه هذه النظرية بغير تردد .

---

(١) *Mysterious Universe*, p. 189.
(٢) *The Evidence of God*, pp. 73-74.

هذا جانب من النظرية ، وأما الجانب الثاني - وهو الجانب المظلم منها - الذي يقرر (فكرة التطور العضوي) Organic Evolution الذي استنبطت منه فكرة الارتقاء ، فقد بقي إلى يوم الناس هذا بلابراهين. وبلا أدلة علمية ! ! حتى قال كثير من العلماء : « إنهم لا يؤمنون بهذه النظرية ، إلا لأنه لا يوجد أي بديل لها سوى الإيمان بالله مباشرةً » .

وكتب سير آرثر كيث يقول :

« إن نظرية النشء والارتقاء غير ثابتة علمياً ، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو (الإيمان بالخلق الخاص المباشر)، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه »[1] ! !

° ° °

إني أقر هنا بعجزي عن إقناع أولئك ، الذين ينطوون على التعصب الأعمى للتفسير المادي ، بحقية الدين. ولهذا التعصب جذور عميقة ، كما يقول عالم أمريكي : « إن كون العقيدة الإلهية معقولة ، وكون إنكار الإله سفسطة لا يكفي ليختار الإنسان جانب العقيدة الإلهية . فالناس يظنون أن الإيمان بالله سوف يقضي على حريتهم ، تلك الحرية العقلية التي استعبدت عقول العلماء ، واستهوت قلوبهم ، فأية فكرة عن تحديد هذه الحرية مثيرة للوحشة عندهم »[2]

وبناء على هذا يدعي جوليان هكسلي أن فكرة النبوة « هي إظهار للتفوق بطريقة شاذة لا يمكن احتمالها » ؛ إذ أن معنى الإيمان بنبي أن نؤمن بكلامه على أنه كلام الإله ، ثم نمتثل - طوعاً أو كرهاً - لكل ما يأمر به .

ولكن إذا كان الإنسان مخلوقاً وليس خالقاً ، عابداً وليس معبوداً ، فكيف يستطيع أن يقضي على الحقائق بمجرد أفكار نبتت في عقله ؟... إننا

---

(١) *Islamic Thought*, December, 1961.

(٢) George H. Blount, *The Evidence of God*, p. 130.

لا نستطيع أن نغير الحقائق ؛ وإنما نستطيع أن نعترف ــ أو نؤمن بها ــ فحسب .
وإذا كنا لا نحب أن تكون عاقبتنا عاقبة النعامة ، فأفضل خيار لنا أن نسلّم بالحقيقة قبل أن تفوت الفرصة نهائياً .

إن كفرنا بالحقيقة لن يسيء إلى قضيتها ، ولكن الخسران كله سوف يكون من حظنا في الآخرة .

• • •

الباب الثالث

طريقة الاستدلال العلمي

إن قضية العصر الحاضر ضد الدين هي قضية طريقة الاستدلال ، أعني الطريقة الجديدة التي كشفها العلم الحديث بعد التطورات في ميادينه العديدة ، بحيث لم تعد تقف أمامها دعوى الدين وعقائده . هذه الطريقة الجديدة هي معرفة الحقيقة بالتجربة والمشاهدة، على حين تتصل عقائد الدين بعالمما وراء حواسنا ، ولا يمكن إخضاعها للتجربة . (فالدين كله مبني على قياس واستقراء)[1] ، وهذا هو ما يجعله باطلاً ، لأنه ليس له أساس علمي .

° ° °

حقيقة التجربة والقياس :

وقضية العصر الحاضر باطلة ، لأنها لا تقوم على أسس علمية ، فالطريقة

---

(١) ومثاله أن أصحاب الدين إذا أرادوا إثبات وجود الإله لا يقدرون على ذلك باستعمال التلسكوب ، ولكنهم يستدلون بأن نظام الكون وروحه العجيبة تدلان على أنه يوجد عقل إلهي وراءها . وهذا الدليل لا يثبت وجود الإله مباشرة ، وإنما هو يثبت قرينة تستلزم الإيمان بالله بعد الإيمان بها .

الحديدة لا تنفي وجود أشياء لم تجرب مباشرة ، كما لا تنفي قياس أشياء لم نشاهدها على أشياء شاهدناها تجريبياً ، وهو ما يسمى « قياساً علمياً » ، ويعتبر كالتجربة المباشرة . فالتجربة لا تعد حقيقة علمية لمجرد أنها شوهدت ، كما أن القياس ليس باطلاً لمجرد أنه قياس . فإمكان الصحة والبطلان موجود فيهما على سواء .

كان الناس في القديم يصنعون السفن الشراعية من الخشب ، اعتقاداً منهم أن الماء لا يحمل إلا ما يكون أخفّ منه وزناً . وحين قال بعضهم : إن السفن الحديدية سوف تطفو على سطح الماء كالتي من الخشب ، أنكر الناس عليه مقالته واتخذوه هزواً ، وجاء نحّاس فألقى بنعلٍ من حديد في دلو مملوء بالماء ليشهد الناس على أن هذه القطعة الحديدية — بدل أن تطفو على سطح الماء — استقرت في القاع . كان هذا العمل تجربة ، ولكننا جميعاً نعتقد اليوم أنها كانت تجربة باطلة ، فلو كان النحاس قد ألقى بطبق من حديد لشاهد بعينيه صدق ما قيل من طفو السفن الحديدية .

° ° °

وفي بداية القرن العشرين كنا كذلك نملك تلسكوباً ضعيفاً ، فلما شاهدنا السماء بهذا المنظار وجدنا أجراماً كثيرة كالنور ، فاستنبطنا أنها سحب من البخار والغاز ، تمر بمرحلة قبل أن تصير نجوماً . ولكنا حين تمكنا من صناعة منظار قوي ، وشاهدنا هذه الأجرام مرة ثانية ، علمنا أن هذه الأجرام الكثيرة المضيئة هي مجموعة من نجوم كثيرة شوهدت كالسحب ، نتيجة البعد الهائل بينها وبين الأرض .

وهكذا نجد أن التجربة والمشاهدة ليستا وسيلتي العلم القطعيتين ، وأن العلم لا ينحصر في الأمور التي شوهدت بالتجربة المباشرة . لقد اخترعنا الكثير من الآلات والوسائل الحديثة للملاحظة الواسعة النطاق ، ولكن الأشياء التي نلاحظها بهذه الوسائل كثيراً ما تكون أموراً سطحية ، وغير مهمة نسبياً . أما النظريات التي يتوصل إليها بناءً على هذه المشاهدات فهي أمور لا سبيل إلى

ملاحظتها، والذي يطالع العلم الحديث يجد أن أكثر آرائه « تفسير للملاحظات » ، وأن هذه الآراء لم تجرب مباشرة، ذلك أن بعض الملاحظات يحمل العلماء على الإيمان بوجود بعض حقائق غير مشاهدة قطعياً، فأي عالم من علماء عصرنا لا يستطيع أن يخطو خطوة دون الاعتماد على ألفاظ مثل : « القوة » Force ، و« الطاقة » Energy ، و« الطبيعة » Nature ، و« قانون الطبيعة » Law of Nature ، وما إلى ذلك. ولكن هذا العالم لا يدري ما « القوة والطاقة والطبيعة وقانونها » ؟ فهو قد صاغ كلمات تعبر عن وقائع معلومة ، لكي يبين عن علل غير معلومة . وهذا العالم لا يقدر على تفسير هذه الألفاظ ، تماماً كرجل الدين ، لا يستطيع تفسير صفات الإله ، وكلاهما يؤمن – بدوره – بعلل غير معلومة .

° ° °

يقول الدكتور (الكسيس كيرل) :

« إن الكون الرياضي شبكة عجيبة من القياسات والفروض ، لا تشتمل على شيء غير « معادلة الرموز » ؛ الرموز التي تحتوي على مجردات لا سبيل إلى تفسيرها »[1].

والعلم الحديث لا يدعي، ولا يستطيع أن يدعي ، أن الحقيقة محصورة فيما علمناه من التجربة المباشرة ، فالحقيقة أن « الماء سائل » ، ونستطيع مشاهدة هذه الحقيقة بأعيننا المجردة . ولكن الواقع أن كل (جزيء) من الماء يشتمل على ذرتين من الهيدروجين، وذرة من الأوكسجين، وليس من الممكن أن نلاحظ هذه الحقيقة العلمية، ولو أتينا بأقوى ميكروسكوب في العالم ، غير أنها ثبتت لدى العلماء لإيمانهم بالاستدلال المنطقي .

° ° °

---

(١) *Man the Unknown*, p. 15

ويقول البروفسور أ.ي . ماندير :

« إن الحقائق التي نتعرفها مباشرة تسمى « الحقائق المحسوسة Percieved Facts » ، بيد أن الحقائق التي توصلنا إلى معرفتها لا تنحصر في « الحقائق المحسوسة » ؛ فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة ؛ ولكننا عثرنا عليها على كل حال ، ووسيلتنا في هذه السبيل هي الاستنباط ، فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه « بالحقائق المستنبطة Inferred Facts » . والأهم هنا أن نفهم أنه لا فرق بين الحقيقتين ، وإنما الفرق هو في التسمية ، من حيث تعرفنا على الأولى مباشرة ، وعلى الثانية بالواسطة ، والحقيقة دائماً هي الحقيقة ، سواء عرفناها بالملاحظة أو بالاستنباط»[1] .

ويضيف ماندير قائلاً :

« إن حقائق الكون لا تدرك الحواس منها غير القليل ، فكيف يمكن أن نعرف شيئاً عن الكثير الآخر ؟... هناك وسيلة وهي الاستنباط أو التعليل . وكلاهما طريق فكري ، نبتدىء به بوساطة حقائق معلومة ، حتى ننتهي بنظرية : أن الشيء الفلاني يوجد هنا ولم نشاهده مطلقاً[2] » .

وهنا نتساءل : كيف يصح الاستنباط المنطقي لأشياء لم نشاهدها قط ؟ وكيف يمكن أن نسمي هذا الاستنباط ، بناء على طلب العقل : حقيقة علمية ؟ ويجيب ماندير بنفسه عن هذا السؤال :

« إن المنهج التعليلي صحيح ، لأن « الكون » نفسه عقلي » .

فالكون كله مرتبط بعضه بالآخر ؛ حقائقه متطابقة ، ونظامه عجيب ، ولهذا فإن أية دراسة للكون لا تسفر عن ترابط حقائقه وتوازنها — هي دراسة باطلة . ويقول ماندير في هذا الصدد :

---

(١) A.E. Mander, *Clearer Thinking*, London, p. 46.

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

« إن الوقائع المحسوسة هي أجزاء من حقائق الكون ، غير أن هذه الحقائق التي ندركها بالحواس قد تكون جزئية ، وغير مرتبطة بالأخرى . فلو طالعناهما فذة مجردة عن أخواتها فقدت معناها مطلقاً . فأما إذا درسناها في ضوء الحقائق الكثيرة مما علمناه مباشرة أو بلا مباشرة ، فإننا سندرك حقيقتها » .

ثم يأتي بمثال سليم يفسر ذلك فيقول :

« إننا نرى أن الطير عندما يموت يقع على الأرض ، ونعرف أن رفع الحجر على الظهر أصعب، ويتطلب جهداً، ونلاحظ أن القمر يدور في الفلك، ونعلم أن الصعود في الجبل أشق من النزول منه . ونلاحظ حقائق كثيرة كل يوم لا علاقة لإحداها بالأخرى ظاهراً. ثم نتعرف على حقيقة استنباطية — هي « قانون الجاذبية » ، وهنا ترتبط جميع هذه الحقائق ، فنعرف للمرة الأولى أنها كلها مرتبطة إحداها بالأخرى، ارتباطاً كاملاً داخل النظام . وكذلك الحال لو طالعنا الوقائع المحسوسة مجردة، فلن نجد بينها أي ترتيب، فهي متفرقة، وغير مترابطة ، ولكن حين نربط الوقائع المحسوسة بالحقائق الاستنباطية فستخرج صورة منظمة للحقائق »[1] .

° ° °

إن قانون « الجاذبية » لا يمكن ملاحظته قطعاً ، وكل ما شاهده العلماء لا يمثل في ذاته قانون الجاذبية ، وإنما هي أشياء أخرى ، اضطروا لأجلها — منطقياً — أن يؤمنوا بوجود هذا القانون .

واليوم يلقى هذا القانون قبولاً علمياً عظيماً ، وهو الذي كشف عنه نيوتن لأول مرة ، ولكن ... ما حقيقة هذا القانون من الناحية التجريبية ؟... ها هوذا نيوتن يتحدث في خطاب أرسله إلى (بنتلى) فيقول :

« إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا إحساس وهي تؤثر على مادة أخرى ، مع أنه لا توجد أية علاقة بينهما »[2]

° ° °

---

(١) *Clearer Thinking*, p. 51

(٢) *Works of W: Bently*, III, p. 221.

فنظرية معقدة غير مفهومة، ولا طريق إلى مشاهدتها، تعتبر اليوم، بلا جدال، حقيقة علمية!!! لماذا؟ ... لأنها تفسّر بعض ملاحظاتنا. فليس بلازم إذن أن تكون الحقيقة هي ما علمناه مباشرة بالتجربة، ومن ثم نمضي إلى القول بأن العقيدة الغيبية التي تربط بعض ما نلاحظه، وتفسر لنا مضمونه العام - تعتبر حقيقة علمية من نفس الدرجة!...

° ° °

يقول البروفيسور ماندير:

« القول بأننا عرفنا الحقيقة يعني: أننا عرفنا معناها، وبعبارة أخرى: أننا بحثنا عن وجود شيء، وعن أحواله. ففسرناه. وأكثر عقائدنا تدخل في هذا النطاق ، فهي في الحقيقة: « تفسيرات للملاحظة ».

ويستطرد ماندير فيتكلم عن « الحقائق الملحوظة »:

« عندما نذكر « ملاحظة » فإننا نقصد شيئاً أكثر من المشاهدة الحسية المحضة، فمعناها: « الملاحظة الحسية » و« التعرف » بما يشمل جانب التفسير ».[1]

° ° °

نظرية التطور العضوي:

هذه هي القاعدة العلمية التي على أساسها وافق العلماء على حقيقة نظرية (التطور العضوي) ، كما قال ماندير: « لقد ثبت صدق هذه النظرية ، حتى إننا نستطيع أن نعتبرها « أقرب شيء إلى الحقيقة »[2] !

ويقول سميسن في هذا الصدد:

« إن نظرية النشوء والارتقاء حقيقة ثابتة أخيراً وكلياً . وليست بقياس، أو (فرض بديل) صيغ للبحث العلمي »[3] .

---

(١) *Clearer Thinking*, p. 56.

(٢) *Meaning of Evolution*, p. 127

(٣) *Ibid.*, p. 113

ويعتقد محرر دائرة المعارف البريطانية (١٩٥٨): أن نظرية الارتقاء في الحيوانات « حقيقة »، وأن هذه النظرية قد حظيت بموافقة عامة بين العلماء والمثقفين بعد داروين.

وقال ر. س. لَل:

« ظلت نظرية الارتقاء تحصل على تأييد متزايد، يوماً بعد يوم، بعد داروين، حتى إنه لم يبقَ شك لدى المفكرين والعلماء في أن هذه هي الوسيلة المنطقية الوحيدة التي تستطيع أن تفسر عملية الخلق وتشرحها »[1]

° ° °

هذه النظرية التي أجمع العلماء على صحتها، هل لاحظها أحدهم أو جربها في معمله؟ ... والجواب: لا! فذلك ضرب من المستحيل. إن مزعومة الارتقاء معقدة، وهي تتعلق بماض بعيد جداً، حتى إنه لا سؤال عن تجربتها وملاحظتها، وهي على ما أكده (لل) في كلمته السابقة: « وسيلة منطقية » لتفسير مظاهر الخلق، وليست بملاحظة واقعية. وأرى أن هذا هو السبب الذي دفع « السير آرثر كيث » — الذي يعتبر محامياً متحمساً لنظرية الارتقاء — أن يسلم بأن هذه النظرية ليست بملاحظة أو تجربة، وإنما هي مجرد عقيدة. ومن كلماته:

« إن نظرية الارتقاء « عقيدة أساسية » في المذهب العقلي »[2].

وعرّف أحد المعاجم العلمية نظرية داروين بأنها « نظرية قائمة على تفسير بلا برهان »[3].

° ° °

---

(١) *Organic Evolution*, p. 15

(٢) *Revolt against Reason*, p. 112.

(٣) *Ibid.*, p. 111.

فما الذي يجعل شيئاً غير ملاحظ وغير قابل للتجربة « حقيقة علمية » ؟ يذكر (ماندبر) أسباب ذلك فيقول :

١ – هذه النظرية توافق جميع الحقائق المعلومة .

٢ – في هذه النظرية تفسير لكثير من الوقائع ، لايمكن فهمها إلا من طريقها .

٣ – ولم تظهر بعدُ نظرية تناسب وتوافق الحقائق بهذه الدقة[1] .

فإذا كانت هذه الأدلة كافية لتصبح نظرية الارتقاء حقيقة علمية فهي كذلك موجودة في جانب الدين على وجه أتم وأكمل . والقول بصدق نظرية الارتقاء وإبطال الدين في نظر الذهن العلمي لا يعني مطلقاً أن قضية المعارضين هي قضية الاستدلال العلمي ، وإنما هذه القضية تتعلق « بالنتيجة » ، فلو أثبت نفس الاستدلال أمراً « طبيعياً محضاً » فسيقبله المعارضون ، وسيرفضونه لو أثبت أمراً إلهيّاً – لأنه غير مرغوب فيه عندهم .

° ° °

مشكلة تعيين حقائق الأمور :

وبهذا لا ينبغي القول بأن الدين هو « الإيمان بالغيب » ، وبأن العلم هو الإيمان « بالملاحظة العلمية » ، فالدين والعلم كلاهما يعتمد على الإيمان بالغيب . غير أن دائرة الدين الحقيقية هي دائرة « تعيين حقائق الأمور » نهائياً وأصليّاً ، أما العلم فيقتصر بحثه على المظاهر الأولية والخارجية ، فحين يدخل العلم ميدان تعيين حقائق الأمور تعييناً حقيقياً ونهائياً – وهو ميدان الدين الحقيقي – فإنه يتبع نفس طريق الإيمان بالغيب ، الذي يُتَّهَمُ به الدين . ولا بد من هذا السلوك في « الميدان الثاني » ، كما قال سير آرثر ادنجتن : « إن عالمنا في العصر الحاضر يعمل على منضدتين في وقت واحد : إحداهما : المنضدة العامة التي

---

(١) *Clearer Thinking*, p. 112.

يستعملها الرجل العادي ، والتي يمكن لمسها ورؤيتها . وأما الأخرى : فهي « المنضدة العلمية » ؛ وأكثرها في الفضاء ، وتجري فيها الكترونات لا حصر لها ولا تشاهد » ، ويستطرد سير آرثر أدنجتن قائلا : « وهكذا نجد لكل شيء صورة ذات وجهين ، أحدهما : (ملحوظ) ، والآخر : (صورة فكرية) لا سبيل إلى مشاهدتها بأي ميكروسكوب أو تلسكوب »(١) .

أما الوجه الأول فيشاهده العلم ، ويشاهده لمدى بعيد جداً ، ولكنه لايستطيع أن يدعي أنه يشاهد الوجه الآخر . وطريقة العلم الحديث أنه يقدم رأياً عن شيء بعد مشاهدة مظاهره . وأما « الميدان الثاني » فهو ميدان معرفة حقائق الأشياء وتعيينها ، و « العلم » في هذا الميدان هو البحث عن حقائق غير معلومة ، بوساطة حقائق معلومة .

وعندما يجتمع لدى عالـم من العلماء قدر مناسب من « الحقائق الملحوظة » فإنه يحس بضرورة وضع نظرية أو فرض علمي ، وبعبارة أدق : ضرورة فكرة اعتقادية ووجدانية ، تقوم بتفسير الملاحظات ، وربط بعضها ببعض ، فإذا نجحت هذه الفكرة الاعتقادية في تفسير الحقائق تفسيراً كاملاً عُدت حقيقة علمية ، رغم أنها لم تُلاحظ قط كما لوحظت الحقائق الأخرى التي نعرفها بالمشاهدة ، أو بالملاحظة العلمية .

ومعنى ذلك أن العالم يؤمن بوجود شيء غائب بمجرد ظهور نتائجه وآثاره ، فكل حقيقة نؤمن بها تكون دائماً (فرضاً) في أول أمرها ، إلى أن نكشف حقائق جديدة تدعم صدقها ، فنزداد يقيناً بها ، حتى نبلغ حق اليقين . وإذا لم تؤيدها الملاحظات اللاحقة تخلّينا عنها . ومن أمثلة هذه « الحقائق » : حقيقة « الذرة » التي لا سبيل إلى إنكارها ، برغم أنها لم تشاهد قط بالمعنى المعروف ، ولكنها تعتبر أكبر حقيقة علمية كشفت في هذا العصر . وهذا هو السبب الذي دفع أحد العلماء أن يعرّف (النظريات) العلمية بالألفاظ التالية :

"Theories are mental pictures, that explain known laws."

---

(١) *Nature of the Physical World*, pp. 7-8.

« النظريات صور ذهنية تفسر القوانين المعلومة » .

• • •

حقيقة النظريات العلمية :

إن الحقائق التي تعرف في العلم باسم « الحقائق الملحوظة » ليست بحقائق شوهدت فعلاً ، وإنما هي تفسيرات لبعض المشاهدات ، لأن المشاهدة الإنسانية لا يمكن أن توصف بأنها (كاملة) ، ولذا فإن جميع هذه التفسيرات تعد « إضافية » ، ومن الممكن أن تتغير بتطور الملاحظة .

ويقول البروفيسور سوليفان بعد نقد وجهه إلى النظريات العلمية :

« هذا العرض للنظريات العلمية يثبت أن معنى « نظرية علمية صحيحة » أنها « فروض عملية ناجحة »(Successful Working Hypothesis) ومن الممكن تماماً أن يكون سائر النظريات العلمية باطلاً ؛ ذلك أن النظريات التي نعتبرها اليوم (حقيقة) ليست إلا « قياساً على وسائلنا المحدودة للملاحظة » ، ولا تزال قضية الحقيقة في عالم العلم « قضية علمية ونفعية » (Pragmatic Affair)[1].

• • •

ولا يزال العلماء بعد هذا يعتبرون أن الفرض الذي يفسر ملاحظاتهم لا يقل في قيمته عن « الحقيقة الملحوظة » نفسها ، فهم لا يستطيعون أن يقولوا : إن الحقائق الملحوظة هي وحدها « العلم » ، وإن ما سواها من النظريات الشارحة لا تدخل في نطاق (العلم) ، لأنها غير ملحوظة .. والحق أن هذا هو ما نسميه « الإيمان بالغيب » ، وهو بالنسبة إلى المؤمنين ليس سوى الإيمان بحقائق غير ملحوظة ، فهو ليس بعقيدة عمياء ، وإنما هو خير تفسير للحقائق التي يشاهدها العلماء ..

• • •

(١) J.W.N. Sullivan, *Limitations of Science*, p. 158.

وكما رفض العلماء نظرية الضوء التي قدمها نيوتن وتعرف باسم Corpuscular Theory of Light لأنها لم تنجح في تفسير مظاهر حديثة للضوء ؛ فإننا نرفض أفكار الفلاسفة الملحدين ، لأنها فشلت في تفسير مظاهر الطبيعة .

إن مأخذ حقائق الدين هو نفس المأخذ الذي يستقى منه العلم الحديث ملاحظاته ، لكي يثبت نظرية علمية . ولقد انتهينا بعد دراسة الحقائق الملحوظة إلى أن تفسير الدين للطبيعة هو عين الحق. حتّى إن هذا التفسير لم يتغير ، ولن يتغير على مر الدهور ، على حين أن كل نظرية صاغها الإنسان منذ قرن ، أو أكثر أو أقل ، قد رفضت ، أو أصبحت موضع شك الآن ..

وإن صدق الدين ليتجلى بعد كل خطوة نخطوها في الملاحظة ، حتى ليصبح كل كشف علمي جديد تصديقاً لحقائق الدين !

ولسوف نطالع أفكار الدين من هذه الناحية في الأبواب التالية .

° ° °

الباب الرابع

الطبيعة تشهد بوجود الإله

أصدرت الكنيسة المسيحية في كيرالا جنوبي الهند كتيباً بعنوان :

Nature and science speak about God.

« الطبيعة والعلم يتحدثان عن الله » .. وأعتقد أن هذه الكلمات هي أفضل عنوان لهذا الباب .

إن أكبر دليل على وجود الإله هو مخلوقه ، هذا الذي نجده أمامنا . وأوثق ما علمنا من حقائق الطبيعة يدعونا إلى الإيمان بأنه لا ريب أن لهذه الدنيا إلهاً واحداً. ونحن لا نستطيع أن نفهم أنفسنا وأن نفسِّرها، بَلْهَ الكونَ كله — مجردين من الإيمان بوجود الإله .

إن وجود الكون ، والنظام العجيب الذي اشتمل عليه ، وأسراره الدقيقة ، لا يمكن تفسير ذلك كله إلا بأنه قد خلقته (قوة) ، وأن هذه القوة (عقل) لا حدود له ، وأنها ليست بقوة عمياء .

أولاً ـ نظرية التشكيك في الوجود :

هناك جماعة من المفكرين هزيلة العدد جداً ، « تشك » في مجرد وجود مثل هذه القوة . وتعتقد هذه الجماعة أنه لا وجود للإنسان ، ولا للكون ، وأن الوجود عبارة عن عدم محض ، ولا شيء غير ذلك .

فلو سلمنا بهذه الفكرة لالتبس علينا أمر الإله دون شك ... ولكنا حين نؤمن بأن الكون موجود نضطر تلقائياً أن نؤمن بالإله ؛ أو بالقوة الخالقة ـ كما نسميها ، فليس بمعقول أن نؤمن بالوجود من العدم المحض ؛ ذلك قياس باطل !!

فهذا التشكيك في وجود الكون ، والذي يتخذ أحياناً شكل نظرية الا « لا أدرية »[1] ـ يمكن أن يعد نكتة فلسفية، لا علاقة لها بالحقيقة . فنحن حين نفكر يكون فكرنا هذا دليلاً قاطعاً في ذاته على أن لنا وجوداً[2] . وحين نصطدم في الطريق بحجارة ثم نتألم فهذا الواقع دليل في ذاته على أن هناك عالماً موجوداً وجوداً ذاتياً خارج وجودنا . وهكذا تدرك حواسنا في كل وقت أشياء كثيرة ، من الفرح والألم والتذوق ، فهذا الاحساس والشعور دليل لكل شخص على أنه موجود في كون ، وعلى أنه يملك وجوده الذاتي، وحينئذ فلو قام أحد يشكك نفسه في وجوده الذاتي ووجود الكون فسوف نعتبر ذلك حالة استثنائية مفردة، لا ترتبط بتجربة الملايين من جماهير الناس. وسوف نقول عن هذا الرجل الفذ : إنه قد غاب في عالمه الذهني ، حتى نسي نفسه ...

بل إننا لو سلمنا ـ جدلاً ـ بأنه ليس للكون في ذاته وجود خارج ذاتنا ، فلست أعتبر هذا دليلاً ملزماً بأنه لا وجود للإله .

---

(١) هذا مصطلح مستعمل في اللغة الأردية مأخوذ من عبارة « لا أدري » ، يشير إلى الاتجاه الذي ينكر معرفة شيء عن الكون ، لأن الكون لا وجود له على الحقيقة (المراجع) .

(٢) يستخدم المؤلف هنا تلك العبارة الفلسفية الشائعة : « أنا أفكر ، إذن فأنا موجود » (المراجع) .

وعلى كل حال فهذه هي الفكرة الوحيدة التي ترى وجود الإله مشكوكاً فيه: بكل ما تتضمن من السفسطة والجهالة وانعدام الواقعية ، وهي فكرة لا معنى لها في ذاتها ، وليست مفهومة لدى جمهور الناس ، كما أنها لم تحظ بقبول في دنيا العلم .

° ° °

الوجود والخلق :

إن الإنسان العادي ، والعالم العادي يؤمن على كل حال بأن « له » وجوداً ، وبأن للكون أيضاً وجوداً ، وعلى هذا الأساس من العلم والإيمان تقوم جميع ألوان النشاط العلمي والحيوي .

فإذا آمنا بوجود الكون فلا بد أن نؤمن بإله هذا الكون منطقياً .. إذ لا معنى لأن نؤمن بالمخلوق ونرفض وجود خالقه ، ونحن لا نعلم شيئاً جاء إلى الوجود من العدم ، دون أن يخلق ، فكل شيء مهما بلغ حجمه ، عظم أو أو صغر ، جل أو دق ، وراءه علة، فكيف بنا نؤمن بأن كوناً عظيماً — مثل كوننا — جاء إلى الوجود ذاتياً ، دون خالق ؟؟

ذكر (جون ستيوارت ميل) في سيرة حياته : أن أباه قد علمه أن سؤال « من الذي خلقني ؟ » لا يكفي لإثبات وجود الإله ، إذ ينجم تلقائياً سؤال : «فمن ذا الذي خلق الإله ؟ »، وقد اعتد (برتراند رسل) هذا الاعتراض الثاني كافياً لرفض مدلول السؤال الأول[1] .

ونحن نعرف أن هذا الاستدلال قديم جداً لدى الملحدين ؛ ومقتضاه : أننا لو افترضنا خالقاً للكون فسوف نضطر أن نتصوره أزلياً ! !

---

(١) Norton White, *The Age of Analysis*, pp. 21-22.

الأزلي : الخالق أم المادة ؟

وإذا كان لا مناص من افتراض أزلية هذا الخالق ، فلماذا لا نؤمن بأزلية هذا الكون ؟ وهذا الكلام لا معنى له ، لأننا لم نعثر على صفات للكون ، أية كانت ، تثبت أنه خالق نفسه .

ولقد كان لهذا الاستدلال حسنُه ورواؤه حتى القرن التاسع عشر ، ولكنا اليوم ، وبعد كشف « القانون الثاني للحرارة الديناميكية » Second Law of Thermo Dynamics نجد أن هذا الاستدلال فقد كل أساس كان يقوم عليه .

وهذا القانون الذي نسميه « قانون الطاقة المتاحة » أو « ضابط التغير » Law of Entropy يثبت أنه لا يمكن أن يكون وجود الكون أزلياً، فهو يصف لنا أن الحرارة تنتقل دائماً من (وجود حراري) إلى (عدم حراري) ، والعكس غير ممكن ، وهو أن تنتقل هذه الحرارة من (وجود حراري قليل) أو (وجود حراري عدم) إلى (وجود حراري أكثر) . فإن ضابط التغير هو التناسب بين « الطاقة المتاحة » و « الطاقة غير المتاحة » .

وبناء على هذا الكشف العلمي الهام فإن « عدم كفاءة عمل الكون » يزداد يوماً بعد يوم ، ولا بد من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات ، وحينذاك لا تبقى أية طاقة مفيدة (للحياة والعمل) ، وسيترتب على ذلك أن

تنتهي العمليات الكيماوية والطبيعية ، وتنتهي - تلقائياً - مع هذه النتيجة « الحياة » .

• • •

وانطلاقاً من هذه الحقيقة القائلة بأن العمليات الكيماوية والطبيعية جارية ، وأن الحياة قائمة ، يثبت لدينا قطعاً أن الكون ليس بأزلي ، إذ لو كان الكون أزلياً لكان من اللازم أن يفقد طاقته منذ زمن بعيد ، بناء على هذا القانون ، ولما بقي في الكون بصيص من الحياة .

يذكر هذا التحقيق العلمي الحديث عالم أمريكي في علم الحيوان ، هو الأستاذ (أدوارد لوثر كيسل) فيقول :

« وهكذا أثبتت البحوث العلمية - دون قصد - أن لهذا الكون « بداية » فأثبتت تلقائياً وجود الإله ، لأن كل شيء ذي بداية لا يمكن أن يبتدىء بذاته ، ولا بد أن يحتاج إلى المحرك الأول - الخالق الإله »[1] .

وقد قال نفس الكلام السير جيمس : « تؤمن العلوم الحديثة بأن « عملية تغير الحرارة » Entropy سوف تستمر حتى تنتهي طاقاتها كلية ، ولم تصل هذه العملية حتى الآن إلى آخر درجاتها ، لأنه لو حدث شيء مثل هذا لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض ، حتى نفكر فيها . إن هذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن ، ومن ثم لا بد لها من بداية ، ولا بد أنه قد حدثت عملية في الكون ، يمكن أن نسميها « خلقاً في وقت ما » حيث لا يمكن أن يكون هذا الكون أزلياً »[2] .

• • •

وهناك شواهد طبيعية كثيرة تثبت أن الكون لم يكن موجوداً منذ الأزل ،

---

(١) *The Evidence of God*, p. 51.
(٢) *The Mysterious Universe*, p. 133.

وأن له عمراً محدوداً ، وعلى سبيل المثال ، نجد « علم الفلك » يقرر أن الكون يتّسع بالتسلسل الدائم ، وأن كل مجاميع النجوم والأجرام والأجسام الفلكية تتباعد بسرعة مدهشة ، بعضها عن بعض . ويمكن أن نفسر هذه الحالة تفسيراً جيداً إذا نحن سلمنا بوقت للبدء ، كانت فيه كل الأجزاء التركيبية مركزة ، ومجتمعة بعضها مع بعض، ثم بدأت الحركة والحرارة . ويقدر العلماء أن هذا الكون قد وجد نتيجة « لانفجار » فوق العادة، وقع منذ ٥٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة .

فالايمان بهذا الكشف العلمي، وهو أن للكون عمراً محدوداً يتعارض مع إنكار موجده ، ومثل من يؤمن بحدوث الكون مع إنكاره لوجود خالقه ، كمثل من يزعم أن « تاج محل » قام بنفسه من غير بنائين ومهندسين ، مع تسليمه بأنه بني في القرن السابع عشر الميلادي ، ولم يكن موجوداً منذ الأزل .

° ° °

ثانياً ـ الكشوف الفلكية

يدلنا علم الفلك على أن عدد نجوم السماء مثل عدد ذرات الرمال الموجودة على سواحل البحار في الدنيا كلها ، منها ما هو أكبر بقليل من الأرض ، ولكن أكثرها كبير جداً ، حتى يمكن أن نضع في واحد منها ملايين النجوم ، في مثل حجم الأرض التي نعيش عليها ، ولسوف يبقى فيه مع ذلك مكان خال !!.

إن كوننا هذا فسيح جداً. ولكي نفهمه نتصور طائرة خيالية تسير بسرعة (١٨٦,٠٠٠) ميلاً في الثانية الواحدة ؛ وأن هذه الطائرة الخيالية تطوف بنا حول الكون الموجود الآن . إن هذه الرحلة الخيالية سوف تستغرق (١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) سنة ، يضاف إلى ذلك أن هذا الكون ليس بمتجمد ، وإنما هو يتسع كل لحظة ، حتى إنه بعد (١,٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠) سنة تصير هذه المسافات الكونية ضعفين!! وهكذا لن تستطيع هذه الطائرة الخارقة في سرعتها الخيالية أن تكمل دورانها حول هذا الكون أبداً ، وإنما سوف تظل تواصل رحلتها في نطاق هذا التوسع الدائم في الكون[1] .

---

(١) هذه هي نظرية اينشتين عن الكون. ولكنها ليست إلا « قياساً رياضياً »، والحقيقة أن الإنسان لم يستطع حتى الآن أن يفهم سعة هذا الكون !!

عندما تكون السماء صافية نستطيع أن نرى بالعين المجردة خمسة آلاف من النجوم ، ولكن هذا العدد يتضاعف إلى أكثر من (٢,٠٠٠,٠٠٠) من النجوم حين نستعمل تلسكوباً عادياً . وأقوى تلسكوب في العالم هو الذي يوجد في معمل (ماونت بالومار) في الولايات المتحدة الأمريكية ، ويستطيع أن يشاهد بلايين من النجوم .

إن الفضاء الكوني فسيح جداً ، تتحرك فيه كواكب لا حصر لها ، بسرعة خارقة ، بعضها يواصل رحلته وحده ، ومنها أزواج تسير مثنى مثنى ، ومنها ما يتحرك في شكل مجموعات . ولو أنك لاحظت ضوء الشمس الذي يدخل غرفتك من الشباك ، فسترى أن هناك ذرات كثيرة من الغبار تتحرك وتسير في الهواء ، فلو استطعت أن تتخيل هذا في شكل أعظم لأمكنك أن تحظى من الفهم بشيء عن السيارات والكواكب في الكون ، مع الفرق الهائل المتمثل في أن ذرات الغبار تتحرك، ويتصادم بعضها مع بعض ، ولكن الكواكب مع كثرتها يواصل كل واحد منها سفره على بعد عظيم يفصله عن الكواكب الأخرى . ومثلها مثل بواخر عديدة تمشي في أعالي البحار متباعدة ، حتى إن إحداها لا تعرف شيئاً عن الأخرى . إن هذا الكون يتألف من مجموعات كثيرة من الكواكب والنجوم ، تسمى « مجاميع النجوم » وكلها تتحرك دائماً ..

° ° °

وأقرب حركة منا هي حركة القمر التي تبعد عنا (٢٤٠,٠٠٠) ميلاً ، وهو يدور حول الأرض ، ويكمل دورته في مدة تسعة وعشرين يوماً ونصف يوم . وكذلك تبعد أرضنا هذه عن الشمس (٩٣,٠٠٠,٠٠٠) ميلاً ، وهي تدور في محورها بسرعة ألف ميل في الساعة ، في دائرة (١٩٠,٠٠٠,٠٠٠) ميلاً ، وتستكمل هذه الدائرة مرة واحدة في سنة كاملة . وكذلك توجد تسعة كواكب مع الأرض ، وكلها تدور حول

الشمس بسرعة فائقة . وأبعد هذه الكواكب السيار « بلوتو » الذي يدور في دائرة (٧,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ميلاً حول الشمس . وحول هذه الكواكب يدور واحد وثلاثون قمراً أخرى ، وتوجد غير هذه الكواكب حلقة من ثلاثين ألفاً من « النجيمات » ، وآلاف من النجوم ذوات الأذناب ، وشهب لا حصر لها ، وكلها تدور ، وفي وسطها ذلك السيار العملاق الذي نسميه « الشمس » ، وقطرها (٨٦٥,٠٠٠) ميلاً وهي أكبر من الأرض (١,٢٠٠,٠٠٠) مرة !!

ثم إن هذه الشمس ليست بثابتة ، أو واقفة في مكان ما ، وإنما هي بدورها ، مع كل هذه السيارات والنجيمات ، تدور في هذا النظام الرائع ، بسرعة (٦٠٠,٠٠٠) ميلاً في الساعة .. وهناك آلاف من الأنظمة، غير هذا النظام الشمسي ، يتكون منها ذلكم النظام الذي نسميه « مجاميع النجوم » ، أو المجرات ، وكأنها جميعاً طبق عظيم تدور عليه النجوم والكواكب منفردة ومجتمعة، كما يدور الخذروف الذي يلعب به الأطفال . ومجرات النجوم هذه تتحرك بدورها أيضاً ، والمجرة التي يقع فيها نظامنا الشمسي تدور على محورها بحيث تكمل « دورة واحدة » في (٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠) « سنة ضوئية » .

* * *

ويقدر علماء الفلك أن هذا الكون يتألف من خمسمائة مليون من مجاميع النجوم ، مضروباً هذا العدد في (٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ، من الملايين ، وفي كل مجموعة منها يوجد (مائة مليار) من النجوم ، أو أكثر أو أقل ، ويقدرون أن أقرب مجموعة من النجوم ، وهي التي نراها في الليل كخيوط بيضاء دقيقة تضم حيزاً مداه مائة ألف سنة ضوئية . ونحن – سكان الأرض – نبعد عن مركز هذه المجموعة بمقدار ثلاثين ألف سنة ضوئية ، وهذه المجموعة جزء من مجموعة كبيرة تتألف من سبع

عشرة مجموعة ، وقطر هذه المجموعة الكبيرة (ذات السبع عشرة) مليونان من السنين الضوئية .

ومع هذا الدوران تجرى حركة أخرى ، وهي أن هذا الكون يتسع من كل جوانبه ، كالبالون المتخذ من المطاط ، حين ينفخ فيه الأطفال . وشمسنا هذه – وهي تدور حول نفسها – تدور بنا أيضاً على الحاشية الخارجية للمجرة ؛ وهي تتباعد عن هذه الحاشية الخارجية بمقدار اثنى عشر ميلاً ، كل ثانية ؛ كما تتبعها في هذه العملية جميع النجوم الداخلة في النظام الشمسي . وهكذا جميع السيارات تسير إلى جانب أو آخر ، مع دورانها الخاص طبقاً لنظامها ؛ فمنها ما يسير بسرعة ثمانية أميال في الثانية ، ومنها ما يسير بسرعة ثلاثة وثلاثين ميلاً في الثانية ، ومنها ما يسير بسرعة أربعة وثمانين ميلاً في الثانية . وجميع النجوم ، على هذا النحو ، تبتعد في كل ثانية ، بسرعة فائقة عن مكانها . هذه الحركة المدهشة تحدث طبقاً لنظم وقواعد محكمة ، بحيث لا يصطدم بعضها ببعض ، ولا يحدث اختلاف في سرعتها .

• • •

إن حركة الأرض حول الشمس منضبطة تمام الانضباط ، بحيث لا يمكن أن يحدث أدنى تغير في سرعة دورانها ، حتى بعد مرور قرن من الزمان . وهذا القمر ، الذي يتبع في حركته الأرض ، يدور في فلك مقرر ومنضبط ، مع تفاوت يسير جداً ، يتكرر بعد كل ثمانية عشر عاماً ونصف عام ، بدقة فائقة، وتلك هي حال جميع الأجرام السماوية . ويرى علماء الفلك أن مجرات النجوم يتداخل بعضها في بعض ؛ فتدخل مجرة تشتمل على بلايين من السيارات المتحركة ، في مجرة أخرى مثلها (وتتحرك سياراتها هي الأخرى) ،

ثم تخرج منها بسياراتها جميعاً ، دون أن يحدث أي تصادم بين سيارات المجرتين .

وإن العقل ، حين ينظر إلى هذا النظام العجيب ، والتنظيم الدقيق الغريب ، لا يلبث أن يحكم باستحالة أن يكون هذا كله قائماً بنفسه ، بل إن هنالك طاقة غير عادية هي التي تقيم هذا النظام العظيم ، وتهيمن عليه .

* * *

الأنظمة المعقـــدة

إن هذا النظام الذي يوجد في العوالم الكبرى ، نجده – في صورته الكاملة – في أصغر عالم عرفناه . فنحن نعرف – طبقاً لأحدث معلوماتنا – أن الذرة أصغر عالم ، وأنها قد تناهت في صغرها حتّى لا يمكن أن نشاهدها بالمنظار الذي يكبر الأشياء ملايين المرات، فهي – بناءً على هذا – ليست شيئاً ، بل إنها « لا شيء » بالنسبة إلى أدنى ما يستطيع البصر الإنساني أن يراه . ولكن هذه الذرة – مع ما وصفناها به – تحتوي بصورة رائعة على نظام الدوران العجيب ، الموجود في النظام الشمسي ؛ فالذرة اسم لمجموعة من الالكترونات ، وهذه الالكترونات لا يتصل بعضها ببعض ، وإنما يوجد بينها فراغ كبير الحجم (نسبياً) . ولنأخذ مثلاً قطعة من الحديد الّتي توجد فيها الذرات ، متصلاً بعضها ببعض اتصالاً شديداً .

وسنجد أن هذه الالكترونات لا تشغل أكثر من $\frac{١}{١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠}$ من مساحة الذرة ، وبقية المجال يكون خالياً . ولو أننا أخذنا صورة مكبرة لجزيئين من الالكترون والبروتون فسوف يكون الفاصل بينهما ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين ياردة . ولقد نتصور الذرة ، من حيث هي في الغبار ، غير مرئية ، ومع هذا فإن حجم دوران الالكترون داخلها يبلغ حجم كرة قدم قطرها ثمانية أقدام .

والالكترون – الـــذي هو الجزيء السلبي في الذرة – يدور حول

البروتون ـ الذي هو الجزيء الإيجابي فيها ـ وهذه الجزيئات التي لا حقيقة لها أكثر من نقط وهمية سابحة في الشعاع ، تدور حول مركزها ، بنفس النظام الذي تتبعه الأرض في مدارها حول الشمس ، بحيث لا يمكن تصور وجود الالكترون في مكان محدود لسرعة دورانه ، وإنما هو يتخيل فقط موجوداً على طول مداره في وقت واحد . وذلك لأنه يدور حول مداره بلايين المرات في الثانية الواحدة ! !

هذا النظام الذرى يستحيل قيامه بنفسه ، ولا طريق إلى مشاهدته ، ولا يمكن تفسير عمله داخل الذرة بغير العلم، أمّا وقد تبنّاه العلم فعلاً ، فلماذا لا نأخذ منه دليلاً على وجود منظم قائم على هذا التنظيم ؟ إنه يستحيل قيام هذا التنظيم في الذرة دون منظم قائم عليه .

° ° °

إننا نتحير إذا رأينا النظام المعقد لأسلاك التليفون، ونتحير إذا وجدنا أن مكالمة من لندن إلى ملبورن باستراليا تتم في بضع ثوان ؛ فإذا كان تعقيد نظام أسلاك التليفون يوقعنا في هذه الحيرة ، فما بالنا بنظامنا العصبي ، وهو أوسع من هذا النظام وأشد تعقيداً ؟ ! إن ملايين الأخبار تجرى على أسلاك نظامنا العصبي ـ الذي أوجدته الطبيعة ـ من جانب إلى آخر ، ليل نهار . وهذه الأخبار هي التي توجّه القلب في تدفقها ، وفي حركتها ، وتتحكم في حركات الأعضاء المختلفة ، وتتحكم في الحركات الرئوية . ولو لم يكن هذا النظام موجوداً في أجسامنا لصارت الأجسام تلفيقاً لأشياء مبعثرة ، تسلك كل منها مسلكها الخاص .

ومركز هذا النظام للمواصلات مخ الإنسان، وفي هذا المخ يوجد ألف مليون خلية عصبية، ومن كل هذه الخلايا تخرج أسلاك تنتشر في سائر الجسم ، وتُسمى هذه الأسلاك « الأنسجة العصبية » ، وفي هذه الأنسجة يجرى نظام استقبال وإرسال للأخبار ، بسرعة سبعين ميلاً في الساعة . وبوساطة هذه الأنسجة نتذوق ، ونسمع ، ونرى ، ونباشر سائر

أعمالنا ؛ بل إن هنالك ثلاثة آلاف من الشعيرات المتذوقة وتسمى Taste - Buds . ولكل منها سلك عصبي خاص متصل بالمخ . وبوساطة هــذه الشعيرات نحس بالمذاقات المختلفة . وتوجد في الأذن عشرة آلاف خلية سمعية، ومن خلال نظام معقد ، يسرى من هذه الخلايا ، يسمع مخنا . وفي كل عين مائة وثلاثون مليوناً من الخلايا الملتقطــة للضوء (Light Roceptors) ، وتقوم بمهمة إرسال المجموعة التصويرية إلى المخ ، وهناك شبكة من الأنسجة الحسية على امتداد جِلْدنا ، فإذا قربنا إلى الجلد شيئاً حاراً ، فإن ثلاثين ألفاً من الخلايا الملتقطة للحرارة تحس بهذه العملية وترسلها فوراً إلى المخ . وإذا قربنا إلى الجلد شيئاً بارداً ، فإن ربع مليون من الخلايا ، التي تلتقط الأشياء الباردة ، تحس به ، وعندئذ يمتلىء المخ بــأثرها ، ويرتعد الجسم ، وتتسع الشرايين الجلدية ، فيسرع مزيد من الدم إليها ويزودها بالحرارة . وإذا أحست هذه الخلايا بحرارة شديدة ، فإن مخابرات الحرارة توصلها إلى الدماغ ، وحينئذ تفرز ثلاثة ملايين من الغدد العرقية ــ تلقائياً ــ عرقاً بارداً إلى خارج الجسم .

والنظام العصبي يشتمل على عدة فروع . منها : « الفرع المتحرك ذاتياً » Autonomic Branch ، ويقوم بأعمال تحدث ذاتياً في الجسم ، كعملية الهضم والتنفس وحركات القلب . ويندرج تحت هذا الفرع نظامان : أحدهما : « النظــام الخالق للحركة » Sympathetic System والآخر : هو المانع لها Parasympathetic . وهذا الأخير يقوم بعملية المقاومة والدفاع . ولو ترك الأمر للنظام الأول لازدادت حركة القلب زيادة يترتب عليها موت صاحبه، ولو سيطر النظام الثاني لتوقفت حركة القلب توقفاً تاماً . وأقسام هذين النظامين تباشر أعمالها في دقة فائقة ، وفي توازن تام، ولكن هنالك حالات يزداد فيها نشاط أحد النظامين، فالنظام الأول يتغلب عند الضغط واحتياج القلب إلى قوة مسعفة، وعندئذ تزيد سرعة عمليات القلب والرئة، والنظام الثاني يتغلب عند النوم ، فيسود السكون جميع الحركات الجسمية .

تقليد الطبيعة

إن أحسن الآلات من صناعة الإنسان لا يمكن أن تقف أمام النظام العجيب الذي يوجد في الكون. ولهذا فإن تقليد نظام الطبيعة قد أصبح اليوم موضوعاً خاصاً في العلم، يولى أهمية خاصة للسير بالآلات الميكانيكية وفق ذلك النظام. وأصبحنا نرى علماً جديداً يسمى « بيونيكْس » Bionics لهذه الدراسة. وكانت مقتصرة من قبل على اكتشاف القوى الكامنة في الطبيعة واستغلالها.

واليوم يسلك النظام البيولوجي سبلاً كثيرة للحصول على معلومات تساعد على حل مسائل الهندسة.

ومن أمثلة استغلال نظام الطبيعة في الصناعة آلة التصوير، وهي في الواقع تقليد ميكانيكي لعين الإنسان، فعدسة الكاميرا Lens هي كالشبكة الخارجية للعين، والحجاب الحاجز Diaphragm هو قزحية العين Iris. والفيلم الذي يتأثر بالضوء، إنما هو شاشة العين، التي توجد فيها خطوط وأشكال مخروطية، ترى الأشياء معكوسة[1].

---

(١) لن يجرؤ صاحب علم منا أن يدعي أن آلة التصوير جاءت عن نفسها، دون اختراع إنساني. ولكن الكثيرين من علمائنا يعتقدون أن « العين » جاءت عن صدفة واتفاق محض!!

لقد ابتكرت جامعة موسكو آلة نموذجية لالتقاط وقياس « الذبذبات تحت الصوتية » Infra - Sonic Vibrations . وهذه الآلة تستقبل وتلتقط أخبار الفيضانات والزلازل وما أشبهها من الكوارث قبل حدوثها بمدة تتراوح بين اثنتي عشرة ساعة ، وخمس عشرة ساعة . وهي أقوى من الآلات المستعملة خمس مرات . فمن أين جاء هذا التفكير إلى العلماء ؟ لقد استنبطوه من سمكة قنديل البحر . التي تسمى « هلامي » Jelly Fish . فقلد المهندسون أعضاءها . وهي شديدة الحساسية ، حتى لتحس بالذبذبات تحت الصوتية[1] !

وهناك أمثلة كثيرة جداً غير هذه يمكن عرضها ، وهي تؤكد أن علماء الطبيعة والتكنولوجيا يقلدون – في تفكيرهم الحديث – النماذج الحية في الطبيعة .

وقد شغلت بال العلماء مسائل كثيرة من أزمان مضت ، على حين حلتها الطبيعة منذ زمن بعيد . وإذا كانت أجهزة التصوير وتلقي الأخبار « التليبرنتر » لا يمكن وجودها بغير عقل إنساني ، فمن المستحيل أن نتصور أن نظام الكون – الذي هو أكثر تعقيداً من أي نظام – قد قام بنفسه بغير عقل وراءه ؛ بل لا بد أن له مهندساً منظماً – هو الإله ، ولا يمكن أن يتصور العقل نظاماً دون منظم ، فليس من اللامعقول أن نعتقد بوجود منظم للكون ، بل إن من اللامعقول أن ننكر خالق هذا النظام ، فالحقيقة أن العقل الإنساني لا يملك أساساً عقلياً لإنكار الإله .

• • •

(١) *Soviet Land*, Delhi, December, 1963.

ثالثاً — روح الكون الغريبة

ليس الكون كسلة المهملات ، وإنما هو منطو على روح غريبة . وهذه الروح لا يمكن أن تصدر إلا عن عقل قام بخلق الكون ، ويقوم بتدبيره .

وليس من الممكن أن يوجد نظام وروح في عملية مادية عمياء ، حدثت اتفاقاً ؛ فالكون متوازن ، ومتناسب إلى حد لا يمكن تصوره . لقد قال « شادفاش » Chadvalsh : « إن من الممكن أن نسأل أي رجل — مؤمناً بالله كان أو منكراً له — نسأله أن يثبت كيف يمكن أن يكون هذا التوازن في صالحه ، إذا كان الكون قد وجد بمحض الصدفة ؟ »

لا بد للحياة فوق الأرض من أحوال كثيرة ، يستحيل اجتماعها بنسبها الخاصة رياضياً . ولكننا نجد أن هذه الحالات المستحيل اجتماعها رياضياً موجودة على سطح الأرض فعلاً . وذلك يحتم علينا أن نؤمن بأن هنالك طاقة عظيمة عاقلة وراء الكون ؛ هي المتسببة في وجود هذه الحالات .

° ° °

التوازن المدهش في الأرض :

الأرض أهم عالم عرفناه ، إذ توجد فيها أحوال لا توجد في شيء من هذا الكون الواسع ، وهي في ضخامتها (كما تبدو لنا) لا تساوي

ذرة من هذا الكون العظيم ، ولو أن حجمها كان أقل أو أكثر ، مما هي عليه الآن ، لاستحالت الحياة فوقها ، فلو أنها كانت في حجم القمر مثلاً ، بأن كان قطرها ربع قطرها الموجود فعلاً ، لكانت جاذبيتها سدس جاذبيتها الحالية ، ونتيجة لذلك لا يمكن أن تمسك الماء والهواء من حولها ، كما هي الحال في القمر ، الذي لا يوجد فيه ماء ولا يحوطه غلاف هوائي ، لضَعْف قوة الجاذبية فيه . وانخفاض الجاذبية في الأرض إلى مستوى جاذبية القمر سيترتب عليه اشتداد البرودة ليلاً حتى يتجمد كل ما فيها ، واشتداد الحرارة نهاراً حتى يحترق كل ما عليها .

وكذلك يترتب على نقص حجم الأرض إلى مستوى حجم القمر أنها لن تمسك مقداراً كبيراً من الماء . وكثرة الماء أمر ضروري لاستمرار الاعتدال الموسمي على الأرض ، ومن ثم أطلق أحد العلماء على هذه العملية لقب « عجلة التوازن العظيمة » Great Balance Wheel [1] . وكذلك سيرتفع الغلاف الهوائي للأرض في الفضاء ثم يتلاشى . ويتبع ذلك أن تبلغ درجة حرارة الأرض أقصى معدلها ، ثم تنخفض إلى أدنى درجاتها ، على ما ذكره .

وعلى العكس من ذلك ، إذا كان قطر الأرض ضِعْف قطرها الحالي لتضاعفت جاذبيتها الحالية ؛ وحينئذ ينكمش غلافها الجوي — الذي هو على بُعد خمسمائة ميل — إلى ما دون ذلك . وسيترتب على هذا أن يزيد تحمل كل بوصة مربعة من خمسة عشر رطلاً إلى ثلاثين من الضغط الجوي ، وهو ضغط يؤثر أسوأ الأثر في الحياة .

ولو أن الأرض تضاعف حجمها ، فصارت مثل حجم الشمس مثلاً ، لبلغت قوة الجاذبية فيها مثل جاذبيتها الحالية مائة وخمسين مرة ، ولاقترب

---

(١) *The Evidence of God*, p. 88.

غلافها الهوائي ، حتى يصير منها على بعد أربعة أميال فقط ، بدلاً من خمسمائة ميل ، ولارتفع الضغط الجوي إلى معدل طن واحد على كل بوصة مربعة . وذلك يؤدي إلى استحالة نشأة الأجسام الحية . وهو من الناحية النظرية يعني أن يصير وزن الحيوان الذي يزيد رطلاً واحداً ـ تحت الكثافة الهوائية الحالية ـ خمسمائة رطل ، كما يهبط حجم الإنسان حتى يصير في حجم فأر كبير ، ولاستحال وجود العقل في الإنسان، لأنه لا بد للعقل الإنساني من أنسجة عصبية كثيرة في الجسم ، ولا يوجد هذا النظام إلا إذا كان حجم الجسم بقدر معين .

° ° °

نحن قائمون على الأرض ظاهراً ، ولكن الأصح أن نقول : نحن مُلْقَوْن على رؤوسنا ، ولتوضيح ذلك نقول : إن الأرض مثل كرة معلقة يسكنها الإنسان، فوضع الناس بعضهم بالنسبة إلى بعض على هذه الكرة ، أن سكان أمريكا سيكونون تحت سكان أهالي الهند ، وسكان الهند سيكونون تحت أقدام سكان أمريكا .

فأرضنا هذه ليست بثابتة ، وإنما هي تدور بسرعة مقدارها ألف ميل في الساعة، وذلك يجعل وضْعَنافوقها أشبه بحصاة وُضِعت على محيط عجلة تدور بسرعة ، يوشك أن تقذف بها في الفضاء ، ولكن الأرض لا تقذفنا ؛ بل نحن مستقرون عليها . فكيف تمسكنا وهي تدور بهذه السرعة ؟!!..

إن في الأرض جاذبية غير عادية، وهي بهذه الجاذبية تشد كل شيء إليها ، فجاذبية الأرض وضغط الهواء المستمر يمسكانا فوقها بنسبة معلومة، وهكذا صِرْنا مشدودين بهاتين العمليتين إلى كرة الأرض من كل ناحية .

وضغط الهواء الذي يكون على كل بوصة مربعة ما يقرب من ١٥ رطلاً معناه : أن كل إنسان يتحمل ما يقرب من ٢٢٨.٤٠ رطلاً من الضغط الجوي على جسمه ، ولكن الإنسان لا يحس بهذا الوزن ، لأن الهواء يضغطه

من كل ناحية ، كما يحدث عندما نسبح في الماء . ثم إن الهواء – وهو علّم على مركب معين من الغازات – ذو فوائد كثيرة ، لا يمكن حصرها في كتاب .

• • •

لقد توصل نيوتن ، من خلال مشاهداته ومطالعاته ، إلى أن الأجسام يجر بعضها بعضاً ، ولكنه لم يستطع تعليل هذا ، ولذا سلّم بأنه لا تفسير لديه لهذه العملية .

ولقد ذكر هذه المسألة « وهايت هيد » قائلاً :

« لقد كشف نيوتن – حين سلم بهذا – عن حقيقة فلسفية عظيمة ؛ هي أن الطبيعة لو كانت بغير روح فلن تفسّر نفسها ، كما أن الشخص الميت لا يستطيع أن يحكى لنا واقعاً . إن جميع التفسيرات الطبيعية والمنطقية لم تزد أخيراً على أن تكون إظهاراً لهدف ، لأن الميت لا يمكن أن يكون حامل[1] أهداف » .

وسوف أدفع حديث (وهايت هيد) إلى الأمام ، قائلاً : إنه إذا لم يكن هذا الكون تحت سلطان « وجود ذي إدراك » فلماذا توجد فيه هذه الروح المدهشة ؟

• • •

إن الأرض تتم دورة واحدة حول محورها ، في كل أربع وعشرين ساعة . ومعنى ذلك أنها تسير حول محورها بسرعة ألف ميل في الساعة ، فإذا فرضنا أن هذه السرعة انخفضت إلى مائتي ميل في الساعة ، لطالت أوقات ليلنا ونهارنا عشر مرات ، بالنسبة إلى ما هي عليه الآن ، ويترتب

---

(١) *The Age of Analysis*, p. 85.

على ذلك أن تحرق الشمس – بشدة حرارتها – كل شيء فوق الأرض ، وما بقي بعد ذلك ستقضي عليه البرودة الشديدة في الليل .

وهذه الشمس ، التي نعدها اليوم وسيلة حياتنا ، تبلغ حرارة سطحها اثني عشر ألف درجة فهرنهيت ؛ والمسافة بينها وبين الأرض تبلغ ما يقرب من ٩٣,٠٠٠,٠٠٠ ميلاً . وهذا البون الهائل دائم ، لا يتغير أبداً بزيادة أو نقص ، وفي ذلك عبرة عظيمة لنا، لأنه لو نقص ، واقتربت الشمس من الأرض ، بمقدار النصف ، مثلاً ، من الفاصل الحالي ؛ فسوف يحترق الورق على الفور من حرارتها، ولو بَعُدَ هذا الفاصل ، فصار ضعف ما هو عليه الآن ، فإن البرودة الشديدة التي تنجم عن هذا البعد ، سوف تقضي على الحياة في الأرض، ولو أنه حل محل الشمس سيار آخر غير عادي ، يحمل حرارة تزيد على حرارة الشمس عشرة آلاف مرة ، فسوف يجعل من الأرض تنُّوراً رهيباً ..

ثم إن هذه الأرض دائرة في الفضاء ، وهي تؤدي عملها بزاوية ٣٣° درجة ، الأمر الذي تنشأ عنه المواسم ، ويترتب عليه صلاحية أكثر مناطق الأرض للزراعة والسكنى ، فلو لم تكن الأرض على هذه الزاوية لغمر الظلام القطبين طول السنة ؛ ولسار بخار البحار شمالاً وجنوباً ؛ ولما بقي على الأرض غير جبال الثلج ، وفيافي الصحراوات ؛ وهكذا تنجم مؤثرات كثيرة تجعل الحياة على ظهر الأرض مستحيلة .

• • •

فلو كان قياس العلماء صحيحاً ، وهو : أن المادة قد نظمت ذاتها على هذه الهيئة المناسبة المتوازنة . فما أعجب هذا القياس ، وما أكثر إثارته للدهشة !! . يقولون : إن الأرض انشقت من الشمس ، ومعنى هذا : أن درجة حرارتها كانت ، في مبدأ أمرها ، نفس حرارة الشمس ، وهي اثنا عشر ألف درجة فهرنهيت ، ثم بدأت الأرض تبرد ؛ إذ لا يمكن

اتصال الأوكسجين بالهيدروجين ، إلا بعد أن تنخفض الحرارة إلى أربعة آلاف فهرنهيت - وفي هذه المرحلة وُجد الماء ، وهكذا استمرت عمليات التقلب على سطح الأرض ملايين السنين ، حتّى جاءت الأرض في صورتها الحالية ، منذ أكثر من بليون سنة مضت ، وذهبت الغازات من فضاء الأرض إلى فضاء الكون ، وتحولت بقايا الغازات بعد ذلك إلى المركّب المائي ؛ أو انجذبت إلى الأشياء الأرضية ، أو بقيت في صورة الهواء ؛ وأكثرها في صورة الأوكسيجين أو النتروجين . وهذا الهواء ، في كثافته ، يُعد جزءاً واحداً من ٢,٠٠٠,٠٠٠ من أجزاء الأرض . ولم تنجذب كل الغازات إلى الأرض ، كما أنها كلها لم تتحول إلى (هواء) . ولو أنه حدث ، لاستحالت حياة الإنسان. فلو أننا فرضنا المستحيل ، ووجدت الحياة في ظروف كهذه - تتحمل فيها البوصة المربعة آلاف الأرطال من الضغط الجوي - لكان من المستحيل أن توجد الحياة في صورة الإنسان الحالية .

ولو كانت قشرة الأرض أكثر سمكاً ، بمقدار عشرة أقدام من سمكها الحالي ، لما وجد الأوكسيجين[١] ، وبدونه تستحيل الحياة الحيوانية .

وكذلك لو كانت البحار أعمق بضعة أقدام ، أكثر من القاع الحالي ، لانجذب (ثاني أكسيد الكربون) ، والأوكسجين[٢] ، ولاستحال وجود النباتات على الأرض ؛ فضلاً عن الحياة .

ولو كان الغلاف الهوائي للأرض ألطف ممـــا هو عليه الآن ، لاخترقت النيازك كل يوم غلاف الأرض الخارجي ، ولرأيناها مضيئة في الليل ، ولسقطت على كل بقعة من الأرض وأحرقتها ، فهذه النيازك تواصل رحلتها بسرعة أربعين ميلاً في الثانية . ونتيجة لهذه السرعة العظيمة ، فإنها ستحرق

---

(١) اذ أن القشرة الأرضية ستمتص حينئذ الأوكسجين .

(٢) حتى يمتصها الماء .

كل شيء يمكن احتراقه على الأرض ، حتى تصبح الأرض غربالاً في وقت ليس ببعيد ..

فلولا أن غلاف الأرض الهوائي يقينا من هذه الشهب لاحترقنا . فإن سرعتها أكثر من سرعة طلقة البندقية تسعين مرة ! كما أن حرارتها الشديدة كافية لإهلاك كل شيء ، بما فيه الإنسان . فنحن إذن في حماية هذا الغلاف الكثيف الموزون ، الذي لا تخترقه « الأشعة الشمسية ذات الأهمية الكيماوية » Actinic Rays إلاّ بالقدر الذي يكفي لحيـــاة النبات ، وإيجاد الفيتامينات ، والقضاء على الجراثيم الضارة ، وما إلى ذلك ..

إن هذا التوازن للكميات ، المحتاج إليها ، عجيب جداً ؛ فالغلاف الذي فوق الأرض مكوّن من ستة غازات ؛ منها ٧٨ في المائة من النتروجين ، و ٢١ في المائة من الأوكسجين ، والغازات الأخرى توجد بنِسَب قليلة ، وهذا الغلاف يضغط الأرض بنسبة ١٥ رطلاً في البوصة المربعة ، ونسبة الأوكسيجين في هذا الضغط ٣ أرطال في البوصة المربعة ، والمقادير الأخرى للأوكسيجين ، الموجود اليوم ، قد انجذبت إلى الأرض ، وهي تمثل ٨و٠ من الماء الموجود على سطح الأرض ، والأوكسجين هوالوسيلة الوحيدة لتنفس سائر حيوانات الأرض ، ولا طريق إلى ذلك من غير الفضاء .

• • •

قانون الضبط والتوازن

وهنا يظهر سؤال هام ، وهو : كيف تجمعت هذه الغازات الشديدة الحركة ، مع احتفاظها بمقاديرها المتناسبة ، التي لا بد منها للحياة ، في الفضاء ؟

والجواب : أنه لو كانت نسبة الأوكسيجين ٥٠٪ ، أو أكثر ، بدلاً من ٢١٪ ، لزادت قابلية الاحتراق ، بما يساوي ارتفاع هذه النسبة ... فإذا احترقت شجرة واحدة في غابة ، حينما تكون نسبة الأوكسيجين ٢١٪ ، فإن الانفجار الخاطف ، الناجم عن ارتفاع هذه النسبة إلى ٥٠٪ يجعل احتراق الغابة كلها أمراً حتمياً ، في لحظات !

ولو أن هذه النسبة انخفضت ، فأصبحت ١٠٪ ، لكان من الممكن ، على مدى القرون ، أن تعتاد الحيوانات الحياة مع انخفاض نسبة الأوكسيجين إلى هذا الحد ، ولكنه يكون من المستحيل أن تزدهر الحضارة الإنسانية ، كما هي عليه في الظروف الحالية[1] .

ولو أن الأوكسيجين الموجود على سطح الأرض انجذب مع الأوكسيجين ،

---

(١) إذ أن أعضاء الجسم الإنساني على فرض وجودها في هذه الحالة لن تتمكن في تلك الظروف من مواصلة عملها كعادتها اليوم في الظروف المتاحة فعلا ، وذلك لاستحالة وجود الأنسجة والخلايا البدنية والعقلية الدقيقة في ظل تلك الظروف ، لأنه كلما قل الاوكسجين قل النشاط الجسماني والعقلي .

الذي انجذب قبل ذلك في الأرض ، لكان من المستحيل (الوجود الحيواني الحسى) .

إن الأوكسيجين والهيدروجين وثاني أوكسيد الكربون ، وغازات الكربون الأخرى ، على اختلاف أشكالها ، تتركب معاً فتصبح عناصر عظيمة الأهمية للحياة الحيوانية . وللأسس التي تقوم عليها الحياة الإنسانيــة ، وبناء عليه لا يوجد احتمال $\frac{١}{١٠,٠٠٠,٠٠٠}$ أن تجتمع . هذه الغازات في تناسبها المطلوب ، وبجميع خصائصها اللازمة للحياة ، على كوكب معين ، بطريق الصدفة .

ولذلك يقول أحد كبار علماء الطبيعة :

Science has no explanations to offer for the facts, and to say it is 'accidental' is to defy mathematics.

« إن العلم لا يملك أي تفسير للحقائق. والقول بأنها حدثت « اتفاقاً » إنما يعتبر تحــدياً وتصادماً مع الرياضيات . »

° ° °

إن هناك وقائع كثيرة جداً ، لا طريق لنا إلى فهمها أو تفسيرها ، إلا إذا سلمنا بأن للعقل يداً عليا في إحداثها ..

فمن الخصائص المهمة التي توجد في الماء : أن كثافة الثلج (Density) تقــل بنسبة كبيرة عن كثافة المــاء ، فالماء إذن مــادة معلومة تقــل كثافتها بعد التجمد، ولهذا الأمر قيمة عظيمة ، بالنسبة إلى الحياة ؛ إذ يترتب على هذه الخاصة أن الثلج يطفو على سطح الماء ، ولا ينزل إلى قاع البحار والأنهار ، ولولا ذلك ، لكان الماء كله قد تجمد في البحار ، والأنهار ، والخزانات المائية؛ إن الثلج يقوم بدور الحاجب للماء الذي تحته ، كيما تبقى حرارته دون درجة التجمد ، فتبقى الأسماك والحيوانات المائية على قيد الحياة، فإذا ما جاء موسم الربيع ذاب الثلج ، ولولا خاصة الثلج هذه لعانى سكان

الأقطار الباردة الكثير من المتاعب والمصائب ، الناجمة عن عدم ذوبان الثلج.

° ° °

لقد أصاب مرض الإندوثيا Endothia ، في أوائل القرن العشرين ، أشجار (شاه بلوط) الثمينة في غابات أمريكا ، وانتشر بسرعة فائقة، فقال بعض من رأى تلك المواضع الخربة الكبيرة في « مظلة الغابات » : إنها لن تمتلىء أبداً !!

ولم يكن أي نوع من الأشجار — حتى ذلك الحين — قد انتزع هذا الامتياز الذي كان خاصاً بهذا النوع من أشجار البلوط ، ذات الأخشاب الثمينة الغالية ، حتى كان يلقب بـ « ملك أشجار الغابات الأمريكية » ، قبل وصول وباء الإندوثيا من آسيا سنة ١٩٠٠ م تقريباً .

أما الآن ، فلا توجد هناك أية أثار لشاه بلوط ، ذلك الشجر العظيم ، في الغابات الأمريكية ..

ولكن سرعان ما امتلأت تلك المواضع في غابات أمريكا ، بنوع آخر من الأشجار ، يسمى : « التيوليب » ، كانت لا تحتل من الغابات إلا حيزاً صغيراً ، ولم تكن مزدهرة .

لقد انتهزت أشجار « التيوليب » هذه الفرصة ، فازدهرت وحلت محل شاه بلوط . واليوم لا يتذكر أي تاجر أخشاب أمريكي وجود أشجار شاه بلوط ، فقد حلت محلها أشجار « التيوليب » ، التي تتضخم كل سنة بنسبة بوصة واحدة في الجذع ، وترتفع ست بوصات في الفروع والأغصان ، كما تعطي خشباً ممتازاً ، يستعمل في جميع الصناعات الدقيقة .

° ° °

ومن الأحداث العلمية الهامة التي وقعت في هذا القرن ما حدث في استراليا .. لقد زرعوا نوعاً خاصاً من « الصبار » في مزارعها

لكي يحميها ، ولم يكن في استراليـــا أي نوع من الدودة يعادى ويـــأكل
هذا النبات ذا الشوك ، فأخذ ينتشر انتشاراً رهيباً ومروعاً ، حتّى استولى
على منطقة توازي مساحة جزر بريطانيا كلها ، لقد هاجم الصبار القرى
والمدن ، وخرّب المزارع والحقول ، حتّى استحالت الزراعة . ولم يتمكنوا
من استئصاله بأية طريقة ؛ لقد أصبح جيشاً جباراً ، يزحف لكي يسيطر
على استراليا كلها ، وهي لا تجد ما تقاوم به ؛ واستمرت هذه الحال ، حتّى
خرج علماء الحشرات ، يبحثون عن دودة تأكل الصبار ، فاكتشفوا دودة
لا تعيش إلا عليه ، ولا غذاء لها سواه ، وقد كان نسلها يزيد بسرعة ، ولا
عدو لها في حشرات استراليا ، وسرعان ما تغلبت هذه الدودة الصغيرة على
جيش الصبار العظيم ، وانتهت مصائب استراليا ! ! .

أيمكن أن يكون هذا القانون ــ « قانون الضبط والتوازن » (Checks and Balances) قد حدث دون تخطيط واع ، هكذا صدفة واتفاقاً ؟!

• • •

السنن الرياضية المحكمة

وفي الكون سنن رياضية محكمة ، بصورة تدعو إلى الدهشة والإكبار ، وحتى المادة الجامدة ، التي لا تملك شعوراً ، لا يمكن أن تجرى على غير نظام ، وإنما هي تتبع قوانين صارمة معلومة ، ولفظ الماء ، أينما كان الماء على هذه الأرض الواسعة ، لن يكون معناه سوى مادة سائلة تحتوي على ١١،١٪ من الهيدروجين، و ٨٨،٩٪ من الأوكسيجين . ولذلك يستطيع أي عالم يجري عملية تسخين الماء في معمله أن يقول بكل قطعية : إن درجة حرارة غليان الماء هي (١٠٠) سنتي جراد ، دون أن يرى مقياس الحرارة ، ما دام ضغط الهواء ٧٦٠ م.م. فإذا كان ضغط الهواء أقل ، فسوف نحتاج طاقة أقل لتوفير الحرارة التي تدفع جزئيات الماء ، وتعطيها صورة البخار . وحينئذ سوف تنخفض درجة غليان الماء ، وعلى العكس ، لو كان ضغط الهواء أكثر من ٧٦٠ م.م. فستزداد درجة الغليان ، بمقدار زيادة ضغط الهواء . لقد جربوا هذه العملية مراراً ، إلى أن تمكنوا من البت في أمر الغليان ، حتى قبل تسخين الماء ، والتنبؤ بدرجة غليانه دون استعمال المقياس . ولو لم يكن هذا النظام والضبط في المادة وعمليات الطاقة ، لما وجد الإنسان أسساً يقيم عليها كشوفه ومنجزاته العلمية . ولولا هذا النظام والضبط لحكمت عالمنا الاتفاقات والصدف المحضة ! ولكان من المستحيل على علماء الطبيعة أن يقولوا : إنه بمباشرة عمل ما ، في حالة معينة ، تحصل نتيجة كذا ..

نظام العناصر والدورية

إن أول شيء يشاهده الطالب في معمل الكيمياء هو نظام العناصر ودوريتها ، وقد وضع العالم الروسي « ماندليف » خريطة للعناصر الكيماوية ، بمقاديرها الجوهرية ، وسميت بـ « الخريطة الدورية » Periodic Chart ، وفي ذلك الوقت لم تكن كل العناصر قد تم كشفها ، حتى تملأ كل الخانات الموجودة في الخريطة ، فتركها « ماندليف » خالية ؛ إلى أن ملأها العلماء فيما بعد ، كما تخيلها العالم الروسي من قبل كشفها بسنين طويلة ، وهذه الخريطة تحوي جميع العناصر الجوهرية ، بأرقام وقوائم مختلفة . ومعنى الأرقام الجوهرية هو العدد الخاص الذي يوجد في مركز الذرة، من الشحنات الكهربية الإيجابية « البروتون » ، وهذا العدد هو الفارق بين ذرة عنصر وذرة عنصر آخر ؛ فالهيدروجين ، الذي نعتبره أبسط عنصر ، يوجد في مركز ذرته شحنة واحدة من الكهربية الإيجابية . وكذلك توجد في العنصر المسمى « هيليم » شحنتان ، وفي « ليثيم » ثلاث شحنات . وما كان لنا أن نتمكن من وضع خرائط العناصر المختلفة ، إلا بناء على قوانينها الرياضية العجيبة . وهل هناك مثال للضبط أفضل من أننا عثرنا على العنصر رقم (١٠١) بمجرد معرفة شحناته الكهربية الخمسة عشر ؟ ! !

ليس من الممكن أن يطلق العلماء على هذا النظام الرائع في الطبيعة

عبارة : « الصدفة الدوريـــة » Periodic Chance ، وإنما هو « القانون الدوري » Peroidic Law . وليس من الممكن أن نتنكر لمـــا تطلبه هذه الضوابط والنظم من وجود إله ومهندس .. فإن عدم إيمان العلم الحديث بالإله ، إنكار في الواقع لكشوفه ، كنتيجة حتمية !

• • •

« سوف يحدث كسوف للشمس يوم ١١ أغسطس سنة ١٩٩٩ م ، ويمكن رؤيته كاملاً في كورنفال[1] » ، ليس هذا مجرد تنبؤ قياسي ، ولكن علماء الفلك يؤمنون بأنه لا بد من هذا الكسوف ، بناءً على نظام دوران الشمس الموجود حالياً .

ولكم نتحير عندما نرفع أعيننا إلى السماء ، ونشاهد الكواكب والنجوم التي لا حصر لها؛ إن هذه الكرات السماوية ، التي لا تزال معلقة في الفضاء ، منذ قرون لا نعرف عدتها ، تدور في الفضاء الفسيح السحيق ، على نظام معين معلوم ، بحيث يمكننا معرفة جميع الوقائع المستقبلة قبل وقوعها بقرون . إنه نظام لا مثيل له ، من الذرة إلى قطرة الماء ، إلى الكواكب السحيقة في أجواز الفضاء .. نظام تستنبط على أساسه قوانين علمية !

إن نظرية « نيوتن » تفسر دوران الكرات الفلكية، وبناء على هذه النظرية استطاع العالمان : آدمز ولافرير أن يتنبآ بوجود كوكب ، لم يكن معروفاً وجوده في وقتهما، وبناء على قولهما وجه مرصد برلين ، في ليلة من ليالي سبتمبر سنة ١٨٤٦ تلسكوباً إلى الجهة التي أشارا إليها ، وسرعان ما وجد رجال المرصد الكوكب الذي نسميه اليوم (السيار نبتون)، في أسرة الشمس ! !

• • •

---

(١) بلدة في جنوب غربي انجلترا – المراجع .

خصائص حكيمة

إن أبعد الأمور عن القياس ، وأعظمها استحالة ، هو أن نؤمن بأن الكون وقطعيته الرياضية ، قد جاءا نتيجة « صدفة » !

فمن الخصائص الحكيمة في هذا الكون كونه صالحاً لتصرفات الإنسان عند الضرورة، ولنأخذ النتروجين على سبيل المثال .. فإن ٧٨٪ من النتروجين توجد في كل هبة من الرياح، وكذلك توجد في أجزاء كيماوية أخرى ، ونسميها حينئذ « النتروجين المركب »، وهذه كلها يستغلها النبات لكي يهيء لنا الجزء النتروجيني في غذائنا؛ فلولا هذه العملية ، لهلك الحيوان والإنسان ، وكل ما يعتمد على النبات في أكله جوعاً وفاقة ؛ فإن أي نبات غذائي لا ينمو بدون هذا التحليل الكيماوي .

إن هناك طريقتين لا ثالثة لهما، لتحليل النتروجين في الأرض، والطريقة الأولى : هي « العملية الجرثومية » ، وتقوم بأدائها الجراثيم التي تعيش في جذور الشجرة تحت الأرض، وهذه الجراثيم تأخذ النتروجين من الهواء . وتصنع منه « النتروجين المركب »، ويبقى هذا النتروجين تحت الأرض ، بعد الحصاد ، مع الجذور . وأما العملية الثانية التي تصنع النتروجين المركب

فهي (الرعد) .. فكلما احتك الرعد في الفضاء ، مزج شيئاً من الأوكسجين في النّروجين، ويصل هذا النّروجين المركب إلى الحقول عن طريق الأمطار الّتي تلي العملية، والكمية الّتي تحصلها الحقول من هذا المركب بسهولة ، كل سنة ، هي ما يقرب من خمسة أرطال لكل « ايكر »[1] من الأرض ، وهي تساوي ثلاثمائة رطل من نّرات الصوديوم.

ولكن هذه الكمية من النّروجين المركب لا تكفي ، لأن الحقول الّتي تزرع لمدة طويلة ، ينفد ما فيها منه. ولذلك نرى الزراع يحولون المواسم الزراعية من حقل لآخر ، بعد وقت معلوم. وأعجب ما حدث في هذا القرن ــ عندما ضاقت الأرض بما رحبت على سكانها ، وقل النّروجين لكثرة الزراعة ، وخافت الإنسانية من القحط والفاقة ــ اكتشافُنا في هذه المرحلة الخطيرة « طريقاً ثالثة » لاستمداد النّروجين من الهواء، وكانت الجهود الأولى ، الّتي بذلت في هذا الصدد ، أنهم جربوا عملية خلق رعد صناعي في الفضاء. باستعمال آلات قوتها ٣,٠٠٠,٠٠٠ حصان ؛ غير أنهم لم ينجحوا إلا في صناعة كمية ضئيلة من النّروجين المركب. وتقدم الإنسان بهذه التجارب ، حتّى كشف الطريق الثالثة ؛ وهي استخـــدام الهواء في صناعة النّروجين المركب ، في صورة (السماد) .. وهكذا استطاع أن يهيىء لغذائه جزءه الضروري ، الذي لولاه لهلك جوعاً. وهذا حدث عجيب في تاريخ الأرض؛ فإن الإنسان كشف للمرة الأولى في تاريخه حلاً لأزمة الغذاء، وابتعدت أشباح الكارثة عن سكان الأرض، حين كان من المستحيل أن يتجنبوها !!

° ° °

إن هناك أموراً كثيرة تؤكد وجود الحكمة والروح في الكون ، وكل

(١) مقياس انجليزي لسطح الارض ، وهو أقل من (فدان) (المراجع).

ما لدينا من علم يؤكد لنا أن ما قد كُشِفَ أقل بكثير مما لم نستطع حتى الآن الكشف عنه ! وبرغم ذلك فإن ما كشفه الإنسان كثير جداً ، حتى إننا لو أردنا فهرسة عناوين هذه العلوم ، فسنحتاج إلى سفر ضخم جداً ، بالنسبة إلى هذا الكتاب الذي بين يدي القارىء ، وسوف يبقى بعد ذلك أيضاً الكثير منهـا دون فهرسة ..

إن كل ما يمكن للسان الإنساني أن يلفظه عن آلاء الله وآياته سوف يكون غاية في النقص ، فمهما فصلناها وأسهبنا في تفسيرها ، فسنخرج آخر الأمر مقتنعين بأننا لم نحط بها ، وإنما تناولنا منها « بعض الشيء » .

والحق أنه لو قدر أن تتكشف للإنسان جميع العلوم الكونية ، ثم يجلس سكان المعمورة ، وقد هيئت لكل فرد منهم جميع الوسائل ، في أكمل صورها ، فإن هؤلاء جميعاً لن يستطيعوا تدوينها أبداً .. أليس هذا هو مصداق قوله تعالى :

« وَلَوْ أنَّ ما في الأرضِ من شجرةٍ أقلامٌ ، والبحرُ يَمدُّهُ من بعدِه سَبْعةُ أبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ » : وقوله تعالى : « قل لو كان البحرُ مِدَاداً لكلماتِ ربي لَنَفِدَ البحرُ قبلَ أن تَنْفَدَ كَلِماتُ ربِّي ولو جئنا بِمِثلِه مَدَداً »[1] ! !

إن كل من أتيحت له الفرصة كي يطالع صفحة من هذا الكون ، سيعترف مصدقاً أنه لا مبالغة في هذه الكلمات الإلهية ، وإنما هي تعبير بسيط عن الحقائق الموجودة فعلاً .

° ° °

(١) لقمان / ٢٧ والكهف / ١٠٩

صدفة أم عمليات حكيمة ؟

إن معارضي الدين يسلمون بكل ما طرحناه في الصفحات الماضية من الأنظمة العجيبة ، والحكمة غير العادية ، والروح التي تسرى في الكون، ولكنهم يفسرونها بطريقة أخرى ؛ إنهم عاجزون عن أن يجدوا فيها رمزاً أو إشارة لمنظم ومدبر .. فإذا بهم يرون أن كل هذا جاء نتيجة « صدفة محضة » .

واستمع إلى قول « هكسلى » :

« لو جلست ستة من القردة على آلات كاتبة ، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين ، فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير ! فكذلك كان الكون ، الموجود الآن ، نتيجة لعمليات عمياء ، ظلت تدور في « المادة » ، لبلايين السنين [1] » .

إن أي كلام من هذا القبيل « لغو مثير »، بكل ما تحويه هذه الكلمة من معان ؛ فإن جميع علومنا تجهل — إلى يوم الناس هذا — أية صدفة أنتجت واقعاً عظيماً ذا روح عجيبة، في روعة الكون ؛ فنحن نعرف بعض الصدف ، وما ينشأ عنها من آثار ، فعندما تهب الرياح تصل « حبوب اللقاح » من وردة حمراء إلى وردة بيضاء ، فتأتي بوردة صفراء .. هذه صدفة لا تفسر

---

(١) *The Mysterious Universe*, pp. 3-4.

قضيتنا إلا تفسيراً جزئياً استثنائياً . فإن وجود الوردة في الأرض بهذا التسلسل، ثم ارتباطها المدهش مع نظام الكون ، لا يمكن تفسيره بهبة رياح صدفة . إنها تأتي بوردة صفراء ، ولكنها لا تأتي بالوردة نفسها ! إن الحقيقة الجزئية الاستثنائية التي توجد في مصطلح « قانون الصدفة » باطلة كل البطلان ، إذا ما أردنا تفسير الكون بها .

يقول البروفيسور ايدوين كونكلين :

« إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة « حادث اتفاقي » شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم ، نتيجة انفجار صدفي يقع في مطبعة[1] » .

وقد قيل : إن تفسير الكون بوساطة (قانون الصدفة) ليس « بكلام فارغ » . بل هو ، كما يعتقد السير جيمس جينز ، ينطبق على « قوانين الصدفة الرياضية المحضة » Purely Mathematical Laws of Chance [2]

ويقول أحد العلماء الأمريكيين :

« إن نظرية الصدفة ليست افتراضاً ، وإنما هي نظرية رياضية عليا، وهي تطلق على الأمور التي لا تتوفر في بحثها معلومات قطعية، وهي تتضمن قوانين صارمة للتمييز بين الباطل والحق ، وللتدقيق في إمكان وقوع حادث من نوع معين ، وللوصول إلى نتيجة ، هي معرفة مدى إمكان وقوع ذلك الحادث عن طريق الصدفة[3] » .

° ° °

ولو افترضنا أن المادة وُجدت بنفسها في الكون ، وافترضنا أيضاً أن تجمعها وتفاعلها كان من تلقاء نفسها (ولست أجد أساساً لأقيم عليه هذه الافتراضات) ففي تلك الحال أيضاً لن نظفر بتفسير الكون ، فإن «صدفة»

---

(١) *The Evidence of God*, p. 174.

(٢) *Mysterious Universe*, p. 3.

(٣) *The Evidence of God*, p. 23.

أخرى تحول دون طريقنا .. فلسوء حظنا : أن الرياضيات التي تعطينا نكتة « الصدفة » الثمينة ، هي نفسها التي تنفى أي إمكان رياضي في وجود الكون الحالي ، بفعل قانون الصدفة .

لقد استطاع العلم الكشف عن عمر الكون وضخامة حجمه ، والعمر والحجم اللذان كشف عنهما العلم الحديث غير كافيين ، في أي حال من الأحوال ، لتسويغ ايجاد هذا الكون عن قانون الصدفة الرياضي .

ويمكننا أن نفهم شيئاً عن قانون الصدفة من المثال التالي :

« لو تناولت عشرة دراهم ، وكتبت عليها الأعداد ، من ١ إلى ١٠ ، ثم رميتها في جيبك ، وخلطتها جيداً ، ثم حاولت أن تخرجها من الواحد إلى العاشر بالترتيب العددي ، بحيث تلقيكل درهم في جيبك بعد تناوله مرة أخرى .. فإمكان أن تتناول الدرهم المكتوب عليه[1] في المحاولة الأولى هو واحد على عشرة ؛ وإمكان أن تتناول الدرهمين (١، ٢) بالترتيب، واحد في المائة ، وإمكان أن تُخرج الدراهم (١، ٢، ٣ و ٤) بالترتيب هو واحد في العشرة آلاف .. حتى إن الإمكان في أن تنجح في تناول الدراهم ١ إلى ١٠ بالترتيب واحد في عشرة بلايين من المحاولات ! ! ».

لقد ضرب هذا المثال العالم الأمريكي الشهير «كريسي موريسن) ، ثم استطرد قائلاً :

« إن الهدف من إثارة مسألة بسيطة كهذه ، ليس إلا أن نوضح كيف تتعقد « الوقائع » بنسبة كبيرة جداً في مقابل « الصدفة »[1] .

• • •

ولنتأمل الآن في أمر هذا الكون ، فلو كان كل هذا بالصدفة والاتفاق، فكم من الزمان استغرق تكوينه ، بناء على قانون الصدفة الرياضي ؟

---

(١) *Man Does not Stand Alone*, p. 17.

إن الأجسام الحية تتركب من « خلايا حية »، وهذه (الخلية) مركب صغير جداً، ومعقد غاية التعقيد ، وهي تدرس تحت علم خاص يسمى « علم الخلايا » Cytology . ومن الأجزاء التي تحتوي عليهـا هذه الخلايا : البروتين ، وهو مركب كيماوي من خمسة عناصر ، هي : الكربون ، والهيدروجين ، والنتروجين ، والأوكسيجين ، والكبريت .. ويشمل الجزيء البروتيني الواحد أربعين ألفاً من ذرات هذه العناصر ! !

وفي الكون أكثر من مائة عنصر كيماوي ، كلها منتشرة في أرجائه ، فأية نسبة في تركيب هـذه العناصر ، يمكن أن تكون في صالح قانون « الصدفة » ؟ أيمكن أن تتركب خمسة عناصر – من هذا العدد الكبير – لإيجاد « الجزيء البروتيني » بصدفة واتفاق محض ؟ ! إننا نستطيع أن نستخرج من قانون الصدفة الرياضي ذلك القدر الهائل من (المادة) الذي سنحتاجه ، لنحدث فيه الحركة اللازمة على الدوام ؛ كما نستطيع أن نتصور شيئاً عن المدة السحيقة التي سوف تستغرقها هذه العملية .

لقد حاول رياضي سويسري شهير ، هو الأستاذ (تشارلز يوجين جواى) أن يستخرج هذه المادة عن طريق الرياضة .. فانتهى في أبحاثه إلى أن (الإمكان المحض) في وقوع الحادث الاتفاقي – الذي من شأنه أن يؤدي إلى خلق كون ، إذا ما توفرت المادة – هو واحد على $\frac{١٦٠}{١٠}$ (أي : ١٠×١٠ مائة وستين مرة) . وبعبارة أخرى : نضيف مائة وستين صفراً إلى جانب عشرة ! ! وهو عدد هائل لا يمكن وصفه في اللغة .

إن إمكان حدوث الجزيء البروتيني عن (صدفة) يتطلب مادة يزيد مقدارها بليون مرة عن المادة الموجودة الآن في سائر الكون ، حتى يمكن تحريكها وضخها ، وأما المدة التي يمكن فيها ظهور نتيجة ناجحة لهذه العملية ، فهي أكثر من $\frac{٢٤٣}{١٠}$ سنة[١] !

---

(١) أي : مائتان وثلاثة وأربعون صفرا أمام عشر سنين . (المعرب)

إن جزىء البروتين يتكون من « سلاسل » طويلة من الأحماض الأمينية (Amino - Acids) ، وأخطر ما في هذه العملية هو الطريقة التي تختلط بها هذه السلاسل، بعضها مع بعض ، فإنها لو اجتمعت في صورة غير صحيحة لأصبحت سماً قاتلاً ، بدل أن تصبح موجدة للحياة .

لقد توصل البروفيسور ج.ب. ليتز (G. B. Leathes) إلى أنه يمكن تجميع هذه السلاسل فيما يقرب من $\frac{٤٨}{١٠}$ صورة وطريقة . وهو يقول : إنه من المستحيل تماماً أن تجتمع هذه السلاسل – بمحض الصدفة – في صورة مخصوصة من هذه الصور التي لا حصر لها ، حتى يوجد الجزىء البروتيني الذي يحتوي أربعين ألفاً من أجزاء العناصر الخمسة التي سبق ذكرها .

ولا بد أن يكون واضحاً للقارىء أن القول بالإمكان في قانون الصدفة الرياضي لا يعني أنه لا بد من وقوع الحادث الذي ننتظره ، بعد تمام العمليات السابق ذكرها ، في تلك المدة السحيقة ؛ وإنما معناه أن حدوثه في أثناء تلك المدة محتمل ، لا بالضرورة ، فمن الممكن ، على الجانب الآخر من المسألة ألا يحدث شيء ما بعد تسلسل العملية إلى الأبد !

• • •

هذا الجزىء البروتيني ذو وجود « كيماوي » ، لا يتمتع بالحياة إلا عندما يصبح جزءاً من الخلية ، فهنا تبدأ الحياة، وهذا الواقع يطرح أهم سؤال في بحثنا : من أين تأتي الحرارة ، عندما يندمج الجزىء بالخلية ؟... ولا جواب عن هذا السؤال في أسفار المعارضين الملحدين .

إن من الواضح الجلي أن التفسير الذي يزعمه هؤلاء المعارضون ، متسترين وراء قانون الصدفة الرياضي ، لا ينطبق على الخلية نفسها ، وإنما على جزء صغير منها ؛ هو الجزىء البروتيني ، وهو ذرة لا يمكن مشاهدتها بأقوى منظار ، بينما نعيش ، وفي جسد كل فرد منا ، ما يربو على أكثر من مئات البلايين من هذه الخلايا ! !

لقد أعـــد العالم الفرنسي « الكونت دى نواى» Le Comte de Nouy بحثاً وافياً حول هذا الموضوع ، وخلاصة البحث: أن مقادير (الوقت ، وكمية المادة ، والفضاء اللانهائي) التي يتطلبها حدوث مثل هذا الإمكان هي أكثر بكثير من المادة والفضاء الموجودين الآن ، وأكثر من الوقت الذي استغرقه نمو الحياة على ظهر الأرض ، وهو يرى : أن حجم هذه المقادير ، الذي سنحتاج إليه في عمليتنا لا يمكن تخيله أو تخطيطه في حدود العقل الذي يتمتع به الإنسان المعاصر ، فلأجل وقوع حادث ــ على وجه الصدفة ــ من النوع الذي ندعيه ، سوف نحتاج كوناً يسير الضوء في دائرته $\frac{٨٢}{١٠}$ سنة ضوئية (أي : ٨٢ صفراً إلى جانب عشرة سنين ضوئية ! !) وهذا الحجم أكبر بكثير جداً من حجم الضوء الموجود فعلاً في كوننا الحالي؛ فإن ضوء أبعد مجموعة للنجوم في الكون يصل إلينا في بضعـــة (ملايين) من السنين الضوئية فقط ... وبناءاً على هذا ، فإن فكرة أينشتين عن اتساع هذا الكون لا تكفي أبداً لهذه العملية المفترضة.

أما فيما يتعلق بهذه العملية المفترضة نفسها ، فإننا سوف نحرك المادة المفترضة ، في الكون المفترض، بسرعة خمسمائة (تريليون) حركة، في الثانية الواحدة ، لمدة $\frac{٢٤٣}{١٠}$ بليون سنة (٢٤٣ صفراً أمام عشرة بلايين)، حتى يتسى لنا حدوث إمكان ، في إيجاد جزيء بروتيني يمنح الحياة .

ويقول « دى نواى » في هذا الصدد :

« لا بد ألا ننسى أن الأرض لم توجد إلا منذ بليونين من السنين ؛ وأن الحياة ــ في أي صورة من الصور ــ لم توجد إلا قبل بليون سنة ، عندما بردت الأرض[1] » .

---

(١) *Human Destiny*, pp. 30-36

هذا ، وقد حاول العلماء معرفة عمر الكون نفسه ، وأثبتت الدراسة في هذا الموضوع أن كوننا موجود منذ ٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة.. وهي مدة قصيرة جداً ، ولا تكفي على أي حال من الأحوال لخلق إمكان، يوجد فيه الجزيء البروتيني ، بناءً على قانون الصدفة الرياضي .

وأما ما يتعلق بأرضنا ، التي ظهرت عليها الحياة ، فقد عرفنا عمرها بصورة قاطعة، فهذه الأرض ، كما يعتقد العلماء ، جزء من الشمس ، انفصل عنها نتيجة لصدام عنيف وقع بين الشمس وسيار عملاق آخر ، ومنذ ذلك الزمان أخذ هذا الجزء يدور في الفضاء ، شعلةً من نار رهيبة، ولم يكن من الممكن ظهور الحياة على ظهره حينئذ لشدة الحرارة ، وبعد مرور زمن طويل أخذت الأرض تبرد ، ثم تجمدت وتماسكت ، حتى ظهر إمكان بدء الحياة على سطحها .

ونستطيع معرفة عمر الكون بشتى الطرق ، وأحسن طريقة عرفناها لهذه الدراسة ، هي التي توصلنا إليها بعد الكشف «العناصر المشعة» Radio - Active Elements ، فإن الذرات الكهربية تخرج من هذه العناصر بنسبة معلومة ، بصفة دائمة ؛ وهذا «التحلل» Disintegration يقلل الذرات الكهربية في هذه العناصر ، لتصبح تلقائياً عناصر غير مشعة عبر الزمان، واليورانيوم أحد هذه العناصر المشعة ، وهو يتحول إلى معدن (الرصاص) بنسبة معينة، نتيجة لتحلل الذرات الكهربية، وهذه النسبة في الانتشار لا تتغير تحت أي ظرف ، من أدنى أو أقصى درجات الحرارة أو الضغط ، ولهذا سنكون على صواب لو اعتبرنا أن سرعة تحول اليورانيوم إلى (الرصاص) محددة وثابتة لا تتغير .

إن قطع اليورانيوم توجد في كثير من الهضبات والجبال ، ومما لا شك فيه أن هذا اليورانيوم هوجزء من ذلك الجبل، منذ أن تجمد في شكله الأخير ، عند تجمد الأرض.. وعلى جانب هذا اليورانيوم نجد قطعاً من الرصاص ، ولا نستطيع أن ندعي أن كل هذا الرصاص نتج عن تحلل اليورانيوم.

والسبب في هذا أن الرصاص الذي يتكون من تحلل اليورانيوم يكون أقل وزناً من الرصاص العادي، وبناءً على هذه القاعدة الثابتة يمكننا أن نجزم بما إذا كانت أية قطعة من الرصاص من اليورانيوم، أو أنها قطعة رصاص عادي ، ونحن هنا نستطيع أن نحتسب المدة التي استغرقتها عملية تحلل اليورانيوم بدقة ، فهو يوجد في الجبل من أول يوم تجمد فيه. نستطيع معرفة مدة تجمد الجبل نفسه !

لقد أثبتت التجارب أنه قد مر ألف وأربعمائة مليون سنة على تجمد تلك الجبال ، التي تعتبر — علمياً — أقدم جبال الأرض. وقد يظن البعض منا أن عمر الأرض يزيد ضعفاً أو ضعفين عن عمر هذه الجبال ، ولكن التجارب العلمية تنفي بشدة هذه الظنون الشاذة، ويذهب البروفيسور (سوليفان) إلى أن « المعدل المعقول » لعمر الأرض هو ألفا مليون سنة[1] !

° ° °

ولنتأمل الآن ، بعدما تبين لنا أن المادة العادية غير ذات الروح ، تحتاج إلى بلايين البلايين من السنين ، حتى يتسى مجرد إمكانٍ ، لحدوث (جزيء بروتيني) فيها بالصدفة ! فكيف إذن جاءت في هذه المدة القصيرة في شكل مليون من أنواع الحيوانات ، وأكثر من ٢٠٠,٠٠٠ ألف نوع من النبات ؟ وكيف انتشرت هذه الكمية الهائلة على سطح الأرض ، في كل مكان ؟ ثم كيف جاء من خلال هذه الأنواع الحيوانية ذلك المخلوق الأعلى الذي الذي نسميه « الإنسان » ؟ ولا أدري كيف نجرؤ على مثل هذه الاعتقادات ، في حين أننا نعرف جيداً أن نظرية النشوء والارتقاء تقوم على أساس « تغيرات صدفية محضة » ؟ ! وأما هذه التغيرات ، فقد حسبها الرياضي « باتو » Patau ، وانتهى إلى أن اكتمال « تغير جديد » ، في جنس ما ، قد يستغرق

(١) J.W.N. Sullivan, *Limitations of Science*, p. 78.

مليوناً من الأجيال[٢] :

فلنفكر في أمر (الكلب) الذي يزعمون أنه جد (الحصان) الأعلى ، كم من المدة ، على قول الرياضي باتو ، سوف يستغرقها الكلب ، حتّى يصبح حصاناً ؟ !

وما أصح ما قاله عالم الأعضاء الأمريكي مارلين ب . كريدر :

« إن الإمكان الرياضي في توفر العلل اللازمة للخلق – عن طريق الصدفة – في نسبها الصحيحة ، هو ما يقرب من « لا شيء »[١] .

° ° °

لقد أطلت في هذا البحث ، حتّى نتبين مدى سخافة فكرة الخلـــق بالصدفة ، وبطلانها ، ولست – في الحق – أشك في أنه يستحيل وجود الجزىء البروتيني والذرة عن الصدفة ؛ كما لا يمكن أن يكون عقلك هذا – الذي يتأمل في أسرار الكون وخفاياه – من ثمار الخلق الصدفي ، مهما بالغنا في افتراضاتنا عن المدة الطويلة التي استغرقتها عملية المادة في الكون . ونظرية الخلق هذه ليست مستحيلة في ضوء قانون الصدفة الرياضي فحسب ، وإنما هي لا تتمتع بأي وزن منطقي في نفس الوقت .

وأي كلام من هذا القبيل سخيف ومليء بالصلافة .. ومثاله كمن يزعم أن سقوط كوب مملوء بالماء أو بالقهوة سوف يرسم خريطة العالم عـــلى الأرض ! ! لا مانع من أن أسأل هذا الرجل : من أين جاء بهذا الفرش الأرضي ، والجاذبية ، والماء ، والكوب ، حتّى يقع هذا الاتفاق الغريب ؟!

° ° °

لقد ولغ عالم البيولوجيا « هيكل » **Haeckel** في زعمه حين قال :

---

(١) *The Evidence of God*, p. 117.

(٢) *Ibid.*, p. 67.

« إيتوني بالهواء ، وبالماء وبالأجزاء الكيماوية، وبالوقت، وسأخلق الإنسان » .
ولكن « هيكل » نسي أو تجاهل في هذه القالة : أنه بتقريره احتياجه إلى المادة والأحوال المادية ، ينفي زعمه من تلقاء نفسه !

يقول الأستاذ « كريسي موريسن »[1] في هذا الصدد :

« إن هيكل يتجاهل في دعواه : الجينات الوراثية ، ومسألة الحياة نفسها ، فإن أول شيء سيحتاج إليه ، عند خلق الإنسان ، هو الذرات التي لا سبيل إلى مشاهدتها ، ثم سيخلق (الجينات) ، أو حملة الاستعدادات الوراثية ، بعد ترتيب هذه الذرات ، حتى يعطيها ثوب الحياة ... ولكن إمكان الخلق في هذه المحاولة ، بعد كل هذا ، لا يعدو واحداً على عدة بلايين ، ولو افترضنا أن « هيكل » نجح في محاولته ، فإنه لن يسميها « صدفة » ، بل سوف يقررها ، ويعدها نتيجة لعبقريته[2] » .

° ° °

ولنختم هذا البحث بقول عالم الطبيعة الأمريكي « جورج ايرل ديفيس » :

« لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه ، فإن معنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق ، وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الإله .. وهكذا ننتهي إلى التسليم بوجود (الإله) ؛ ولكن إلهنا هذا سوف يكون عجيباً : إلهاً غيبياً ومادياً في آن واحد ! ! إنني أفضل أن أؤمن بذلك الإله الذي خلق العالم المادي ، وهو ليس بجزء من هذا الكون ، بل هو حاكمه ومديره ومدبره ، بدلاً من أن أتبنى مثل هذه الخزعبلات[3] » .

---

(١) رئيس أكاديمية العلوم الأمريكية بنيويورك (سابقاً) المعرب .
(٢) *Man does not Stand Alone*, p. 87.
(٣) *The Evidence of God*, p. 71.

الباب الخامس

دليل الآخرة

من أهم الحقائق التي يدعونا الدين إلى الإيمان بها : فكرة الآخرة . والمراد بها : أن هناك عالماً آخر غير عالمنا الحاضر ؛ وسوف نعيش في ذلك العالم خالدين ؛ وأن عالمنا هذا هو مكان للاختبار والابتلاء ، وجد فيه الإنسان لأجل معلوم ؛ وأن الله سوف ينهي هذا العالم حين يحين أجله ، لبناء العالم الآخر ، على طراز جديد ؛ وأن الناس سوف يبعثون مرة أخرى ؛ وسوف تعرض أعمالهم ـ خيراً أو شراً ـ على محكمة الله ، الذي يجزي كل إنسان بما عمل في الحياة الدنيا .

أهذه النظرية صحيحة ؟ أم هي باطلة ؟ وهل هناك إمكان لهذه الآخرة ؟.. سوف نعرض هنا بعض جوانب القضية .

• • •

أولاً : إمكان الآخرة

ليكن الجانب الأول من هذا العرض ، هو البحث عن « إمكان » وقوع الآخرة . فهل هنالك وقائع وإشارات تصدق هذه الدعوى ؟

إن فكرة (الآخرة) تقتضي – أول ما تقتضي – ألا يكون الإنسان والكون ، في شكلهما الحالي ، أبديين ، وقد علمنا في الصفحات الماضية – بما لا يدع مجالاً للشك – أن أبدية الكون والإنسان مستحيلة ، وأيقنا ، يقيناً لا يتزعزع ، بأن الإنسان يموت ، وأن الكون سينتهي طبقاً لقانون « الطاقة المتاحة » . ولست أدري إذا ما كان هنا طريق للنجاة من هذه النهاية المروعة .

• • •

١ – مسألة الموت :

إن الذين لا يؤمنون بالعالم الثاني – الآخرة – يحاولون بدافع الغريزة أن يجعلوا من هذا الكون عالماً أبدياً لأفراحهم ، ولذلك بحثوا كثيراً عن أسباب « الموت » ، حتى يتمكنوا من الحيلولة دون وقوع هذه الأسباب ، من أجل تخليد الحياة ، ولكنهم أخفقوا إخفاقاً ذريعاً ؛ وكلما بحثوا في هذا الموضوع ، رجع إليهم بحثهم برسالة جديدة عن حتمية الموت ، وأنه لا مناص منه .

« لماذا الموت ؟ » .. هناك ما يقرب من مائتي إجابة عن هذا السؤال

الخطير ، الذي كثيراً ما يطرح في المجالس العلمية ، منها :

(فقدان الجسم لفاعليته) ، (انتهاء عملية الأجزاء التركيبية) ، (تجمد الأنسجة العصبية) ، (حلول المواد الزلالية القليلة الحركة ، محل الكثيرة الحركة منها) ، (ضعف الأنسجة الرابطـــة) ، (انتشار سموم «بكتريا» الأمعاء في الجسم) .. وما إلى ذلك من الإجابات التي تتردد كثيراً حول ظاهرة الموت .

إن القول بفقدان الجسم لفاعليته جذاب للعقل .. فإن الآلات الحديدية والأحذية والأقمشة كلها تفقد فاعليتها بعد أجل محدود ، فأجسامنا أيضاً تبلى وتفقد فاعليتها ، كالجلود التي نلبسها في موسم الشتاء . ولكن العلم الحديث لا يؤيدنا ، لأن المشاهدة العلمية للجسم الإنساني تؤكد : أنه ليس كالجلود الحيوانية ، والآلات الحديدية ، وليس كالجبال .. وأن أقرب شيء يمكن تشبيهه به هو ذلك (النهر) الذي لا يزال يجري منذ آلاف السنين على ظهر الأرض ، فمن ذا الذي يستطيع القول بأن النهر الجاري يبلى ويهن ويعجز ؟ ! بناءً على هذا الأساس يعتقد الدكتور « لنس بالنج[1] » أن الإنسان أبدى ، إلى حد كبير ، نظرياً ؛ فإن خلايا جسمه آلات تقوم بإصلاح ما فيه من الأمراض ومعالجتها تلقائياً ! وبرغم ذلك فإن الإنسان يعجز ويموت ؛ ولا تزال علل هذه الظاهرة أسراراً تحيّر العلماء .

• • •

إن جسمنا هذا في تجدد دائم . وإن المواد الزلالية ، التي توجد في خلايا دمائنا ، تتلف كذلك ثم تتجدد ؛ ومثلها جميع خلايا الجسم ، تموت وتحل مكانها خلايا جديدة ؛ اللهم إلا الخلايا العصبية . وتفيد البحوث العلمية أن دم الإنسان يتجدد تجدداً كلياً خلال ما يقرب من أربع سنين ، كما تتغير

---

(١) وهو حائز على جائزة نوبل للعلوم .

جميع ذرات الجسم الإنساني في بضع سنين . ونخرج من هذا بأن الجسم الإنساني ليس كهيكل . وإنما هو كالنهر الجاري ؛ أي أنه « عمل مستمر » . ومن ثم تبطل جميع النظريات القائلة بأن علة الموت هي وهن الجسم وفقده لقوته ؛ فإن الأشياء التي فسدت أو تسممت من الجسم أيام الطفولة أو الشباب قد خرجت من الجسم منذ زمن طويل . ولا معنى لأن نجعلها سبب الموت ، فسبب الموت موجود في مكان آخر . وليس في الأمعاء والأنسجة البدنية والقلب .

° ° °

ويدعي بعض العلماء أن الأنسجة العصبية هي سبب الموت ، لأنها تبقى في الجسم إلى آخر الحياة ولا تتجدد . ولو صح هذا التفسير القائل بأن النظام العصبي هو نقطة الضعف في الجسم الإنساني . فمن الممكن أن نزعم أن أي جسم خال من (النظام العصبي) لا بد أن يحيا عمراً أطول من الأجسام ذات النظام العصبي ، ولكن المشاهدة العلمية لا تؤيدنا ؛ فإن هذا النظام لا يوجد مثلاً في الأشجار . وبعضها يعيش لأطول مدة ، ولكن شجرة القمح التي لا يوجد بها هذا النظام العصبي لا تعيش أكثر من سنة ، وليس في كائن « الأميبا » جهاز عصبي ، وهي مع ذلك لا تبقى على قيد الحياة أكثر من نصف ساعة . ومقتضى هذا التفسير أيضاً أن تلك الحيوانات التي تعد من (نسل أعلى) ، والتي تتمتع بنظام عصبي أكمل وأجود ؛ لا بد أن تعيش مدة أطول من تلك التي هي أحقر نسلاً وأضعف نظاماً . ولكن الحقائق لا تؤيدنا في هذا أيضاً ؛ فإن السلحفاة والتمساح وسمكة « باتيك » أطول عمراً من أي حيوان آخر ، وكلها من النوع الثاني — حقير النسل ، وضعيف النظام .

° ° °

لقد أخفقت تماماً تلك البحوث التي استهدفت أن تجعل من الموت أمراً

غير يقيني ، يمكن ألا يقع ، فبقي الاحتمال : الذي أكدته الأزمان ، وهو أن يموت الإنسان في أي عمر ، وفي أي زمن ، ولم نستطع العثور على أي إمكان يمنع الموت ، رغم جميع الجهود .

لقد بحث الدكتور « الكسيس كيرل » هذه المشكلة في مقال طويل بعنوان « الزمن الداخلي » ، فذكر الجهود المخفقة التي بذلت في هذا الصدد ؛ ثم قال :

« إن الإنسان لن يسأم أبداً من البحث عن (الخلود) والسعي وراءه ؛ مع أنه لن يظفر به إلى الأبد ؛ فتركيبه الجسماني يخضع لقوانين معينة ، إنه يستطيع أن يوقف الزمن (الفسيولوجي) لأعضاء الجسد ، حتى يؤخر الموت لفترة قصيرة ، ولكنه لن يتغلب على الموت أبداً[1] » .

° ° °

٢ ــ ظواهر وأمثلة طبيعية :

في ضوء هذه الوقائع لم تعد مسألة نهاية العالم غير مفهومة ؛ فنحن على علم بالقيامات الصغرى التي تقع على سطح الأرض ، وهي التي ستحدث مرة أخرى على نطاق أوسع ، حتى تشمل الأرض المأهولة كلها .

إن الظاهرة الأولى التي تنذرنا بإمكان القيامة هي الزلازل .. فبطن الأرض يحتوي على مادة شديدة الحرارة ، نشاهدها عندما ينفجر البركان ، وهذه المادة تؤثر على الأرض بشتى الطرق ، فمنها ما تصدر عنه أصوات مروعة رهيبة ، وما نحس به من الهزات الأرضية ، التي نسميها «الزلازل» إنها لا تزال كلمة رهيبة في حياة الإنسان المعاصر ، رغم تقدم العلـــوم والتكنولوجيا ، كما كانت رهيبة في حياة الإنسان القديم . هذه الزلازل هي حَمْلَةُ الطبيعة ضد الإنسان ، الذي لا يملك إزاءها شيئاً ، فالخيار كله

---

(١) *Man the Unknown*, p. 175.

في يد الفريق الأول.. إن الإنسان لا يملك شيئاً يقاوم به الزلازل ، فهي نذير يذكره دائماً بأنه يعيش فوق مادة حمراء ملتهبة جهنمية ، لا يفصله عنها سوى قشرة جبلية رقيقة ، لا يزيد سمكها عن خمسين كيلومتراً ، وهذه القشرة ليست ، بالنسبة إلى الكرة الأرضية ، إلا بمثابة القشرة من ثمرة التفاح ..

يقول عالم الجغرافيا (جورج جاموف) : «إن هناك جهنم طبيعية تلتهب تحت بحارنا الزرقاء ، ومدننا الحضارية المكتظة بالسكان ، وبكلمة أخرى : نحن واقفون على ظهر لغم (ديناميت) عظيم ، ومن الممكن أن ينفجر في أي وقت ، ليدمر النظام الأرضي بأكمله[1] » .

وهذه الزلازل تجتاح جميع نواحي الأرض ، ولا تخلو الجرائد أي صباح من أخبارها ، ولكن يكثر وقوعها في الأماكن التي توجد بها البراكين ، لاعتبارات جغرافية . وأقدم زلزال رهيب سجله التاريخ هو زلزال إقليم (شنسى) الصيني ، الذي وقع عام ١٥٥٦ م . ولقى أكثر من ٨,٠٠٠,٠٠٠ نسمة مصرعهم في هذه الكارثة . وقد وقع زلزال في «لشبونه» عاصمة البرتغال عام ١٧٥٥ م ، فدمر المدينة كلها ، وأباد ثلاثين ألفاً من الناس في ست دقائق . وقد قيل : إن هذا الزلزال هز ربع أوربا . ومن هذا النوع من الزلازل ما وقع في ولاية (آسام) الهندية عام ١٨٩٧ م ؛ وهو يعد من الزلازل الخمسة الكبرى في التاريخ ، فقد أحدث دماراً وخراباً عظيمين في منطقة كبيرة من شمالي الهند ، كما غير اتجاه النهر العملاق (برهام بوترا) ، وطفرت هضبة (ايفرست) بجبال الهملايا ، فارتفعت مائة قدم !

إن هذه الزلازل (قيامة) على نطاق غير واسع .. فعندما تنفجر الأرض بصوتها المخيف ، ودويها الرهيب ، وعندما تتساقط الجدران ، وسقف

---

(١) *Biography of the Earth*, p. 62.

الأبنية المسلحة الفخمة ، حتى كأنها أوراق « الكوتشينه » ، وعندما يصبح أعلى الأرض أسفلها ، وأسفلها أعلاها ، وعندما تحل الخرائب الموحشة محل المدن العامرة الكبرى في ثوان معدودة ، وعندما تسير طوابير النعوش ، وتتراكم على ساحات المدن وطرقها تراكم الأسماك على ساحل البحر — فتلكم هي قيامة الزلزال ..

وفي تلك اللحظة يشعر الإنسان بعجزه أمام قوى الطبيعة ، فإن الزلازل لا تقرع أبواب المدن إلا بغتة ، دون سابق إذن أو إنذار ، والبلية كل البلية في أن الإنسان لا يستطيع أن يتنبأ بمكان الزلازل ، ولا بموعد وقوعها ، وهي في نفسها تنبيء عن قيامة كبرى ، سوف تفجؤنا غداة يوم ، على غرة منا . إن هذه الزلازل دليل ناطق بأن خالق الأرض قادر على تدميرها ، كما يشاء .

• • •

وهذه هي حال الفضاء الخارجي ؛ فالكون فضاء لا حدود له ، تدور فيه نيران هائلة لا حصر لها ، هي (السيارات والنجوم) ، ومثالها كملايين الخذاريف[1] التي تدور على سطح معين بأقصى سرعة يمكن تخيلها .. وهذا الدوران يمكن أن يتحول في أي يوم إلى صدام عظيم لا يمكن تصوره . وفي تلك اللحظة الرهيبة يكون ما في الكون أشبه بآلاف من القاذفات النفاثة المليئة بالقنابل النووية ، وهي تواصل رحلتها في الجو ، ثم تصطدم كلها مرة واحدة ! ! إن اصطدام الأجرام السماوية ليس بغريب مطلقاً ، بل الغريب حقاً هو عدم وقوع هذا الاصطدام ؛ فدراسة علم الفلك تؤكد إمكان اصطدام الأجرام السماوية ، والحديث عن وجود النظام الشمسي يدور حول وقوع صدام كبير بين بعض الأجرام السماوية قديماً ؛ فإذا استطعنا أن نتصور هذا التصادم على نطاق أوسع لاستطعنا أن نفهم جيداً ذلك (الإمكان) الذي نحن بصدده .. فهذا الواقع هو بعينه ما نسميه .. « القيامة » .

إن فكرة (الآخرة) التي تقرر أن نظام الكون الموجود حالياً سوف

---

(١) جمع خذروف ، وهي لعبة من الخشب ، مخروطية الشكل ، يسميها الأطفال (النحلة) المراجع .

يدمر يوماً ، لا تعني سوى أن واقع الكون ، الذي نشاهده في صورة صغيرة أولية ، سوف يتجلى يوماً في صورة نهائية كبرى . فالقيامة حقيقة معلومة في أعماقنا ، ونحن اليوم نعرفها في حد (الإمكان) ، ولسوف نلقاها غداً في صورة الواقع .

° ° °

٣ ــ الحياة بعد الموت :

المسألة الثانية في هذا البحث هي مسألة الحياة بعد الموت .

« هل هناك حياة بعد الموت » ؟ ؟ هذا سؤال يتردد دائماً في العقل الحديث ، ثم يستطرد قائلاً : « لا ... لا حياة بعد الموت ، لأن الحياة التي أعرفها لا توجد إلا في ظروف معينة من تركيب العناصر المادية . وهذا التركيب الكيماوي لا يوجد بعد الموت ، إذن : فلا حياة بعد الموت » .

ويعتقد « ت.ر.مايلز » بـأن : « البعث بعد الموت حقيقة تمثيلية ، وليس بحقيقة لفظية » . ثم يضيف قائلاً :

« إنها قضية قوية عندي أن الإنسان يبقى حياً بعد الموت ، وهذه القضية من الممكن ــ لفظياً ــ أن تكون حقيقة ، وهي قابلة لاختبار صحتها أو بطلانها بالتجربة ، ولكن المسألة الرئيسية في طريقنا هي أننا لا نملك وسيلة لمعرفة الإجابة القطعية عن هذا السؤال إلا بعد الموت ، ولذلك يمكننا أن نقيس » .

وحيث إن قياسه لا يصدق هذه القضية ، فهي ليست بحقيقة لفظية . وقياسه كما يلي :

« بناء على علم الأعصاب (Neurology) لا يمكن معرفة العالم الخارجي ، والاتصال به ، إلا عندما يعمل الذهن الإنساني في حالته العادية ، وأما بعد الموت ، فهذا الإدراك مستحيل ، نظراً إلى بعثرة تركيب النظام

الذهني[1] » .

ولكن هناك قياسات أخرى ، أقوى من هذا القياس ؛ وهي تؤكد أن بعثرة الذرات المادية في الجسم الإنساني لا تقضي على الحياة ؛ فإن « الحياة » شيء آخر ، وهي مستقلة بذاتها ، باقية بعد فناء الذرات المادية وتغيرها .

ومن المعلوم أن الجسم الإنساني يتألف من أجزاء (ذرات) . تسمى « الخلايا » ، ومفردها : خلية (Cell) . وهي ذرات صغيرة جداً ومعقدة ، يزيد عددها في الجسم الإنساني العادي على ٢٦٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ خليــة . ويبــدو أن هذه الخلايــا مثل الطوب الصغــير ، ينبنى منه هيكل أجسامنا . ولكن الفرق بين طوب أجسامنا والطوب الطيني شاسع جداً .. فطوب الطين الذي يستخدم في العمارات يبقى كما هو ــ نفس الطوب الذي صنع في المصنع ، واستخدم في البناء للمرة الأولى .. بينما يتغير طوب هياكلنا في كل دقيقة ، بل في كل ثانية ، إن خلايا أجسامنا تنقص بسرعة ، كالآلات التي تتآكل باحتكاكها واستهلاكها ، ولكن هذا النقص يعوضه الغذاء ، فهو يهيىء للجسم قوالب الطوب التي يحتاج إليها بعد نقص خلاياه واستهلاكها[2] . فالجسم الإنساني يغير نفسه بنفسه بصفة مستمرة ، وهو كالنهر الجاري المملوء دائماً بالمياه ، لا يمكن أن نَجِدَ بِهِ نَفْسَ الماء الذي كان يجري فيه منذ برهة ، لأنه لا يستقر ؛ فالنهر يغير نفسه بنفسه دائماً ، ومع ذلك فهو نفس النهر الذي وجد منذ زمن طويل ، ولكن الماء لا يبقى ، بل يتغير .

وجسمنا مثل النهر الجاري ، يخضع لعملية مستمرة ، حتى إنه يأتي وقت لا تبقى فيه أية خلية قديمة في الجسم ، لأن الخلايا الجديدة أخذت مكانها .

---

(١) *Religion and Scientific Outlook*, p. 206.

(٢) لم نشبه الخلية بالطوب إلا لشبه ظاهري ، والحقيقة أن « الخلية » عملية معقدة للغاية ، وهي في ذاتها جسم كامل ، ويبحث عنها في علم الخلايا Cytology .

هذه العملية تتكرر في الطفولة والشباب بسرعة ، ثم تستمر بهدوء ملحوظ في الكهولة ولو حسبنا معـــدل التحدد في هذه العملية فسوف نخرج بأنها تحدث مرة كل عشر سنين . إن عملية فناء الجسم المادي الظاهري تستمر ، ولكن الإنسان في الداخل لا يتغير ، بل يبقى كما كان : علمه ، وعاداته وحافظته ، وأمانيه ، وأفكاره ، تبقى كلها كما كانت . إنه يشعر في جميع مراحل حياته بأنه هو « الإنسان السابق » ، الذي وجد منذ عشرات السنين ، ولكنه لا يحس بأن شيئاً من أعضائه قد تغير ، ابتداء من أظافر رجليه حتى شعر رأسه .

ولو كان الإنسان يفنى بفناء الجسم ، لكان لازماً أن يتأثر على الأقل بفناء الخلايا وتغيرها الكامل ، ولكننا نعرف جيداً أن هذا لا يحدث ، وهذا الواقع يؤكد أن « الإنسان » أو « الحياة الإنسانية » شيء آخر غير الجسم ، وهي باقية رغم تغير الجسم وفنائه ، وهو كنهر يستمر فيه سفر الخلايا بصفة دائمة ! وهذا هو الأمر الذي دعا عالماً أن يصف الإنسان : بشيء مستقل بذاته ، وباق غير متغير ، رغم التغيرات المتسلسلة . فهو يعتقد :

« أن الشخصية هي عـــدم التغير في عالم التغيرات » —

"Personality — is changelessness in change."

ولو كان الموت فناء « للإنسان » ، فمن الممكن أن نقول — بعد كل مرحلة من مراحل حدوث هذا التغير الكيماوي الذي يجري في الجسم — إن الإنسان قد مات ، وإنه يعيش حياة أخرى جديدة بعد موته ! ومعناه أن الرجل الذي أراه في الخمسين من عمره ، وهو يمشي في الشارع على رجليه ، قد مات خمس مرات في هذه الحياة القصيرة ؛ فإذا لم يمت هذا الإنسان بعد فناء أجزاء جسمه المادية خمس مرات ، فكيف أستطيع أن أعتقد بأنه مات في المرة السادسة عـــلى وجه اليقين ؟ ولا سبيل له الآن إلى الحياة ؟

إن بعض الناس لن يسلموا بهذا الاستدلال ، وسيقولون : إن العقل ،

أو الوجود الداخلي الذي نسميه « إنساناً »، ليس بشيء آخر ، ولم يوجد إلا نتيجة علاقة الجسم بالعالم الخارجي ، وإن الأفكار والأماني لا توجد خلال العمل المادي إلا كالحرارة التي توجد نتيجة احتكاك قطعتين من حديد !.

إن الفلسفة الحديثة تنكر (الروح) بشدة ، ويعتقد السير جيمز : أن « الشعور » لا يوجد كوحدة Entity ، وإنما هو وظيفة Function ، وتفاعل وتنسيق Process .. وقد أصر الكثيرون من فلاسفتنا المحدثين على أن (الشعور) في ذاته ليس إلا التفاعل والرد العصبي لما يحدث من حركة ونشاط في العالم الخارجي. وبناءً على هذه النظرية لا مجـال للتساؤل عن إمكان الحياة بعد الموت ، نظراً لتحلل النظام الجسماني ، ولأن المركز العصبي في الجسم لم يعد له وجود ، وهو الذي كان يتفاعل وينسق مع العالم الخارجي ، وهم يعتقدون بناءاً على هذا أن نظرية الحياة بعد الموت أصبحت غير ذات أساس عقلي أو واقعي .

سوف أقول : إنه لو كانت هذه هي حقيقة الإنسان فلنجرب أن نخلق إنساناً حياً ذا شعور ، ونحن – اليوم – نعرف بكل وضوح جميع العناصر التي يتألف منها جسم الإنسان ، وهذه العناصر توجد في الأرض وفي الفضاء الخارجي ، بحيث يمكننا الحصول عليها ، وقد علمنا دقائق بناء النظام الجسماني ، وعرفنا هيكله وأنسجته ، ولدينا فنانون مهرة يستطيعون أن يصنعوا أجساماً كجسم الإنسان ، بكل مواصفاتها ، فلنجرب – لو كان معارضو الروح يصرون على حقيقة مبدئهم – ولنصنع مئات من أمثال هذه الأجسام ، ولنضعها في شتى الميادين ، في بقعة الأرض الفسيحة ، ثم لننتظر ذلك الوقت الذي تمشي فيه هذه الأجسام وتتكلم وتأكل « بناء على تأثيرات العالم الخارجي » ! ؟

• • •

فهذا عن إمكان بقاء الحياة بعد الموت .

ثانياً : ضرورة الآخرة

لنفكر الآن في الأسباب التي أقام الدين عليها دعوته إلى الإيمان بهذه النظرية : إن الحياة ، كما نتصور ، ليست « غدواً ورواحاً » ، كما يراها الفيلسوف الألماني (نيتشه) ، والتي تمتلىء وتخلو كالساعة ، ولا هدف لها أكثر من ذلك .. إن الحياة « الآخرة » ذات هدف عظيم ، هو المجازاة على أعمال الدنيا ، خيراً كانت أو شراً . وهذا الجزء من نظرية الآخرة يكاد يتضح جلياً حين نعلم أن أعمال كل إنسان تحفظ وتسجل بصفة دائمة ، وبغير توقف . وللإنسان ثلاثة أبعاد ، يعرف من خلالها ، هي : نيته ، وقوله ، وعمله . وهذه الأبعاد الثلاثة تسجل بأكملها . فكل حرف يخرج عن لساننا ، وكل عمل يصدر عن عضو من أعضائنا — يسجل في الأثير (الفضاء) ؛ ويمكن عرضه في أي وقت من الأوقات بكل تفاصيله ، لنعرف — إذا شئنا — كل ما قاله ، أو فعله أي إنسان في هذه الحياة الدنيا ، من خير أو شر .

إن الأفكار تخطر على بالنا ، وسرعان ما ننساها ، ويبدو لنا أنها انتهت ، فلم يعد لها وجود ، ولكنا ، بعد فترة طويلة ، نراها رؤىً خلال النوم ، أو نذهب نتكلم عنها في حالات الهستريا أو الجنون ، دون أن ندري شيئاً مما نقول . وهذه الوقائع تثبت قطعياً أن العقل أو الحافظة ليست تلك التي نشعر ونحس بها فحسب ، وإنما هناك أطراف أخرى من هذه الحافظة لا نشعر بها ، وهي ذات وجود مستقل ، وذات كيان قائم بنفسه .

ولقد أثبتت التجارب العلمية أن جميع أفكارنا تحفظ في شكلها الكامل ، ولسنا قادرين على محوها أبداً ، وأثبتت هذه التجارب أيضاً أن الشخصية الإنسانية لا تنحصر فيما نسميه « الشعور » . بل هناك أجزاء أخرى من الشخصية الإنسانية تبقى وراء الشعور ، يسميها فرويد : « ما تحت الشعور » ، أو « اللا شعور » . وهذه الأجزاء تشكل جانباً كبيراً من شخصيتنا ، بل هي الجانب الأكبر منها ؛ ومثلها كمثل جبل من الجليد في أعالي البحار ،

أجزاوْه الثمانية مستكنة تحت الماء ، على حين لا يطفو منه إلا الجزء التاسع . وتلك هي مانسميه : (تحت الشعور) ، الذي يسجل ويحفظ كل ما نفكر فيه ، أو ننتويه .

يقول (فرويد) في محاضرته الحادية والثلاثين :

« إن قوانين المنطق ، بل أصول الأضداد أيضاً ، لا تحول دون عمل (اللاشعور) I D ، وإن الأماني المتناقضة موجودة فيه جنباً إلى جنب ، دون أن تقضي واحدة منها على الأخرى . ولا شيء في اللا شعور يشبه أن يكون « رفضاً » لشيء من هذه المتناقضات . إننا نتحير لما نشاهده من أن اللاشعور يبطل رأي فلاسفتنا القائلين بأن جميع أفعالنا العقلية الشعورية تتم في زمن محدد ، ولكن لا شيء في اللاشعور يطابق الفكر الزمني ، ولا يوجد فيه أي رمز لمضي الوقت وسريانه . وهي حقيقة محيرة . ولم يحاول الفلاسفة أن يتأملوا حقيقة ، هي أن مضي الزمن لا يحدث أي تغيير في العمل الذهني ؛ إن الدوافع الحبيسة (Conative impulses) التي لم تخرج قط عن اللاشعور ، وحتى التأملات الخيالية التي دُفنت في اللاشعور — تكون أزلية في الحقيقة والواقع ، وتبقى محفوظة لعشرات السنين ، وكأنها لم تحدث إلا بالأمس[1] » .

وقد سلم علماء النفس بهذه النظرية بصفة عامة اليوم ، ومعناها أن كل ما يخطر على بال الإنسان من الخير والشر ، ينقش في صفحة اللاشعور ، فلا يزول إلى الأبد ، ولا يؤثر فيه تغير الزمان ، وتقلب الحدثان ، ويحدث هذا على رغم الإرادة الإنسانية — طوعاً أو كرهاً .

ولم يستطع (فرويد) أن يدرك ما يكمن خلف هذه العملية من أسباب وعلل ، وأية خدمة تؤديها في مصنع الكون ؟ ولهذا نراه يدعو الفلاسفة إلى

---

(١) *New Introductory Lectures on Psycho-Analysis*, London 1949, p. 99.

التفكير والتأمل. ولكنا لو قارنّا هذا الواقع مقروناً إلى نظرية الآخرة لاستطعنا أن نصل إلى حقيقتها بسرعة ، إن هذا الواقع يؤكد ، بكل صراحة ، إمكان وجود سجل كامل لأعمال الإنسان في حيازته ، عندما يبدأ حياته ، الأخرى ، فإن وجوده نفسه سوف يشهد على الأعمال والنيات التي عاشها :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ »[1] .

° ° °

١ ـ مسألة القول :

ولنتناول هنا مسألة « القول » : إن نظرية الآخرة تقول بأن الإنسان مسئول عن (أقواله) ، فجميع ما نلفظه من كلام ، حسناً كان أو قبيحاً ، حمداً أو سخطاً ؛ وسواء استعملنا اللسان في إبلاغ رسالة الحق ، أو استعملناه في إبلاغ رسالة الشيطان ، كل ذلك يحفظ في سجل كامل : « ما يَلْفِظُ مِنْ قولٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقيبٌ عَتِيد »[2] . وهذا السجل سوف يعرض أمام محكمة الآخرة ، ليتم حساب الإنسان .

وإمكان وقوع هذا لا ينافي العلم الحديث . فنحن نعرف قطعاً أن أحداً عندما يحرّك لسانه ليتكلم ، يحرّك بالتالي موجات في الهواء ، كالتي توجد في الماء الساكن عندما نرمي فيه بقطعة من الحجر .. إنك لو وضعت جرساً كهربائياً في زجاج محكم الإغلاق من كل جانب ، ثم تضغط عليه ، فلن تسمع صوته ، رغم أن الجرس على مرأىً منك .. لأنه لا يرسل الموجات إلى الخارج ، فهو مكتوم داخل الزجاج . وهذه الموجات في الظروف العادية تصطدم بطبلة الأذن ، التي تقوم آلياً بإرسال هذه الموجات إلى العقل ، فما نفهمه من المعنى ، يسمى « سماعاً » !

ولقد ثبت قطعياً أن هذه الموجات تبقى كما هي في « الأثير » ، إلى

---

(١) ق : ١٦ .
(٢) ق : ١٨ .

الأبد، بعد حدوثها للمرة الأولى، ومن الممكن سماعها مرة أخرى. ولكن علمنا الحديث عاجز حتى الآن عن إعادة هذه الأصوات ، أو بعبارة أصح : عن أن يضبط هذه الموجات مرة أخرى ، مع أنها لا تزال تتحرك في الفضاء من زمن بعيد . ولم يبد العلماء اهتماماً خاصاً بهذا المجال حتى الآن ، بعد أن سلموا — نظرياً — بإمكان إيجاد آلة لالتقاط أصوات الزمن الغابر ، كما يلتقط المذياع الأصوات التي تذيعها محطات الإرسال . على أن المسألة الكبرى التي نواجهها في هذا الصدد ، ليست هي التقاط الأصوات القديمة ، وإنما التمييز بين الأصوات الكثيرة — الهائلة الكثرة — حتى نتمكن من سماع كل صوت على حدة .. وهذه هي مسألة الإذاعة ، التي وصلنا فيها إلى حل ؛ فإن آلاف المحطات الإذاعية في العالم تذيع برامج كثيرة ليل نهار ، وتمر موجات هذه البرامج في الفضاء، بسرعة ١٨٦,٠٠٠ ميلاً في الثانية وكان من المعقول جداً عندما نفتح المذياع أن نسمع خليطاً هائلاً من الأصوات لا نفهم منه شيئاً ، ولكن هذا لا يحدث ، لأن جميع محطات الإذاعة ترسل برامجها على موجات يختلف طولها ، فمنها ما يرسل برامجه على موجات طويلة ؛ ومنها ما يرسل على موجات قصيرة، ومتوسطة . وهكذا تمر هذه البرامج في الفضاء بموجات مختلفة طولاً ، فتستطيع أن تسمع أية موجة من المذياع ، بمجرد أن تدير عقربه إلى المكان المطلوب .

إن علماءنا لم ينجحوا في اختراع آلة تفرق بين أصوات الزمن القديم ، ولولا ذلك لكنا قد سمعنا تاريخ كل عصر وزمان بأصواته . وبناء على هذا يثبت إمكان سماع الأصوات القديمة في المستقبل ، فيما لو نجحنا في اختراع الآلة المطلوبة ؛ ومن ثم لا تبقى نظرية الآخرة بعيدة عن القياس ، وهي القائلة بأن كل ما ينطق به الإنسان يُسجل ، وهو محاسب عليه يوم الحساب .

وربما كان قياساً مع الفارق الكبير أن نذكر هنا ما حدث عندما كان الدكتور مصدق رئيس وزراء إيران الأسبق ، مسجوناً أثناء محاكمته عام ١٩٥٣ ، فقد ركبت في غرفته آلة للتسجيل تتحرك آلياً ، وسجلت هذه الآلة كل

ما نطق به الدكتور مصدق في غرفته ، وقد عرضوا أشرطة التسجيل أمام المحكمة ، شهادة عليه.. وهو نموذج لما يمكن أن يحدث في الآخرة .

إن مناقشتنا لجوانب المسألة لا تنفى وجود ملائكة الله — أو بلفظ آخر — وجود « مسجلين » غير مرئيين . ينقشون على صفحة الفضاء كل ما ننطق به من كلام ، وهو ما يصدق قول الله سبحانه : « ما يَلْفِظُ مِنْ قولٍ إلا لَدَيْهِ رقيبٌ عَتِيد » .

° ° °

٢ — مسألة العمل :

ولننظر الآن في مسألة (العمل) : ومعلوماتنا في هذا الصدَّد تصدّق بصورة مدهشة إمكان حدوث الآخرة .

فالعلم الحديث يؤكد إيمانه بأن جميع أعمالنا — سواء أباشرناها في الضوء ، أم في الظلام ، فرادى ، أم مع الناس — كل هذه الأعمال موجودة في الفضاء في حالة الصور ، ومن الممكن في أية لحظة تجميع هذه الصور ، حتى نعرف كل ما جاء به إنسان ما ، من أعمال الخير والشر طيلة حياته ؛ فقد أثبتت البحوث العلمية أن كل شيء — حدث في الظلام أو في النور ، جامد كان أو متحركاً — تصدر عنه « حرارة » بصفة دائمة . في كل مكان ، وفي كل حال ، وهذه الحرارة تعكس الأشكال وأبعادها تماماً ، كالأصوات التي تكون عكساً كاملاً للموجات التي يحركها اللسان . وقد تم اختراع آلات دقيقة لتصوير الموجات الحرارية التي تخرج عن أي كائن ، وبالتالي تعطى هذه الآلة صورة فوتوغرافية كاملة للكائن حينما خرجت منه الموجات الحرارية (Heat Waves) . ومثاله أنني أكتب الآن في مكتبي ، وسوف أغادرها بعد ساعة ، ولكن الموجات الحرارية التي خرجت من جسدي أثناء وجودي ههنا ، ستبقى دائماً ، ويمكن الحصول على تسجيل كامل لجلستي في المكتبة في أي وقت بوساطة تلك الآلة ، غير أن الآلات التي تم

اختراعها إلى الآن، لا تستطيع تصوير الموجات الحرارية إلا خلال ساعات قليلة من وقوع الحادث. أما الموجات القديمة، فلا تستطيع هذه الآلـة تصويرها، لضعفها.

وتستعمل في هذه الآلة (أشعة إنفرارد) التي تصور في الظلام والضوء، على حد سواء. ولقد بدأ العلماء في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية استغلال هذه الآلة في تحقيقاتهم، وذات ليلة حلقت طائرة مجهولة في سماء نيويورك، فصوروا الموجات الحرارية لفضاء نيويورك بهذه الآلة، وأدى ذلك إلى معرفة طراز الطائرة ونوعها[1] .. ولقد أطلق على هذه الآلة اسم: «آلة تصوير الحرارة» Evaporagraph. ونشرت جريدة هندوستان تايمس الهندية تعليقاً بمناسبة هذا الاختراع، تقول: «إننا بفضل هذه الآلـة سوف نستطيع أن نشاهد تاريخنا على شاشة السينما في المستقبل، ومن الممكن أن تنتهي هذه العملية إلى كشوف عجيبة، تغير أفكارنا عن التاريخ من جذورها ..»

وإني أعتبر هذا الاختراع عجيباً كل العجب، فمعناه أن حياة كل منا تصور على مستوى علمي، كما تسجل آلات التصوير الأوتوماتيكية السريعة جميع تحركات الممثلين السينمائيين. إنك لو صفعت فقيراً، أو حملت عبئاً عن أحد الغرباء، أو شغل بالك أمر من الخير أو الشر .. فإن جميع تحركاتك تسجل على شاشة الكون، حيث لا يسعك منعها أو الهرب منها، سواء أكنت في الظلام أم في النور. فحياتك كالقصة التي تصور في الاستديو، ثم تشاهدها على شاشة السينما بعد حقب طويلة من الزمن، وعلى بعد كبير من مكان التسجيل، ولكنك تشعر كأنك موجود في مكان الأحداث. وهكذا شأن كل ما يقترفه الإنسان، وشأن الأحداث الـتي يعيشها، فإن فيلماً كاملاً لتلك الأحداث سوف يوضع بين يدي كل فرد، يوم

---

(١) *Reader's Digest*, November, 1960.

القيامة ، حتى يصرخ الناس قائلين :

« يَا وَيْلَتَنَا ! ! مَا لِهذَا الكتابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرةً ولا كَبِيرَةً إلاّ أحْصَاهَا »[1]؟

• • •

والتفاصيل العلمية التي أوردنا بعضها في الصفحات الماضية يتضح منها جلياً أن أجهزة الكون تقوم بتسجيل كامل لكل أعمال الإنسان ؛ فكل ما يدور في أذهاننا يحفظ إلى الأبد ، وكل ما ننطق به من الكلمات يسجل بدقة فائقة ، فنحن نعيش أمام كاميرات تشتغل دائماً ، ولا تفرق بين الليل والنهار .. وجميع أعمالنا ، القلبية منها واللسانية والعضوية ، كلها تسجل بدقة تامة .. ولا يسعنا – ونحن نشرح هذه الظاهرة العلمية الخطيرة – إلا أن نسلم بأن قضية كل منا سوف تقدم أمام محكمة إلهية .. وبأن هذه المحكمة هي التي قامت بإعداد هذا النظام العظيم ، لتحضير الشهادات التي لا يمكن تزويرها .

ولا يستطيع أي عالم أن يدلي بتفسير أدق عن هذه الظاهرة سوى ما قلناه .. فلو لم تستطع هذه الوقائع الصريحة الساخنة أن تجعل البشر يحسون بمسئوليتهم إزاء المحكمة الجبارة التي ستقام يوم الحساب ، فلا أدري ما الواقع الذي قد يجعل هؤلاء يفتحون أعينهم ؟ !

• • •

---

(١) الكهف : ٥٠ .

ثالثاً : الحاجة إلى الآخرة

لقد بحثنا في الصفحات الماضية فيما إذا كان حدوث شيء من مثل الآخرة ، التي يدعيها الدين ، « ممكناً » ؟ ولقد ثبت ما علمنا أن الآخرة ممكنة الحدوث .. والمسألة التي نقف أمامها الآن هي : البحث فيما إذا كان هذا العالم في حاجة — فعلاً — إلى شيء من قبيل الآخرة ؟ وهل يقتضي الكون — في هيكله الحالي — وقوعها ؟ ؟

° ° °

١ — الجانب النفسي

لنتناول أولاً (الجانب النفسي) من المسألة .

يقول البروفيسور (كنجهام) في كتابه : Plato's Apalogy : « إن عقيدة الحياة بعد الموت « لا أدرية مفرحـــة Cheerful Agnosticism » .

ومن الممكن اعتبار هذا القول خلاصة أفكار فلاسفتنا الملحدين المعاصرين؛ فهم يرون أن عقيدة الآخرة اخترعتها عقلية الإنسان الباحثة عن عالم حر ، مستقل عن حدود هذا العالم، وعن مشكلاته ، مليء بالأفراح . وإنما يدفعه إلى الإيمان بهذه العقيدة أملُه في الحصول على حياته المفضلة، التي لا جهد فيها ولا كدح .. وأن هذه العقيدة تنتهي بالإنسان إلى عالم مثالي وخيالي ، حيث يحلم بأنه سوف يظفر به بعد الموت . ولكن الحقيقة — كما يراها الفلاسفة —

أن لا وجود لشيء كهذا العالم الثاني ، في الأمر الواقع !

وفي رأيي : أن هذا المطلب الإنساني – في حد ذاته – « دليل نفسي » قوي على وجود عالم آخر ، كالظمــأ ، فهو يدل على الماء ، وعلى علاقة خاصة باطنة بين الماء وبين الإنسان . وهكذا فإن تطلع الإنسان – نفسياً – إلى عالم آخر دليل في ذاته على أن شيئاً مثل ذلك موجود في الحقيقــة ، أو أنه – على الأقل – خليق أن يوجد . وهذا المطلب النفسي يؤكد علاقة مصيرنا بهذه الحقيقة ، ويدلنا التاريخ على وجود هذه الغريزة الإنسانية منذ أقدم العصور على مستوى إنساني ، وهو أمر لا أستطيع فهمه : كيف يمكن أن يؤثر أمر باطل على البشر في هذا الشكل الأبدي ، وعلى مستوى إنساني ؟ وهذا الواقع نفسه يدلنا على قرينة قوية بإمكان وجود العالم الآخر . وإنكار هذه الحاجة النفسية ، بدون أدلة ، يعتبر جهلاً وتعصباً .

إن الذين ينكرون حاجة نفسية عظيمة مثل هذه ، زاعمين أنها باطلة ، هم من أعجز الناس حقاً عن تفهم أي « واقع » على سطح الأرض ، بعد هذا .. ولو كانوا يزعمون الفهم ، في الواقع ، فلا أدري بأي دليل ؟ .. وعن أي برهان ؟

ولو كانت هذه الأفكار نتاج المجتمع ، كما يزعمون ، فكيف لا تزال تطابق التفكير الإنساني ، بهذه الصورة المدهشة ، من أقدم العصور ؟ هل تجدون مثالاً لأية أفكار إنسانية أخرى ظلت باقية إلى العصر ، الحاضر ، وبهذا التسلسل الرائع منذ ألوف السنين ؟ هل يستطيع أذكى أذكيائكم أن يخترع فكراً واهياً ، ثم يدخله إلى النفس الإنسانية ، وكأنه موجود بها منذ الأزل ؟

إن لكل إنسان أماني كثيرة لا تكلل بالنجاح في حياته ، إنه يتمنى حياة أبدية ، ولكن الحياة التي أعطيت له تخضع لقانون الموت . والعجيب أن الإنسان عندما يكون على أبواب حياة ناجحة عظيمة ، بعدما كسب من العلم والمعرفة ، والخبرة والتجارب الثمينة ، حينئذ تداهمه دعوة الموت ..

ولقد أكدت إحصائية عن تجار لندن الناجحين أن أمرهم يستقر فيما بين ٤٥ ــ ٦٥ سنة من أعمارهم ، ثم يبدأون يربحون ما بين خمسة آلاف إلى عشرة آلاف جنيه في السنة ، وفي ذلك الوقت الثمين ــ فجأة ــ تتوقف حركات قلوبهم ذات مساء ، أو ذات صباح ، فيرحلون إلى عالم مجهول ، تاركين تجارتهم الممتدة إلى ما وراء البحار ..

يقول الأستاذ وينوود ريد (Winwood Reade) :

« إنه لأمر هام يدعونا إلى التفكير فيما إذا كانت لنا علاقة شخصية مع الإله ؟ هل هناك عالَم غير عالمنا هذا ؟ وهل سوف نلقى جزاء أعمالنا في ذلك العالم ؟ إن هذا السؤال ليس بعقيدة فلسفية عظيمة فحسب ، وإنما هو في نفس الوقت أعظم أسئلتنا العملية أيضاً . إنه سؤال تتعلق به مصالحنا الكثيرة ؛ فحياتنا الراهنة قصيرة جداً ، أفراحها عادية موقوتة ، إذ أننا عندما نظفر بما نحلم به ، يفاجئنا الموت ، ولو استطعنا الاهتداء إلى طريق خاصة تجعل أفراحنا دائمة وأبدية ، فلن يرفض العمل به أحد غير البله والمجانين منا[1] » .

ولكن الكاتب نفسه يستطرد فينكر ذلك المطلب النفسي الكبير ، من أجل أمور لا وزن لها ولا قيمة؛ فهو يقول : « إن هذه العقيدة كانت معقولة جداً حين كنا لا نبحث جوانبها بعمق وجد .. ولكن بعد هذا البحث اتضح لنا أنها أمر سخيف ، ويمكن إثبات سخافته بسهولة ، فالفلاح المحروم العقل الجاهل لا يتحمل مسئولية خطاياه ، وسيدخل الجنة ، ولكن العباقرة مثل (جوته) ، و (روسو) ، سوف يحترقون في نار الجحيم؛ فلأن يُخلَق الإنسانُ محرومَ العقل خيرٌ له من أن يكون من أمثال جوته وروسو ! ! إن هذا الكلام تافه وسخيف[2] » .

---

(١) *Martyrdom of Man*, p. 414

(٢) *Ibid.*, 415.

وما أشبه هذا الموقف بالذي اتخذه (اللورد كلوين) تجاه التحقيق العلمي الذي قام به (ماكسويل) ؛ فقد زعم اللورد أنه لا يستطيع أن يفهم نظرية ما إلا بعد وضع نموذجها الميكانيكي ، وبناءً على هذا الفرض أنكر نظرية ماكسويل عن البرق والمغناطيس ، لأنها لم تحل في أحـد نماذج اللورد المادية ! إن مثل هذه المواقف والادعاءات الخرافية أصبحت غريبة في عالم الطبيعة الحديثة . ويتساءل العالم الكبير (سوليفان) :

« كيف يروق لأحد أن يدعى أن الطبيعة لا بد أن تكون كما يضعها مهندس القرن التاسع عشر في معمله[1] ؟ » .

وسوف أوجه هذا الكلام إلى الأستاذ (وينورد) :

« كيف يجوز لفيلسوف القرن العشرين أن يرى : أن يكون الكون الخارجي ، في حقيقة الأمر مطابقاً لما يزعمه هو ؟ »

إن كاتبنا لم يستطع أن يفهم أمراً في غاية البساطة : هو أن الحقيقة لا تحتاج إلى الواقع الخارجي ، وإنما الواقع الخارجي هو الذي يكون في حاجة إلى « الحقيقة » .. فالحقيقة أن لهذا الكون إلهاً ، وسوف نمثُل أمامه يوم الحساب . فلا بد لكل منا — سواء أكان روسو أم كان مواطناً عادياً — أن يكون وفياً ومطيعاً لإلهه ؛ فنجاتنا لن يحققها جحودنا ، بل هي تكمن في إيماننا وطاعتنا .. والغريب أن كاتبنا لم يرق له أن يطالب (جوتـه) و (روسو) أن يسلكا مسلك الحق ، وإنما طالب الحق بالتغير ! ولما لم يطع الحقُّ راح ينكره ! ! وهذا أشبـه بمن ينكر قانون حفظ الأسرار العسكرية ، الذي يكرم أحياناً جندياً بسيطاً ، ويعدم عالماً ممتازاً ، مثل « روزنبيرج وعقيلته الحسناء » بالكرسي الكهربائي ! !

إنه لا يوجد على سطح الأرض من يفكر في (الغد) غير الإنسان .

---

(١) J.W.N. Sullivan, *The Limitations of Science*, p. 9.

فهو يتميز عن سائر الحيوانات بدوام تفكيره في المستقبل ، وجهاده المتواصل ، وسعيه الدائب في سبيل تحسين أحواله . ولا شك أننا قد نجد بعض الحيوانات تعمل لمستقبلها ؛ كالنمل الذي يدخر غذاءه للشتاء القادم ؛ والطيور التي تصنع أعشاشاً يسكنها أولادها بعد فقسهم ، ولكن هذا العمل لدى الحيوانات يعتبر « غرزياً » ، فهو صادر عن غير شعور بالمسئولية ؛ إنها لا تقوم بهذه الأعمال لقلقها من مشكلات الغد ، وإنما تأتي بها طبيعياً ، ومن ثم تنتفع بها في المستقبل ، فالتفكير في المستقبل يتطلب فكراً مدركاً واعياً ، وهو من ميزات الإنسان فحسب . ولا يتمتع به شيء من الحيوانات غيره .

هذا الفرق الكبير بين الإنسان والحيوان يؤكد أنه لا بد أن تكون للإنسان مواقع أكثر بالنسبة إلى أي نوع آخر للانتفاع بها ؛ فحياة الحيوانات هي ما تسمى « حياة اليوم » ؛ ففكرة الغد لا توجد عندها ، ولكن مطالعة حياة الإنسان تقتضي « غداً » ، ولو أنكرنا هذه الحاجة لخالفنا الطبيعة .

ويعتقد بعض العلماء والفلاسفة أن خيبة آمال الإنسان في حياته الراهنة هي التي تجعله يفكر في حياة أفضل ، وهم يرون أن هذا الفكر سوف يتلاشى لو أتيح للإنسان مجتمع رفاهي كامل . فقد اعتنق عدد كبير من أسرى الروم المسيحية لأنها وعدتهم بأفراح السماء .. ولـــذا تتوقع هذه الطائفـــة من العلماء والفلاسفة أن سعادة الإنسان ورفاهية المجتمع سوف تزداد أكثر فأكثر ، إلى أن تقضي نهائياً على نظرية « العالم الآخر » .

ولكن تاريخ الأربعمائة سنة الأخيرة – التي ازدهرت فيها العلوم والتكنولوجيا – يكذب هذا التوقع ؛ فإن أول ما هيأ التقدم التكنولوجي للإنسان أنه أتاح له وسائل عديدة . احتكرتها أيد محدودة ، قامت بدورها باستغلالها ، وقضت على صغار العمال والحرفيين . وحولت تيار الثروات إلى كنوزها ، وخزائنها ، وجعلت من الشعب عمالاً فقراء معوزين ، ويمكن مطالعة هذه المناظر القبيحة ، التي جاءت نتيجة للتقدم التكنولوجي ، في كتاب كارل ماركس « رأس المال » . الذي يعتبر ضجيجاً للطبقة العمالية ،

التي عاشت القرنين الثامن والتاسع بعد الألف ، ثم بدأت ردود فعل هذا الضجيج ، وتبعه كفاح طويل ، قامت به المنظمات العمالية ، حتى تحسنت الأحوال إلى حد ما . ولكنني أرى أن التغير الذي طرأ على أحوال العمال ليس إلا ظاهرياً ، فعامل اليوم يتقاضى أكثر مما كان يتقاضاه بالأمس ، أما السعادة الحقة ، فإنه أكثر انتقاداً لها من سلفه .. ذلك أن النظام التكنولوجي لم يعط الإنسان أكثر من مظاهر مادية . فهو لا يملك القيم الروحية ، حتى يمنح لأتباعه السعادة والطمانينة القلبية ، وما أصدق ما قاله الشاعر (Blake) عن إنسان الحضارة الحديثة :

A mark in every face I meet.
Marks of weakness, marks of woe.

« كلُّ وجهٍ تُرى عليه سماتٌ
فيه ضعفٌ . وفيه ذلٌّ وحقد »

لقد اعترف « برتراند راسل » قائلاً : « إن حيوانات عالمنا يغمرها السرور والفرح ، على حين كان الناس أجدر من الحيوان بهذه السعادة ، ولكنهم محرومون من نعمتها في عالمنا الحديث[1] . » واليوم ، كما يقول راسل ، أصبح من المستحيل الحصول على هذه النعمة : السعادة[2] ! !

إنك عندما تزور نيويورك ، تشاهد أبنيتها الضخمة مثل عمارة « إمباير ستيت » ، التي تتكون من ١٠٢ طابقاً ، وهي عالية جداً ، حتى إن درجة الحرارة في أدوارها العليا تكون منخفضة جداً بالنسبة إلى أدوارها السفلى ، وعندما تخرج منها وتراها من الشارع فلن تصدق أنك كنت فوق هذا العملاق ، الذي يرتفع ١٢٥٠ قدماً فوق سطح الأرض ، ولا يستغرق المصعد الكهربائي للصعود من أسفلها إلى أعلاها أكثر من ثلاث دقائق ! ! وبعد مشاهدة

---

(١) *Conquest of Happiness*, p. 11.
(٢) *Ibid.*, p. 93.

هذه العمارات والمظاهر تذهب إلى للنوادي وتشاهد الرجال والنساء يرقصون ملتصقين.. وتفكر : « ما أسعد هؤلاء الناس ! »، ثم تأوي إلى مقعد تشاهد الرقص المثير ، ولن تقضي وقتاً طويلاً حتى تأتيك حسناء من هؤلاء القوم ، وتجلس على المقعد المواجه لمقعدك ، إنها تبدو كئيبة ، فتسألك دون مقدمات :

– أيها السائح ، هل أنا قبيحة المنظر ؟

– إنني لا أرى ذلك ..

– ولكنني أفهم أنني فقدت « روعة الجمال » . أليس كذلك ؟

– لا .. في رأيي أنك تملكين الكثير من الفتنة وروعة الجمال .

– شكراً أيها السائح الكريم ! ولكن الشبان لا يبالون بي ، ولا يواعدونني . لقد أصبحت الحياة بالنسبة إليّ مملة موحشة ...

إن ما رأيته في نيويورك لم يكن إلا منظراً مقتضباً من مسرحية الإنسان في العصر الحديث .

لقد أقامت العلوم والتكنولوجيا أبنية شامخة ، ولكنها نزعت السعادة من قلوب ساكنيها ، إنها أقامت مصانع تتحرك بآلات هائلة ، ولكنها حرمت عمالها الراحة التي يطمحون إليها ، وهذه هي نتيجة التاريخ العلمي والتكنولوجي . فكيف بنا إذن نطمح ونتوقع عالماً يسوده السلام والسعادة، من « صنع التكنولوجيا » ؟ !

* * *

٢ ــ الضرورة الأخلاقية

وعندما ندرس المسألة من الوجهة الأخلاقية نرى أنه لا بد من «الآخرة» ، فإن التاريخ الإنساني لن يكون له أي معنى بدونها .

إن فطرة الإنسان تميز بين الخير والشر ، والصالح والطالح ، والظلم والعدل ، وهذه الفطرة هي التي تميز الإنسان عما سواه ، ولكن ها هو ذا الإنسان الذي كرمه ربه ، يهدر فطرة الله أكثر ممن لا يتمتعون بها ؛ إنه يظلم بني جنسه ؛ يقتلهم ويشردهم ، ويوجه إليهم كل شر مستطاع ..

إن الحيوانات لا تظلم فصائلها ، فالأسد ليس في الأسود أسداً ، والنمر ليس في العرين نمراً .. ولكن الإنسان أصبح يفترس إخوانه ، حتى الأقربين منهم ، مما لا يوجد له مثيل في قانون الغابة ..

ولا مرية أننا وجدنا أضواء الحق والعدالة في التاريخ الإنساني ، وأننا نقدرها حق قدرها ، ولكن الجزء الأكبر من التاريخ يفيض بقصص الظلم والفساد والعدوان . إن المؤرخ ليصاب بيأس بالغ عندما يرى أن أحداث التاريخ تتعارض تماماً مع الضمير الإنساني .

ولنقتبس هنا بعض الأقوال :

فولتير : « إن التاريخ الإنساني ليس إلا صورة للجرائم والمصائب[1] » .

---

(١) *Story of Philosophy*, Will Durant, p. 22

هربرت سبنسر : « إن التاريخ تهريج، وكلام فارغ لا جدوى منه » .

نابليون : « إن التاريخ بأكمله عنوان لقصة لا تعني شيئاً » .

إدوارد جين : « إن تاريخ الإنسان لا يعدو أن يكون سجلاً للجرائم ، والحماقة ، وخيبة الأمل » .

هيكل : « إن الدرس الوحيد الذي تعلمته الحكومة والشعب من مطالعة التاريخ هو أنهم لم يتعلموا من التاريخ شيئاً »(٢) .

هل قامت مسرحية العالم كلها لتنتهي إلى كارثة أليمة ؟ إن فطرتنا تقول : لا .. فدواعي العدالة والإنصاف في الضمير الإنساني تقتضي عدم حدوث هذا الإمكان ، لا بد من يوم يميز بين الحق والباطل ، ولا بد للظالم والمظلوم أن يجنيا ثمارهما ، وهذا مطلب لا يمكن إقصاؤه من مقومات التاريخ ، كما لا يمكن إبعاده عن فطرة الإنسان .

إن هذا الفراغ الشاسع الذي يفصل ما بين الواقع والفطرة يقتضي ما يشغله ؛ فإن المسافة الهائلة بين (ما يحدث) و (ما ينبغي أن يحدث) تدل على أن مسرحاً آخر قد أعد للحياة ، وأنه لا بد من ظهوره . فهـــذا الفراغ العظيم يدعو إلى تكميل الحياة . وإني لأتحير عندما يؤمن الناس بفلسفة الروائي الإنجليزي « هاردى » القائلة: بأن العالم مكان للظلم والوحشية ، ولكنني أصاب بحيرة أكبر عندما أرى أن هذه الحالة البالغة السوء لا تقودهم إلى الإيمان بأن: ما ليس بموجود اليوم، ويقتضيه العقل، لا بد من حدوثه غداً .

« إذا لم تكن هنالك قيامة فمن ذا الذي سوف يكسر رؤوس هؤلاء الطواغيت الطغاة ؟ » — كلمة كثيراً ما تخرج من شفتيّ مصحوبة بأنين مرير ، عندما أطالع الجرائد ؛ فجرائدنا صورة مصغرة لما يحدث كل يوم على الأرض ، والصورة التي تحملها الجرائد إلينا رهيبة .. إنها تتكلم عن

---

(١) *Western Civilisation*, E. Mcnall Burns, p. 871.

الاغتيالات ، والخطف ، والنهب ، والاتهامات الكاذبة ، والتجارة السياسية ، والدعايات الباطلة التي تتلعّب بالألفاظ . إن هذه الجرائد تخبرنا كيف نكّل الحاكم الفلاني بمعارضيه الضعفاء . باسم مصالح الأمة ، ودواعي الأمن القومي ؟ ! وكيف سيطر ذلك الشعب على أرض لم يملكها طيلة التاريخ ، بقوة السلاح ! ! وليست هذه الجرائد إلا حكايات لمأساة الضعيف والقوي ، والسلطان والرعاع ! !

إن الأحداث التي وقعت في بلادي أخيراً ، وبخاصة تلك الاغتيالات الجماعية ، وعمليات النهب والحرق المخططة التي جرت في مناطق جبل پور ، وجمشيد پور ، وراوركيلا ، وكلكتا – يبدو بعدها أن المرء لا ينبغي أن يستبعد وقوع أية جريمة على هذه الأرض ، سواء أمكنه تصورها أم لا ! ! فإن قوماً يرفعون شعارات (العلمانية) و (الجمهورية) و (اللاعنف) يستطيعون – في نفس الوقت – أن يرتكبوا أبشع أنواع الطائفية ، وأشنع ألوان الدكتاتورية ، وأسوأ صور العنف ، كما لم يشهده التاريخ . وكل هذه الجرائم البشعة – التي تأسى لحدوثها السباع المفترسة ، والذئاب الكاسرة ، والخنازير الوحشية – قد جرت في عهد زعيم أطلق عليه لقب : « معلم الإنسانية ورسول السلام[1] » ! ! وليت المأساة توقفت عند هذا الحد ، فلقد ارتكبت ، في هذا العصر الذي ازدهر فيه النشر والإذاعة ، جرائم شنيعة ، وأحداث مروّعة ، من نهب ، وقتل ، وإحراق أقوام بأسرهم ؛ ودامت المأساة أشهراً طويلة ، بل سنين عديدة ، في بلاد شاسعة جداً من الهند ، والصحافة العالمية لا تنشر عنها شيئاً ما ، وقد امّحت تماماً هذه الجرائم من صفحات التاريخ ، كأن لم تكن مأساة الأمس القريب ! !

هل خلق هذا العالم ليكون مسرحاً للمآسي ، والشيطنة ، والهمجية والقرصنة ، ثم لا يلقى الظالم والمظلوم جزاءهما ؟ ! إن عالماً – من هذا القبيل – إعلان في حد ذاته عن أنه ناقص ، وهذا النقص في ذاته يقتضي ما يكمله .

---

(١) الإشارة إلى جواهر لال نهرو ، وقد جرت الأحداث البشعة التي أشار إليها المؤلف خلال الأعوام ١٩٦١ ، ٦٢ و ٦٤ ، ولم ينشر عنها شيء بفعل التآمر العالمي . (المراجع)

٣ ـــ مشكلة السلوك

ولندرس هذا من ناحية أخرى . لقد شغلت مسألة هامة الذهن الإنساني من أقدم العصور ، وهي كيفية إجبار الناس على سلوك طريق الحق ؛ فإذا افترضنا أن بعض أفراد المجتمع قد منحوا سلطة سياسية من أجل تحقيق هذا الهدف ، فمن الممكن أن يمتنع الرعايا خوفاً من العذاب . ولكن ما الذي يدفع أولئك الذين يتمتعون بالسلطة السياسية إلى تحقيق العدل والإنصاف؟ ولو أننا استنجدنا القانون،واستصرخنا المحكمة ، فكيف إذن يمكن أن نبلغ بهما تلك الأماكن والجوانب التي لا تخضع للشرطة والقانون؟ ولو أننا حضنا معارك الدعاية،وناشدنا أهل الشر أن يكفوا عن الجرائم ، فمن ذا الذي ينصت إلينا ؟ ويتخلى عن فائدة يجنيها دون كلفة ؟ إن رهبة عقاب الدنيا لن تنجح في قمع انحرافات الإنسان؛ فنحن جميعاً نعرف أن الكذب ،والرشوة ، والمحسوبية،واستغلال النفوذ ، وما إلى ذلك من الوسائل المعروفة،سوف تحول دون أي إمكان للعقاب .

إنه لن يفلح شيء في قمع الجرائم غير الدافع المنبعث من داخل قلب الإنسان ـــ الضمير ، الضمير الذي لو دخل إرادة الإنسان فلن يسقطه عامل خارجي أياً كان ، وهذه الميزة غير متاحة إلا في عقيدة الآخرة .. فإن دافعاً قوياً يكمن في هذه العقيدة ، ويجعل من اتقاء الجرائم مصلحة ذاتية لكل إنسان . إنها مصلحة يهتم بهـــا الجميع ، فالكل رئيساً كان أم مرءوساً ، في الظلام

كان أو في الضوء ـ ينطلق يفكر في أنه لا بد من يوم للقاء الله ، والكل يشعر بأن الله يراه ، وسوف يحاسبه حساباً عسيراً . وهذه الأهمية الكبرى في عقيدة الآخرة هي التي جعلت القاضي ماتيو هالوس (Mathew Halos) ، وهو من كبار قضاة القرن السابع عشر ، يقول :

« إن القول بأن الدين خدعة . هو بمثابة إبطال لجميع المسئوليات التي تقع على عاتقنا لاستقرار النظام الاجتماعي[1] » .

ألا ما أهم هذا الجانب من نظرية الآخرة ! !

وإنا لنستطيع أن ندرك أبعاد هذه النظرية لو تأملنا أن كثيراً من علمائنا الملحدين ، الذين لا يعتقدون أن الآخرة أمر واقع ، قد اضطروا ـ بناء على تجارب التاريخ ـ إلى القول بأنه لا يوجد شيء غير « الآخرة » لمراقبة الإنسان ، وإخضاعه لسلوك طريق الحق والعدل في جميع الظروف .

لقد أنكر الفيلسوف الألماني « كانت » فكرة (الإله) ، قائلاً : (إنه لا يجد أدلة شافية على وجوده) . فهو ينكر « الصواب النظري » في الدين ، ولكنه ، في نفس الوقت ، يضطر إلى أن يسلّم « بالصواب العملي » في الدين ، من الناحية الأخلاقية[2] .

و « فولتير » أيضاً لا يؤمن بحقائق ما وراء الطبيعة . ولكنه يرى :

« أن أهمية الإله والحياة الآخرة عظيمة جداً ، حيث إنهما أساسان لإقامة « المبادىء الأخلاقية » .. وهو (فولتير) يرى أن هذه العقيدة وحدها كفيلة بإيجاد إطار أخلاقي أفضل للمجتمع . ولو أن هذه العقيدة زالت فلن نجد دافعاً للعمل الطيب ، وسيترتب على ذلك انهيار النظام الاجتماعي[3] » .

---

(١) *Religion without Revelation*, p. 115

(٢) *Story of Philosophy*, New York, 1954, p. 279

(٣) Windelband, *History of Philosophy*, p. 496

إن الذين يرون أن « الآخرة » فكرة خيالية ينبغي أن يفكروا : كيف أصبحت فكرةٌ خيالية ذاتَ أهمية قصوى بالنسبة إلى واقع حياتنا ؟

لماذا لا نستطيع بدونها إقامة نظام اجتماعي سليم ؟

ولماذا تنهار قيم حياتنا عندما نتخلى عن هذه الفكرة ؟

هل يمكن أن تحتل فكرة خيالية هذه الأهمية الكبرى في الحياة ؟

هل وجدتم مثالاً ما في الكون لفكرة خيالية غير كائنة، أصبحت تتمتع بهذه الأهمية الحقيقية في الحياة ، رغم أنها لا علاقة بها بواقعنا ؟ !

إن حاجتنا الملحة إلى الآخرة لتنظيم الحياة، وإقامتها على أسس عادلة حقيقية، هي — في حد ذاتها — تأكيد بأن الآخرة من كبريات حقائق الكون ، ولست أبالغ إذا قلت : إن هذا الجانب المنطقي من الاستدلال يثبت حقية هذه النظرية ، على مستوى التحقيق المعملي العلمي ..

• • •

٤ ــ الضرورة الكونية

ولننظر إلى هذه القضية من جهة ثالثة ، تلك التي أسميها : « الضرورة الكونية » . لقد تكلمت في الصفحات الماضية عن وجود الإله في الكون ؛ وقد ثبت جلياً أن الدراسة العلمية والفكرية هي التي تدعونا إلى القول بوجود إله لهذا الكون . وبقي أن نسأل : لو كانت هناك علاقة بين الإله والإنسان لما كان بد من ظهورها ، فمتى سنظهر هذه العلاقة جلياً ؟

أما بالنسبة إلى عالم اليوم ، فمن الممكن الجزم بأن هذه العلاقة لم تظهر بعد ؛ فالرجل الذي لا يؤمن بالإله ، يصيح قائلاً : « إنني لا أخاف من الله » ، ثم هو لا يصاب بأذى ، بل قد يحصل على الزعامة ، ويتسلم مقاليد الحكم ! !

أما الذين يبلغون رسالات الله ، فإن السلطات توقف نشاطهم بحجة أنه « غير شرعي » . وهنالك أيضاً مكاتب ومؤسسات تشغلها — ليل نهار — الدعايةُ لأولئك الذين يقولون : « لقد ذهب صاروخنا إلى القمر ولم يتشرف بلقاء إلهكم ! » ، وجميع أجهزة الدعاية الرسمية تدعم هذه المؤسسات ، فإذا ما نهض أصحاب الدعوات برسالتهم ردهم علماء العصر قائلين : إنكم رجعيون تتخبطون في الظلمات !

يولد الأطفال ، ثم يشبون ، ويموتون .

تصل الشعوب إلى أوج مجدها ، ثم تنقرض .

تقع الثورات ، ثم تزول .

تشرق الشمس وتغرب ، ولكن لا تظهر آيات وجود الله .

وفي هذه الحالة تطالبنا عقولنا وقلوبنا بالإيمان بوجود الله ، أو إنكار هذا الوجود . فلو آثرنا الإيمان بالله . فلا مناص لنا من الإيمان بالآخرة . فليست هناك طريق أخرى لتبيين علاقة الإنسان بالإله .

لقد سلم (داروين) بأن لهذا الكون « خالقاً » ، ولكن « تفسير الحياة » الذي قدمه لا يتضمن أدنى ربط بين الخالق ومخلوقه ، كما أنه لا يحس بالحاجة إلى « نهاية » لهذا الكون ، حاجة تدفعه إلى تقرير هذا الربط ،ولست أدري كيف سيملأ (داروين) هذا الفراغ الكبير في نظريته البيولوجية ؟ إن عقلي يستنكر إلهاً لا علاقة له بأمور الكون ، ولا يشهده عباده في مظهر الخالق أبداً . وما أعجب « خالق داروين » — هذا الذي يأتي بكون عملاق هكذا ، ثم ينهيه ، دون إبداء الأسباب التي دفعته إلى هذا الخلق ، ودون تعريف مخلوقيه بصفاته العديدة ! !

إننا لو أعطينا هذه المسألة الخطيرة شيئاً من تفكيرنا ، فسوف نجد قلوبنا تصرخ : « إن السَّاعَةَ آتيةٌ لا رَيْبَ فيهَا .. »[1]

بل إننا لو تأملنا فسنراها مسرعة إلينا ، سوف نراها ثقيلة ، وشيكة الانفجار ، كأنها الوليد في بطن الحامل . وما أقرب ما تفتك بنا — فجأة — ذات عشية أو ضحاها :

« يَسْئلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أيَّانَ مُرْسهَا . قُلْ إنَّمَا علْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ؛ لاَ يُجلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلاَّ هُو . ثَقُلَتْ في السَّموَاتِ والأرْضِ . لاَ تَأْتيكُمْ إلاَّ بَغْتَةً[2] » .

---

(١) غافر/٥٩

(٢) الأعراف/١٨٧ .

رابعاً ـــ الشهادة التجريبية

نواصل الآن بحثنا في الجانب الآخر من هذا الموضوع: (الآخرة)، وهو: هل هناك شهادة تجريبية تثبت الحياة بعد الموت؟

إن أول دليل على الحياة الثانية هو حياتنا الأولى في حد ذاتها؛ فإن الذين ينكرون الحياة الثانية يقرون، بداهة، الحياة الأولى. والحياة، تلك التي ظهرت مرة واحدة، كيف تعجز عن إعادة نفس العملية مرة أخرى؟ هذه التجربة التي نعيشها نحن اليوم، كيف يستحيل حدوثها ثانية؟؟ إنه لا شيء أكثر عداءً للمنطق والعقل الإنساني من أن نسلّم بوقوع حادث في «الحال»، وننكره في «المستقبل» !!

يا له من تناقض عجيب.. إن الإنسان يدعي أن «الآلهة»، التي اخترعها هو بقدراته الخارقة لتفسير الكون، تستطيع إعادة وقائع الكون مرة أخرى، ولكنه يرفض بعناد تلك النظرية المماثلة التي يتقدم بها الدين، ويعبر «السير جيمس جينز» عن نظرية هؤلاء القوم قائلاً:

«لا غرابة إذا كانت أرضنا قد جاءت صدفةً نتيجة بعض الحوادث. وإذا بقي كوننا على حاله الراهنة لمدة طويلة مماثلة (لمدة حدوثه صدفة)، فلا نستبعد حدوث أي شيء يمكننا قياسه على الأرض[1]».

---

(١) *Modern Scientific Thought*, p. 3

وترى نظرية النشوء والتطور أن جميع أنواع الحيوانات تنحدر من نوع بدائي واحد ، وأنها ارتقت إلى ما هي عليه الآن خلال مراحل تطورية متطاولة . وبناءً على هذا التفسير الذي قام بوضعه « داروين » — صاحب هذه الفكرة — فإن « الزراف » ، الموجود حالياً ، كان في بدء الأمر من عشيرة الحيوانات الصغيرة ذوات الظلف ، ولكن هذا الحيوان ، من خلال العمليات الطويلة التي أعقبتْ التوالد والتناسل ، والتغيرات والفوارق الصغيرة التي طرأت على الجنس الحيواني ، استطاع أن يحصل على هذا الهيكل العظيم غير العادي ، الذي نشهده اليوم ..

يقول « داروين » موضحاً نظريته في الباب التاسع من كتابه :

« ومن الأمور الحتمية عندي أنه — إذا ما أجريت العملية المطلوبة خلال زمن طويل ، فمن الممكن أن نجعل من حيوان ذي ظلف عادي حيواناً مثل الزراف[1] .. »

وهكذا اضطر جميع العلماء ، الذين حاولوا شرح الكون والحياة ، بطريق طبيعية ، إلى أن يسلموا بأنه لو هيئت نفس الأحوال — التي ساعدت في خلق الحياة الأولى — فمن الممكن حدوث الحياة ولوازمها مرة أخرى . إن إمكان حدوث الحياة الأخرى أقوى — نظرياً — من إمكان الحياة الأولى ، الذي قد وقع فعلاً ، وأي شيء نسلّم به أنه خلق الحياة — مهما كان هذا الخالق — فلا بد لنا من الإقرار بصفة بدهية بأن ذلك الخالق يستطيع بالتأكيد إعادة نفس الحوادث التي أنشأها للمرة الأولى ، ولا بد لنا من هذا الاعتراف ، اللهم إلا إذا أنكرنا الحياة الأولى (الموجودة الآن) .. فنحن نفقد جميع الأسس التي قد نبني عليها دعائم إنكارنا للحياة الأخرى ، عندما نسلّم بوجود الحياة الأولى !

* * *

(١) Origin of Species, p. 169

خامساً ـــ البحث النفسي

لقد أثبت البحث النفسي ، الذي ذكرناه آنفاً ، أن جميع أفكار الإنسان ــ أو بعبارة أخرى : جميع خلايا مخه ــ تبقى بصفة دائمة . وهذا الواقع يثبت بصراحة أن عقل الإنسان ليس بجزء من جسمه ، فإن جميع خلايا وأنسجة الجسم تتغير تغيراً كاملاً في بضعة أعوام ، ولكن سجل اللاشعور لا يقبل أي تغير أو مغالطة أو شبهة على رغم مرور مئات السنين . ولو كان هذا السجل الحافظ كائناً في الجسم فــلا أدري أين مكانه منه ؟ وفي أي جزء يكمن على وجه الخصوص ؟ ولو كان في أحد أجزاء هذا الجسم ، فلماذا لا يزول عندما تزول هذه الأجزاء بعد سنوات عديدة ؟ ما أعجب هذا السجل الذي تتحطم جميع لوحاته تلقائياً ، ولكنه لا يفنى ولا يزول ! ؟

إن هذه البحوث الجديدة في علم النفس تؤكد ، بصفة قاطعة ، أن الوجود الإنساني لا تنحصر حقيقته في ذلك الجسم المادي الذي يخضع دوماً لعمليات التحطم والاحتكاك والفناء ، بل هو شيء آخر ، غير هذا كله ، وهو لا يفنى ، بل يبقى مستقلاً ، ولا يزول .

ويعلم من هذا أيضاً أن الحواجز وقوانين الزمن لا وظيفة لها إلا في عالمنا هذا ، ولو كان هناك عالم آخر ، يبدأ عند فناء جسمنا المادي ، فهو يخلو تماماً من هذه الحواجز والقوانين . إن كل ما نباشره من الأعمال والأفعال الشعورية يخرج في نطاق هذه القوانين والحواجز . ولو كانت هناك « حياة

عقلية أخرى » – كما يعتقد فرويد – فمعناه أن هذه الحياة الجارية لن تفنى أبداً ، بل ستستأنف مسيرتها بعد الموت ، وسوف نكون على قيد الحياة ، فإن هذا الموت لم يكن إلا نتيجة من نتائج هذه الحواجز والقوانين الزمنية . أما وجودنا الحقيقي – وهو اللاشعور ، كما يقول فرويد – فهو حر مستقل عن هذه الحواجز والقوانين ، ولا يطرأ عليه الموت ، بل يأتي (الموت) على الجسد العنصري المادي ، ويبقى اللاشعور – وهو الإنسان الحقيقي – كما هو .. ومثاله أن حادثاً وقع قبل ربع قرن ، أو فكراً خطر ببالي قبل عشرين سنة ، وقد نسيت كليهما قاطبة ، ومع ذلك فإني أراهما في أحلامي اليوم . وتفسير ذلك عند علماء النفس هو أنهما كانا محفوظين في «اللاشعور» بأكمل صورهما وجزئياتهما ، كأنما حدثا بالأمس ! !

وقد نتساءل هنا : وأين هذا اللاشعور ؟ فلو كان منقوشاً على الخلايا – كالصوت مسجّلاً على الأسطوانات – فإن تلك الخلايا ، التي سجلت ذلك الحادث قبل ربع قرن ، أو هذه الفكرة قبل عشرين سنة ، قد تحطمت وزالت منذ سنين طويلة ، ولا علاقة لها ، في أي صورة ، بجسدي الموجود الآن . فأين هذا الفكر من جسدي ؟ تلك شهادة تجريبية تثبت – قطعياً – أن هناك عالماً آخر خارج أجسامنا المادية ، مستقلاً بذاته ، ولا يفنى بفناء الجسم ، أو جزء من أجزائه .

• • •

سادساً — البحوث الروحية

أثبتت « البحوث الروحية » Psychical Researches الحياة بعد الموت ، على المستوى التجريبي والعملي . إن الأمر الذي يدفعنا إلى إبداء مزيد من الإعجاب بهذه البحوث هو أنها لا تثبت « بقاءاً محضاً » لروح ما ، بل إنها تثبت أيضاً بقاء الشخصيات التي كنا نعرفها بذاتها ، قبل أن تموت ! !

إن هناك خصائص كثيرة لا يتمتع بها الإنسان من قديم الأزمان ؛ ولكنا لم نلق الضوء عليها إلا حديثاً . ومن هذه الخصائص : « الرؤيا » ، التي تعد من أقدم مميزات الجنس البشري . والحقائق المثيرة التي كشفهاعلماء النفس عن هذه الميزة لم يكن قدماؤنا على علم بها .

وهناك مظاهر أخرى درسناها أخيراً ، وأجرينا بحوثاً وإحصاءات في مختلف أنحاء العالم حولها ، وجاءت البحوث بنتائج غاية في الأهمية .

ومن هذه البحوث ما نسميه « بالبحوث الروحية » .. وهي فرع من علم النفس الحديث ، وهدفها محاولة الكشف عن المميزات الإنسانية غير العادية ، وقد أقيم أول معهد لإجراء هذا النمط من البحوث عام ١٨٨٢ م في إنجلترا . وبدأ علماء هذا العهد عملهم سنة ١٨٨٩ م ، بعد أن قاموا بمسح واسع النطاق على ١٧ ألفاً من المواطنين ، ولا يزال هذا المعهد موجوداً باسم « جمعية البحوث الروحية » . وقد انتشرت الآن معاهد كثيرة في مختلف بلدان العالم . وأثبتت هذه المعاهد ، بعد بحوثها وتجاربها الواسعة

النطاق ، أن الشخصية الإنسانية تواصل بقاءها بعد فناء الجسد المادي ، في صورة غريبة ..

° ° °

كان وكيل متنقل لشركة أمريكية يسجل طلبات عملائه ، جالساً في حجرته في فندق سانت جوزيف ، بولاية ميسوري ، فإذا به يشعر أن أحداً يجلس عن يمينه . ويقول الرجل : « فحولت وجهي بسرعة فوجدت أنها أختي ! » .

وكانت أخته هذه قد ماتت منذ تسع سنين .. وبعد برهة اختفى وجه أخته . وكان الوكيل قد أفزعه هذا الحادث ، لدرجة أنه ، بدلاً من أن يستأنف جولته ، قرر مغادرة (ميسوري) إلى بيته في بلدة (سانت لويس). وفي البيت ذهب يقص على أقربائه الحادث بالتفصيل كما رآه ، وعندما وصل أثناء كلامه إلى هذه الجملة: « وشاهدت على خدها الأيمن جرحاً واضحاً أحمر اللون » .. فإذا بأمه تصرخ وتقوم مرتعدة ، وهي تقول: « إنني أنا السبب في ذلك الجرح الذي رأيته ، وقد حدث ذلك عن غير قصد مني ، وقد ندمت لذلك الحادث وآلمني المنظر ، فأزلت كل آثار الجرح ، ووضعت في مكانه شيئاً من البودرة ! » وأضافت الأم قائلة:

« ومنذ ذلك اليوم لم أفض بهذا السر إلى أحد أبداً[1] . »

° ° °

إن هذه الوقائع وأمثالها لا تختص بأمريكا وأوربا ، وإنما تحدث بكثرة في كل منطقة من العالم . ولكن حيث إن أكثر البحوث العلمية الحديثة قد أجريت في تلك المنطقة من العالم ، فلا بد لنا أن نأتي بالشهادات التجريبية

---

(١) *Human Personality and its Survival of Bodily Death,* F.W.H. Myers, New York, 1903 Vol. II, pp. 27-30.

من تلك المناطق أيضاً. ولو كان عند بعض علمائنا شيء من الطموح والثقة بالنفس، وبدءوا هذا العمل في مناطقهم، فمن الممكن أن نجمع شهادات لا حصر لها في بلادنا الآسيوية والإفريقية. وأنا شخصياً على علم بكثير من وقائع مماثلة، تدعم هذه النظرية بصفة مدهشة، ولكنا، بكل أسف، تعوزنا الهمم للقيام بمثل هذه البحوث العلمية، وما يلزمها من قدرة على الإنفاق، وبذل الوقت المطلوب.

* * *

إن هناك وقائع لا تحصى، من هذا القبيل، وهي تؤكد وجود «شخصيات معروفة» بعد موتها. ولا سبيل أمامنا لاعتبار هذه الوقائع والحقائق: «أوهاماً وخيالات»، كما اعتاد بعض الناس القولَ ببساطة في مثل هذه المسائل؛ فإن سر الجرح على خد الفتاة الأيمن – وقد ماتت منذ حقبة من الزمن – لم يكن أحد يعرفه غير الفتاة وأمها..

* * *

وهناك وقائع أخرى تؤكد بقاء الحياة بعد الموت، وهي وقائع تتعلق بأولئك الذين نسميهم: «بالمتحركين آلياً» Automatists [1]. ويطلق هذا الاسم على الذين تصدر عنهم أفعال رغم إرادتهم الذاتية، وهذه الوقائع تدل على أن أرواحاً – لأشخاص قد ماتوا – تسكن في أجسام هؤلاء الأحياء، ويكشف هؤلاء الناس، أثناء أعمالهم عن جزئيات لا يعرفها إلا الموتى، أصحاب الأرواح.. ثم يظهر، بعد شهور وسنين، أن تلك الجزئيات كانت حقائق واقعية..

وهناك أيضاً رجال يتكلمون ويكتبون في آن واحد، ولا يكون

---

(١) ربما كان من بين هؤلاء من نصفهم بلغتنا الدارجة بأنهم: (ركبهم الجن)، فهم مسلوبو الإرادة، يتكلمون بلسان غيرهم من العفاريت. (المراجع)

للمكتوب أية علاقة بالقول . كما أن الكاتب لا يعلم بنفسه ماذا كتب، إلا بعد الاطلاع على ما كتبه ، « وهذا الواقع يثبت أن روحاً – غير روحه الشخصية – تسكن في جسده، وهي التي تجعله يكتب[1] » .

° ° °

إن كثيرين من علمائنا المحدثين يرتابون في قبول هذا الاستدلال ، كما يقول « براد » :

« إن أي فرع من فروع العلوم الحديثة لا يؤكد إمكان الحياة بعد الموت ؛ اللهم إلا ذلك الاستثناء المشتبه فيه من البحوث الروحية[2] » .

بيد أن هذا الاستدلال يشبه عندي أن أقول : « إن « التفكير » استثناء مشتبه في أمره ، لأن أحداً من ملايين الحيوانات على سطح الأرض لم يصدّق هذه الظاهرة غير الإنسان ! ! » .

° ° °

إن بقاء الحياة وفناءها يتعلق بعلم النفس ، لكونه مسألة نفسية بحتة ، فلا تصلح دراسته إلا في علم النفس . أما أن نبحث عنه في أقسام أخرى من العلوم ، فهو بمثابة أن نطالب علْمَيْ (النبات) و (الفلزات) بإثبات ظاهرة التفكير . ولا نستطيع – أيضاً – أن نجعل دراستنا داخل الجسم الإنساني حَكَماً في هذه المسألة الخطيرة . وسببه أن الجزء الذي ندعي بقاءه واستمراره في الحياة – وهو الروح – لا يوجد في هذا الجزء المادي ، بل في جسم آخر سواه .

وهذا هو الأمر الذي دفع الكثيرين من علمائنا إلى الاعتراف بـأن « الحياة بعد الموت » واقع حقيقي . بعد أن قاموا بأبحاث علمية طويلة غير

---

(١) *A Philosophical Scrutiny of Religion*, pp. 407-10

(٢) *Religion, Philosophy & Psychical Researches*, London 1953, p. 235

منحازة . وقد ألقى « البروفسور دوكاس » ، وهو أستاذ الفلسفة بجامعة براون ، ضوءاً على الجوانب النفسية والفلسفية من مسألة الحياة بعد الموت ، في الباب السابع عشر من كتابه . والدكتور دوكاس لا يؤمن بالحياة بعد الموت كعقيدة دينية ، وإنما وجد – أثناء بحوثه – شواهد كثيرة ، اضطر – على أثرها – أن يؤمن بالحياة الآخرة ، مجردة عن قضايا الدين . وهو يكتب في آخر الباب السابع عشر من كتابه قائلاً :

« لقد قام رهط من أذكى علمائنا وأكثرهم خبرة بمطالعة الشهادات المتعلقة بالمسألة ، وفحصوها بنظرة نقد ثاقبة ، وقد توصلوا آخر الأمر إلى أن هناك شواهد كثيرة تجعل فكرة « بقاء الروح » نظرية معقولة ، وممكنة الحدوث .. وهم يرون أنه لا يمكن تفسير تلك الشواهد إلا على هذا النحو . ومن هؤلاء الكبار الذين قاموا بهذه البحوث نستطيع أن نذكر : الأساتذة ألفريد راسل واليس ، والسير وليام كروكس ، وف. و. ه. مايرز ، وسيزار لومبرازو ، وكميل فلاماريون ، والسير أوليفر لوج ، والدكتور ريتشارد هوجسن ، والمستر هنري سيدويك ، والبروفيسور هيسلوب ».

ويستطرد الدكتور دوكاس قائلاً :

« ويتضح من هذا أن عقيدة بقاء الحياة بعد الموت – التي يؤمن بها الكثيرون منا كعقيدة دينية – ليس من الممكن أن تكون واقعاً فحسب ، وإنما لعلها هي الوحيدة ، من عقائد الدين الكثيرة ، التي يمكن إثباتها بالدليل التجريبي . ولو صح هذا فمن الممكن أيضاً أن نجد معلومات قطعية في هذا الموضوع ، بغض النظر عن الأفكار التي افتراها رجال الدين عن نوعية الحياة بعد الموت . ولن نحتاج حينئذ إلى الإيمان بالوجهة الدينية من هذه

النظرية[1] » .

ويكاد الدكتور دوكاس – بعد الوصول إلى هذا الحد من وضوح قضية الحياة بعد الموت ، ثم الجحود بوجهتها الدينية – أن يكون مثله مثل الفلاح الذي يصر على أنه لا سبيل إلى الحديث بينه وبين أحد أقربائه، الذي يسكن في بلدة نائية .. فإذا وصلت خط التليفون مع قريبه هذا في البلدة النائية، وأعطيته السماعة .. إذا به يقول لك ، بعد فراغه من الكلام : « ليس من الضروري أنه كان صوت قريبي ، فمن الممكن أنه كان يخرج من إحدى الماكينات ! »

• • •

(١) A Philosophical Scrutiny of Religion, p. 412.

الباب السادس

إثبات الرسالة

من العقائد الهامة في الدين ، بعد الإيمان بالله ، عقيدة الإيمان بالرسالة ، أو الوحي والإلهام . ومعناها : أن الله تعالى يُنْزِلُ كلامَه على إنسان يختاره من بين الناس ، ليخبر الناسَ بما يرضي الله تعالى ..

وحين عجزنا عن رؤية أي « خط اتصال ساخن » ، بين الله سبحانه وبين الرسول ، أنكرناه . ولكنا اليوم نستطيع أن نفهم هذه المسألة بسهولة تامة بفضل الحقائق المعلومة .

إن هناك وقائع كثيرة جداً تجري من حولنا في كل لحظة ، ونحن نعجز عن إدراكها ، أو سماعها ، أو الإحساس بها بوساطة أجهزتنا العصبية ، وقد استطاع العلم الحديث أن ييسّر لنا إدراكها بفضل الأجهزة العلمية التي اخترعناها . وهذه الأجهزة تستطيع أن تدلّ على صوت ذباب طائر على بعد بضعة أميال ، وكأنه يطير عند أذنك ! .

ومن الأجهزة العلمية ما وصل التقدم فيه إلى حد أنها تسجل صدام الأشعة الكونية في الفضاء ! !

لقد اخترعنا آلات كثيرة أثبتت أنها تستطيع إدراك كثير جداً من

الأحداث التي لا يمكننا سماعها بالطرق السمعية التقليدية .

وهذه الطاقة غير العادية للسماع لا تخص الآلات العلمية الحديثة . وإنما وهبها الله لبعض الحيوانات أيضاً . ومما لا شك فيه أن جهاز سماع الإنسان محدود جداً ، ولكن أجهزة بعض الحيوانات تختلف كل الاختلاف ، فالكلب . مثلاً . يستطيع أن يشم ريح الحيوان الذي مر من الطريق ، ومن ثم استغلت الكلاب في البحث عن اجرائم والمجرمين .. فالقفل الذي كسره اللص يشمه الكلب المدرب. ثم ينطلق مقتفياً أثر الرائحة المعينة التي وجدها عند القفل المكسور . وفجأة نراه يمسك باللص من بين الألوف .

وهناك حيوانات كثيرة تسمع أصواتاً تخرج عن نطاق أسماعنا ، ولقد أثبتت البحوث في هذا الميدان أن بعض الحيوانات يتمتع بقوة «الإشراق» Telepathy . فلو أنك وضعت حشرة مما يطلق عليه (Moth) ، أو (العثة)،وهي حشرة مجنّحة – على نافذة مفتوحة ، فستحدث صوتاً يسمعه زوجها على مسافة بعيدة جداً . ولسوف يجيبها هذا الزوج أيضاً بطريقته.

وهناك نوع خاص من هذه الحشرات يدعى « الجندب » ، يحك رجليه وجناحيه ويصوّت بطريق غير عادية . ويُسْمَعُ على مبعدة نصف ميل . وهو يحرّك في هذه العملية ستمائة طن من الهواء،ليدعو زوجه ، وهذه الزوج ترسل أيضاً ، وهي ساكنة بلا حراك . جواباً لا نعرفه ، وإنما يعرفه الجندب الذكر . ثم يلحق بها أينما كانت .

وقد أثبتت البحوث أيضاً أن « أبو النطيط » العادي **Grasshopper** لديه قدرة خارقة على السماع . حتى إنه يستطيع أن يسمع ويحس الحركة التي تحدث في نصف القطر من ذرة الهيدروجين !

وهناك أمثلة أخرى كثيرة . تؤكد إمكان وجود وسائل غير مرئية لدى ذوي الحواس الخاصة .

وإذا كان الأمر كذلك . فما وجه الغرابة في ادعاء إنسان أنه يسمع

صوتاً من لدن ربه ، لا يدركه عامة الناس (؟) ما دام من الممكن أن توجد في هذا العالم حركات وأصوات لا تسمعها آذان الإنسان ، ولكن تسجلها الآلات ؟ وما دامت هناك رسائل تدركها حيوانات دون أخرى ؟

ما هو جانب التعجب والاستبعاد ؟

إن الله تعالى – لحكمة يعلمها – يرسل رسائله بوسائل خافتة خفية إلى الإنسان المختار للرسالة . بعد أن يودع فيه صلاحية التقاطها وفهمها . فليس هناك من تصادم ، في الحقيقة ، بين مشاهداتنا وتجاربنا العلمية ، فهو واقع من الوقائع الكثيرة التي نشاهدها ونجرّبها في أمكنة وطرق مختلفة . فالوحي إمكان ، وجدناه في شكل الواقع ، بعد التجربة .

° ° °

وقد تبين أن تجارب الإشراق أو الانكشاف ومعرفة الغيب لا تخص الحيوانات ، وإنما توجد في الإنسان « بالقوة » ، يقول الدكتور إليكسيس كيريل[1] : « إن حدود الفرد في إطار الزمان والمكان هي مجرد افتراض[2] » . فيستطيع عامل الإشراق أن يجعلك تنام ، وتضحك ، أو تبكي . كما يستطيع أن ينقل إليك كلمات أو خواطر ، لست على علم بها . إنها عملية لا تستعمل فيها أية وسائل ، ولا يشعر بها غير عامل الإشراق وصاحبه .

كيف يستحيل وقوع هذه العملية نفسها بين العبد وربه ؟ إننا . بعد الإيمان بالله ، والاطلاع على هذه التجارب الكثيرة بما في ذلك الإشراق . لا نجد أساساً لإنكار الوحي والإلهام .

° ° °

وقد حدث سنة ١٩٥٠ أن المسئولين في « بافاريا » رفعوا قضية ضد

---

(١) *Man the Unknown*, p. 244

(٢) أي لا نهاية لهذه الحدود من حيث الإمكان . (المعرب)

أحد النمسويين ، واسمه (فرنتز ستروبيل) ، بتهمة التدخل في برامج الإذاعة عن طريق الإشراق .

وكان فرنتز ستروبيل يستعرض أعماله في فندق ريجنا، بميونيخ ، عندما ناول أوراق لعب الكوتشينه،إلى أحد المتفرجين . وطلب إليه اختيار ورقة ما ، وادعى أنه سوف ينقل اسم تلك الورقة واسم الفندق مع ترتيبهما ، كما هما في ذهن المتفرج ، إلى المذيع الذي كان يقرأ الأخبار من إذاعة ميونيخ المحلية ، وذلك دون أن يعرف المذيع نفسه شيئاً من هذا ! !

وبعد ثوان سمع الناسُ صوتَ مذيع مرتعش ، وهو يقول : « فندق ريجنا — بنت البستوني » .. وكان الترتيب واسم الورقة صحيحين ، كما أراد المتفرج .

وكان الارتعاش والرهبة واضحين في صوت المذيع ، ولكنه واصل قراءة الأخبار . واستغرب الكثيرون من المستمعين من سكان ميونيخ ، واتصل مئات منهم تليفونياً بالإذاعة يستفسرون عن السر الغامض .. فكان من الصعب عليهم إدراك علاقة الأخبار « بفندق ريجنا — بنت البستوني » : وحضر طبيب الإذاعة للكشف على المذيع . فوجده في حالة اضطراب خطيرة ، وأدلى المذيع ببيانه قائلاً : « إنني شعرت بصداع شديد في رأسي ، ولا أعرف ماذا حدث بعد ذلك ! »

° ° °

وقد عرض العلماء نظريات عديدة لشرح هذه الصور من عملية الإشراق، ومنها أن أمواجاً تصدر من المخ وتنتشر في العالم أجمع بسرعة فائقة ، ولذلك سموها بنظرية الموجة المخية Brain Wave Theory [1] .

---

(١) *Religion, Philosophy and Psychical Research*, C.D. Broad, pp. 47-48.
Man The Unknown, pp. 244-49

ونحن نقول : إنه لما كان الإنسان يستطيع تحويل الأفكار بأكملها إلى إنسان آخر ، على بعد غير عادي . وبدون استعمال أي واسطة مادية ظاهرية ، فلماذا تستحيل نفس العملية بين الإله وعباده ؟ إن هذا المظهر من كفاءة قوى الإنسان – وأمثلته كثيرة لا تحصى – ليس إلا قرينة تجريبية تجعلنا نفهم علاقة الألفاظ والمعاني ، التي تربط العبد بالإله، عندما يُرسل رسالاته .

إن الإشراق أمر معروف لدى الناس ، وهو يدلنا على فهم ذلك النظام الإشراقي العظيم بين الإله والعباد ، والذي يكون في أكمل صوره حين يبلغ درجة « الوحي »، وهذا الوحي لا يعدو أن يكون « إشراقاً كونياً »، من نوع الإشراقات التي عهدناها في حياتنا على مستويات محدودة .

• • •

أولاً ـــ ضرورة الرسالة

وينبغي ــ بعد وضوح إمكان الوحي والإلهام ــ أن نبحث عما إذا كان «ضرورياً» أن يخاطب الله إنساناً، ليبلغ كلامه إلى الناس؟

إن أكبر دليل على هذه الضرورة هو أن الأمر الذي يخبر عنه الرسول من أهم الأمور التي تتعلق بحياة الإنسان ومصيره، والإنسان لا يستطيع أن يصل إلى تلك الحقائق بجهوده الشخصية، إنه يبحث منذ آلاف السنين عن حقيقة الكون، كي يفهم أسرار بدء الحياة ونهايتها، وحقائق الشر والخير، وكيفية صوغ الإنسان من أجل الإنسانية، وتنظيم أجهزة الحياة حتى تستطيع الإنسانية أن تسير قُدماً في طريق الخير والرفاهية.. ولم تكلل هذه الجهود بالنجاح إلى يوم الناس هذا. فقد كشفنا عن أسرار الحديد والبترول، وتعرفنا على حقائق الطبيعة بعد جهد قصير، ولكننا عاجزون عن كشف «علم الإنسان»، رغم أن جهود أعظم عقولنا العبقرية تواصل البحث عن هذا العلم، ولم تستطع، حتى الآن، تحديد مبادئه وأسسه. إن هذا هو أكبر دليل على أن الإنسان يحتاج إلى هدى الله، من أجل أن يعرف نفسه!

° ° °

ومن المسلم عند الإنسان الجديد أنه لم يفلح بعد في كشف لغز الحياة، ولكنه، على كل حال، يأمل في أن يساعده القدر يوماً لرفع القناع عن

هذا السر المعقد ، ولا ريب أن عجز مجتمع العلم والصناعة عن إشباع الحاجات النفسية للإنسان يؤكد الفكرة التي تقول : « إننا أعطينا أهمية غير عادية للعلوم المادية ، على حين تركنا العلوم الإنسانية في مراحلها البدائية » ، أما الذين دفع بهم طموحهم الجارف إلى العمل في هذا المجال ، مجال (العلوم الإنسانية) فهم كذلك لم يستطيعوا كشف شيء ما ، بل لجوا في ضلالهم يعمهون ، يقول الدكتور إلكسيس كيريل (الحائز على جائزة نوبل للعلوم) :

« إن مبادىء الثورة الفرنسية ، وأفكار ماركس ، ولينين ، لا تنطبق إلا على الإنسان العقلي المثالي . ومن الواجب أن نشعر بصراحة تامة بأن قوانين العلاقات الإنسانية لم تكشف بعد . أما الاجتماع والاقتصاد وما أشبههما ، فهي علوم افتراضية محضة ، بدون أدلة يمكن إثباتها بها[١] » .

ولا شك أن علومنا الجديدة قد فتحت مجالات أمام الإنسان ، ولكنها في نفس الوقت جعلت المسألة أكثر تعقيداً ، ولم تساعد في حل الأزمة في أية مرحلة .

ويقول الأستاذ ج.و.ن. سوليفان :

« إن الكون الذي كشفه العلم الحديث هو أكثر غموضاً وإبهاماً من التاريخ الفكري بأكمله ، ولا شك في أن علمنا عن الطبيعة أكثر غزارة من أي عصر مضى ، ولكن هذه المعلومات كلها غير مُقْنِعة ، فنحن نواجه اليوم الإبهام والمتناقضات في كل ناحية[٢] » .

هذه الكارثة المؤسفة التي نقف أمامها ، بعد بحث طويل في العلوم المادية عن سر الحياة ، تدلنا على أن إدراك سر الحياة لن يتاح للإنسان[٣] .

---

(١) *Man the Unknown*, p. 37

(٢) *Limitations of Science*, p. 1.

(٣) انظر للتفصيل كتاب الدكتور كيريل ، ص ١٩ – ١٦ .

إن أحوالنا تحتم علينا معرفة سر الحياة ، إذ أننا لا نستطيع مواصلة الحياة في أكمل صورها دون معرفته؛ ولذلك كان خير ما نتمنى بقلوبنا أن ندركه ، ولا يرضى أسمى جزء من شخصيتنا ، وهو العقل ، أن يطمئن بدونه. فحياتنا مبعثرة لفقداننا هذه الحقيقة .

سر الحياة هو ضرورتنا الكبرى ، هذا من ناحية ، ولكننا ، من ناحية أخرى ، لا نستطيع أن نظفر به بجهودنا وحدها ..

هذه الحالة وحدها تكفي لنتبين حاجتنا الشديدة إلى « الوحي » ، فأهمية سر الحياة ، ثم خروج هذا السر عن دائرة قوى الإنسان، يدل على أنه لا بد أن تأتي المعرفة من الخارج أيضاً ؛ كالضوء والحرارة اللذين تتوقف عليهما حياة الإنسان ، ولكنهما هيئا من الخارج[1] .

° ° °

إن مهمتنا ، بعد التسليم بإمكان الوحي وضرورته ، هي أن نبحث عن الإنسان الذي يدعي أنه نبي .. هل هو صاحب الوحي في الحقيقة ؟ .. لقد نصت العقيدة الدينية على مجيء عدد كبير من الأنبياء ، ولكننا سوف نبحث في هذا الباب عن نبوة رسول الإسلام : سيدنا محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ فإن نبوة سائر الأنبياء من قبله تثبت تلقائياً لو ثبتت نبوته، لكونه آخر الأنبياء ،ولأنه يصدقهم ولا ينكرهم ، ولأن نجاة البشرية، أو هلاكها في معركة الحياة رهن بإيمانها بهذا النبي ،أو تكذيبها إياه .

° ° °

لقد ولد طفل بمكة صبيحة يوم ٢٩ أغسطس من عام ٥٧٠ م ، وعندما

---

(١) سوف نبحث هذه المسألة بتوضيح أكثر ، في الفصول القادمة .

بلغ الأربعين من عمره ، أعلن أن الله تعالى أرسله خاتماً للنبيين ، وكلفه بإبلاغ رسالته إلى جميع فئات الجنس البشري ، وأن من اتبعه نجا في الحياة الآخرة ، ومن كذبه فهو في خسران مبين .

إن أصداء هذا الصوت تمر فوق رؤوسنا اليوم بأشد قوتها ، وهو ليس بصوت عادي تتجاهله الآذان .. فهو أكبر نداء في تاريخنا يدعونا إلى تفكير دقيق ، وعلينا أن ندرسه بدقة ، فإما قبلناه وهو صادق ، وإما رفضناه لو وجدناه كاذباً ... وهيهات .

• • •

ثانيـــاً ـــ مقياس الرسالة

كل فكر يمر بثلاث مراحل، حتى يصبح حقيقة علمية :

المرحلة الأولى : الفرض Hypothesis

المرحلة الثانية : الملاحظة Observation

المرحلة الثالثة : التحقق Verification

والمرحلة الأولى من الحقائق هي أن نفترضها ،ثم نشاهدها وندرسها، لنتبين صدقها أو كذبها ، فإن وجدناها صحيحة ، في ضوء الدراسة ، قبلناها ؛ لتصبح حقيقة علمية ، وقد ينقلب هذا الوضع ، فإننا في بعض الأحيان نشاهد أشياء نتوصل بها إلى نظرية ، ثم نبدأ البحث في ضوئها .

وبناء على هذا الأساس فإن دعوى النبوّة (فرض) . وعلينا أن نفتش عما إذا كانت (الملاحظات) تؤيد هذا الفرض ؟ فإذا أيدته المشاهدات أصبح(حقيقة) مصدّقة ، يلزمنا قبولها . .

ولكن ما الملاحظات التي نحتاج إليها لاختبار هذا الفرض ؟

وما المظاهر الخارجية التي تؤيد كون محمد (صلى الله عليه وسلم) نبياً حقاً ؟

وما الخصائص والميزات التي اجتمعت في الرسول،ولا نجد لها تفسيراً إلا إذا قلنا : إنه كان نبياً ؟

في رأيي أنه لا بد من مقياسَيْن لاختبار الأنبياء :

أولاً : أن يكون رجلاً مثالياً بصورة غير عادية ، فإن الذي يُصطفى ليكون كليم الله . وليكشف للإنسان برنامج الحياة وسرها ، لا بد أن يكون أسمى شخصية في النوع الإنساني ، كما لا بد أن يكون حاملاً مُثُلَ الحياة العليا . فإذا كانت حياته الذاتية متصفة بهذه الصفات فهي أكبر دليل على ما يقول ؛ إذ لو كانت دعواه باطلة لما كان ممكناً أن تتجلى هذه الحقيقة الكبرى في حياته الذاتية . حتى تسمو به فوق سائر الإنسانية،خلقاً وشمائل .

ثانياً : أن يكون كلامه ورسالته مملوئَين بجوانب يستحيل حصولها للإنسان العادي ، ولا تُؤَمَّلُ إلا ممن ظفر بمعرفة رب الكون ، بحيث لا يمكن للعامة محاكاة ما جاء به النبي من وحي الله .

إننا سوف نبحث عن الرسول في ضوء هذين المقياسين .

° ° °

لقد شهد التاريخ بكل قطعية أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يتمتع بسيرة غير عادية،ومن الممكن للمتعصبين إنكار أية حقيقة، مهما كانت واضحة ، كما أن من الممكن للمنكرين ادعاء أي شيء في سبيل الاستغلال ، إذا كانوا غير راضين بالنتيجة ، مهما كانت صادقة وبدهية ! وحسبنا أن نذكر على ذلك موقفاً من حياتنا الحديثة ! فقد شاهدنا منذ سنين قليلة مثالاً ساخراً لهذا المبدأ . عندما هاجمت الصين الشعبية حدود الهند الدولية ، وأخذت الصين ، إزاء احتجاج الهند ، تتهم الهند نفسها بالعدوان ! !

وفي الخطاب الذي أرسله رئيس وزراء الصين إلى الهند ، والذي أذيع نصه بدلهي في يناير عام ١٩٦٠ ، ادعت الصين أن لها حقاً في أراض هندية تبلغ مساحتها ٢٢٠.٠٠٠ كم مربعاً ! ! ويقول رئيس وزراء الصين : إن القوات الصينية لم تتقدم إلا لتدفع بالقوات الهندية المحتلة إلى الوراء ! !

أليس هذا منطق التعصب والاستغلال ! !

أما الذي لا يشكو من داء التعصب ، ويهيىء عقله لمطالعة الحقائق بقلب مفتوح واع ، فإنه سيسلم بعد دراسته بأن حياة محمد صلى الله عليه وسلم كانت أرقى ، وأحلى حياة شهدها البشر .

* * *

لقد أخبر محمد بن عبد الله بالنبوة ، وهو في الأربعين من عمره ، وكان قد اشتهر قبل هذا بدور أخلاقي ممتاز ، حتى لقّبه الناس « بالصادق الأمين » ، وكانت قريش قد أجمعت على أنه يستحيل أن يكذب، أو يخون الأمانة .

ومن الأحداث التي جرت قبل إعلانه النبوة بخمس سنين أن أهل مكة أرادوا بناء الكعبة من جديد ، وكانت قريش هي صاحبة الأمر ، فاختلفت فيمن سيضع الحجر الأسود في مكانه ، واستمر الخلاف أربعة أيام أو خمسة ، وأوشكت السيوف أن تبرز ، وكاد القوم أن يتناحروا ، ثم اتفقوا على أن يكون الفيصل في هذه القضية أول من يدخل البيت الحرام صباح غد ، وفي اليوم التالي شاهدوا أن الإنسان الأول الذي دخل البيت كان محمداً ، فنادوه قائلين : « هذا الأمين ، رضينا[1] » .

إننا لا نعرف شخصية في التاريخ الإنساني تمتعت بهذا الإجلال والتكريم والتقدير ، وبهذه السيرة غير العادية ، ثم أصبحت موضع نزاع بعد مضي أربعين سنة من عمرها .

* * *

وعندما نزل عليه الوحي لأول مرة ، وهو في غار حراء ، اعتبره حادثاً غريباً ، لم يعهده من قبل ، فرجع إلى بيته يرجف فؤاده ، وقص

---

(١) صحيح البخارى ، باب ما ذكر في الحجر الأسود .

كل ما حدث على زوجه : خديجة ، التي كانت أكبر منه سناً ، فقالت: « يا أبا القاسم ، والله ، لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر » .

وكان أبو طالب عم النبي ، قد أبى أن يؤمن ، ولكنه حين علم أن ابنه « علياً » أسلم ، قال له : أي بُنَيَّ : ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ . فقال : يا أبت ، آمنت بالله ، وبرسول الله ، صليت معه واتبعته ، فقال أبو طالب : أما إنه لم يَدْعُكَ إلا إلى خير ، فالزمه[1] » .

وعندما جمع الناسَ لأول مرة بعد النبوة في رحاب « جبل الصفا » ، سألهم : « يا بطون قريش ! أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقيَّ ؟ » فعلت الأصوات من كل الحناجر ، وهي تقول : « نعم ، ما جرّبنا عليك كذبا ! » .

إن هذا السجل التاريخي الممتاز لحياة الرسول قبل إعلان النبوة ، ليس له مثيل في العالم ، ولم يسبق أن أحرز مثلَه أي شاعر ، أو فيلسوف ، أو مفكر ، أو كاتب ! !

• • •

وعندما أعلن محمد (صلى الله عليه وسلم) النبوة ، لم يكن صدقه موضع شك ، أو بحث ، مطلقاً لدى أهل مكة ؛ فإنهم كانوا على علم تام بحياته الكاملة ، ولذلك لم يَرْمِه أحد بتهمة الكذب أو الاحتيال ، بل ذهبوا يَدَّعُون أنه فقد وعيه ، أو أنه شاعر أو ساحر ، أو أن الجن استولت على أعصابه ، وما إلى ذلك من الدعاوى التي تحفل بذكرها الكتب التاريخية ؛ ولكن هذه الكتب لا تشير إلى أية محاولة جرؤ صاحبها على النيل من أمانته وصدقه .

---

(١) *Ideal Prophet*, p. 58. ، وانظر سيرة ابن هشام ١/٢٦٥ .

بل يسجل التاريخ أنه : « ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته[1] » .

وفي السنة الثالثة عشرة من النبوة ، صمم بعض شبان قريش على قتله ، وحاصروا بيته لاغتياله ؛ وفي تلك الساعة الخطرة الحرجة قرّر الهجرة إلى يثْرب ، ولكنه أوصى ابن عمه (علياً) أن يرد جميع الأمانات إلى أصحابها في الصباح !

وهذا النضر بن الحارث ، وقد كان من أكبر المعارضين للنبي ، وكان يعد من الخبراء المحنكين بمكة — وقف يوماً ، فألقى خطبة في جمع من قريش ، وقال :

« يا معشر قريش ، إنه ، والله ، قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر ، لا والله ، ما هو بساحر ؛ لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم . وقلتم : كاهن ، لا والله ، ما هو بكاهن ؛ قد رأينا الكهنة وتخالجهم ؛ وسمعنا سجعهم . وقلتم : شاعر . لا والله ، ما هو بشاعر ؛ قد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها ، هزجه ورجزه . وقلتم : مجنون ، لا والله ، ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون ، فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه . يا معشر قريش ؛ فانظروا في شأنكم ، فإنه ، والله ، لقد نزل بكم أمر عظيم » .

« وكان هذا النضر من شياطين قريش ، وممن كان يؤْذي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينصب له العداوة[2] » .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ، ص ٩٨ .
(٢) المرجع السابق ١/٣١٩ .

وكان أبو لهب عم النبي من ألد أعدائه ، وقال له ذات مرة : « يا محمد ، إني لا أقول : إنك كاذب ، ولكن الأمر الذي تقوم بتبليغه باطل[1] » .

• • •

إن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانت عامة لسائر أهل الأرض ، غير مقصورة على الجزيرة العربية ، ولذلك أرسل كتابات إلى ملوك البلاد القريبة ، وقد تلقى إمبراطور الروم « هرقل » كتاباً من الرسول ، يدعوه إلى اعتناق الدين الجديد ، فأمر رجاله بإحضار رجل من قوم الرسول ، في ديوانه[2] . وكان بعض التجار من قريش يقومون برحلة تجارية في بلاد الشام ، فجيء بهم إلى ديوان القيصر ، وسألهم هرقل عمن كان أقربهم نسباً بالرسول ، فأجاب أبو سفيان : « أنا أقربهم نسباً » . ثم جرى حديث تاريخي هام بين هرقل وأبي سفيان ، نقتبس هنا منه شيئاً :

« هرقل : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : هل يغدر ؟

أبو سفيان : لا ، ونحن منه في مدة ، لا ندري ما هو فاعل فيها .

فقال هرقل : قد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله .

وعندما دار هذا الحديث لم يكن أبو سفيان قد آمن بالرسول بعد ، بل كان من خصومه ، الذين ألبوا عليه العرب ، وشنوا ضده الحروب،

---

(١) الترمذي .

(٢) كان قيصر الروم هرقل ، حينئذ ، في بيت المقدس ، يشكر الله لغلبته على الفرس ، وقد تلقى هذا الكتاب هناك .

وقال ، وهو يروي هذا الحادث : « والله لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذباً لكذبت عنه[1] . »

إن التاريخ على طوله لم يشهد رجلاً أدلى خصومه بآراء مثالية عن سيرته وحياته ، مثلما أدلى به خصوم رسول الإسلام .

إن هذا الواقع ، هو الآخر ، دليل ، في حد ذاته ، على حقيقة دعوة النبي العربي . وسوف أنقل هنا ما قاله الدكتور ليتز عن الرسول :

« إنني لأجرؤ ، بكل أدب ، أن أقول : إن الله ، الذي هو مصدر ينابيع الخير والبركات كلها ، لو كان يوحي إلى عباده ، فدين محمد هو دين الوحي ، ولو كانت آيات الإيثار ، والأمانة ، والاعتقاد الراسخ القوى ، ووسائل التمييز بين الخير والشر ، ودفع الباطل ، هي الشاهدة على الإلهام ، فرسالة محمد هي هذا الإلهام[2] » .

• • •

لقد عانى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، من صنوف الأذى ، وضروب العنت والاضطهاد عندما بدأ دعوته ؛ وحاربه قومه أشد الحرب وأقساها ، فوضعوا في طريق مروره الأشواك ، وصبوا على جسمه الطاهر أكواماً من النجاسة .. بل ووجدناه ذات مرة بينما كان يؤدي صلاته ، وإذا (عقبة بن أبي معيط) يلببه بردائه بشدة حتى وقع النبي على الأرض ...

ولكن هذه الاستفزازات لم تؤثر في مهمة النبي ، فاتّبعوا معه أسلوباً آخر ، وذلك حين قاطعوه هو وعشيرته من بني هاشم ، وأجبروهم على أن يعتزلوا الناس ، فلجأوا إلى شِعْبِ بني هاشم ، ومنعوا عنهم الطعام ، وحرموا التعامل معهم ، ومضى على هذه المقاطعة والحصار التاريخي ثلاث

---

(١) صحيح البخاري : كيف كان بدء الوحي .

(٢) *Life of Mohammad*, by Abul Fadl

سنين ، وهم يأكلون أوراق شجر (الطلح) الجبلية المرة ، لسد حاجة البطن إلى الطعام . ويروي أحد الصحابة في هذا الحصار أنه حصل مرة على قطعة جافة من الجلد ، فغسله بالماء ووضعه على النار ، ثم بلّله بالماء ثانية وأكله .

وبعد الخروج من هذا الحصار ذهب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل الطائف ، وكانت تبعد أربعين ميلاً عن مكة ، وكان يقطنهـــا الأعيان والأثرياء من ثقيف ، واستخدم هؤلاء لغة بالغة السوء مع الرسول . وذهب أحدهم يقول متحدياً : « هو يمرط (يمزق) ثياب الكعبة ، إن كان الله أرسلك » ، وقال الآخر : « أما وجد الله أحداً يرسله غيرك . » وقال الثالث : « والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولاً من الله ، كما تقول ، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك » .

ولم يكتف هؤلاء بهذا الاستهزاء ، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، يرمونه بالأحجار ، إلى أن سقط على صخرة مثخناً بالجراح ، وحين جلس ليستريح من الجراح والعنت ، رموه حتى نهض مبتعداً عنهم، وهم يتابعونه بالسب والإيذاء والتصفيق . . ولم يزل هذا المشهد حتى أقبل المساء ، وأوى الرسول إلى حائط لعتبة بن ربيعة ، فجلس في ظل كرمة ، وهو جريح ملطخ بالدماء . وهذا هو الواقع الذي كان الرسول يذكره للسيدة عائشة في قوله :

« لقد لقيت من قومك ما لقيت ؛ وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة. »[1]

• • •

---

(١) نص هذا الحديث : قالت عائشة : يا رسول الله ، هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ .. فقال : لقد لقيت من قومك ، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي=

وعلى الرغم من هذا الأذى الشديد ، فقد ظل الرسول يدعو إلى الحق ، حتى اجتمعت قريش على أنه لا سبيل إلى التخلّص منه إلا بالقتل . وبناء على مؤامرة دبروها ، أحاط عدد من رؤسائهم وشبيبتهم ببيت الرسول ، وفي أيديهم سيوفهم المسلولة ، استعداداً لاغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم ، عندما يخرج من بيته لتأدية صلاة الصبح ، ولكنه بإذن من الله ، خرج من البيت دون أن يصاب بأذى ، وهاجر إلى المدينة المنورة .

ثم أعلنت قريش قتالاً منظماً ضد النبي وأعوانه ، وجروه إلى الحرب ، وورطوه في هذه الحروب زهاء عشر سنين ، وقد سقطت في معاركها أسنانه الكريمة ، وكسرت رباعيته ، كما استشهد عدد كبير من صحابته ، وعانى مع أصحابه كل ما تعانيه الشعوب الضعيفة بعد إعلان الحرب عليها .

• • •

وهكذا دارت رحى التاريخ خلال ثلاثة وعشرين عاماً من الكفاح ، وقبيل نهاية رسالته بعامين فتحت مكة ، ويومها وقف أمامه ألد خصومه ، لا يجدون نصيراً ولا معينا .. فهم يعرفون كيف يعامل المنتصر المغلوبين ، ولكن الذي لقبه ربه بأنه « رحمة للعالمين » سألهم :

– « يا معشر قريش ، ما تظنون أني فاعل بكم ؟ »

– فقالوا : « خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم » .

– فأعلنها الرسول صلى الله عليه وسلم :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء ! »

= على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب . فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال : إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال .. الخ . – المراجع

ذلكم ، ولا شك ، أعظم مثل للرحمة والعفو ، وهو معجزة من معجزات التاريخ الإنساني . ولو كان هذا الحدث من أحداث ما قبل التاريخ ، أو لم يكن مسلّماً به تاريخياً ، لكذبه المكذبون الذين في قلوبهم زيغ ، وقالوا : إنها أسطورة من أساطير التاريخ ، فلم يخلق إنسان بهذه الشيم !

وما أصدق ما قاله البروفيسور بوسورث سميث :

« عندما ألقى نظرة إجمالية أستعرض فيها صفاته وبطولاته ، ما كان منها في بدء نبوته ، وما حدث منها فيما بعد ، وعندما أرى أصحابه الذين نفخ فيهم روحَ الحياة ، وكم من البطولات المعجزة أحدثوا — أجده أقدس الناس ، وأعلاهم مرتبة ، حتى إن الإنسانية لم تعرف له مثيلاً[1] . »

إن المثل الأعلى الذي ضربه النبي في حياته الكاملة ، من الأخلاق العالية ، والزهد في الأموال والملذات ، شيء لا مثيل له في التاريخ .

لقد كان تاجراً ناجحاً في مكة ، وكانت زوجه السيدة خديجة من أثرى نساء العرب ، ولكن كل تجارته ، وثراء زوجته ، ذهبا في سبيل الدعوة ، ثم ابتلي ببلاء شديد ، حتى إنه قال مرة :

« لقد أُخِفتُ في الله ، وما يُخاف أحد (أي مثل ما أخفت) ، ولقد أوذيت في الله ، وما يؤذي أحد ، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين ليلة ويوم ، وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد ، إلا شيء يواريه إبط بلال . »[2].

• • •

وما عانى النبي كل هذا إلا لأجل دعوته ، لقد كان من الممكن أن يعيش حياة أخرى ، تختلف كل الاختلاف عن الحياة البائسة التي عاشها في سبيل رسالته ؛ ولقد عرضت عليه ، حين كان بمكة ، عروض مغرية تكفل له

---

(١) Mohammad & Mohammadanism, p. 340

(٢) الترمذي عن أنس رضي الله عنه .

العيش الرخي ، والمجد السني ، فـأوفد إليه رؤساء قريش « عتبة بن ربيعة » ، الذي جاء ليقول له :

« يا ابن أخي ، إنك منا ، حيث قد علمت من السِّطَةِ في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ؛ فاسمع مني ، أعرض عليك أموراً ، تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . فقال له : قل يا أبا الوليد أسمعْ ، فقال : يا ابن أخي : إن كنت إنما تريد ، بما جئت به من هذا الأمر ، مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالاً ؛ وإن كنت إنما تريد به شرفاً ، سوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ؛ وإن كنت تريد به ملكاً ، ملكناك علينا ؛ وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوي منه ». حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ ، قال نعم ، قال :

فاستمع مني ، فقال : أفعل .. فقرأ عليه الآيات الأولى من سورة (فصلت) ، فلما وصل إلى قوله تعالى : « مثل صاعقة عاد وثمود » أمسك عتبة على فيه ، وناشده الرحم أن يكف . »[1]

* * *

وفي المدينة المنورة ، كان النبي صلى الله عليه وسلم رئيساً لدولة المسلمين ، وكان يتمتع بمساعدين مثاليين ، يبذلون حياتهم لأجله ، ولم يعرف لهم نظراء على مدى التاريخ . ولكن الوقائع التاريخية أثبتت أنه — حتى في آخر أيام حياته ، حين أظلت رايته الجزيرة العربية كلها — بقي رجلاً عادياً ، غير ملتفت إلى شهوات الدنيا ومغرياتها ، حتى لحق بالرفيق الأعلى .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣١٣ — ٣١٤ .

وقد روى سيدنا عمر بن الخطاب أنه دخل حجرة النبي صلى الله عليه وسلم : « فإذا هو مضطجع على رمال حصير ، ليس بينه وبينه فراش ، قد أثر الرمل بجنبه ، متكئاً على وسادة حشوها ليف .. قلتُ : يا رسول الله أدع الله ، فليوسع على أمتك ، فإن فارس والروم قد وسع عليهم ، وهم لا يعبدون الله . فقال : أو في هذا أنت ، يا ابن الخطاب ؟ أولئك عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ؛ وفي رواية : أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة[1] » .

ومما تحكي السيدة عائشة أنه « كان يمر الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين ، وما توقد في أبيات الرسول صلى الله عليه وسلم نار ؛ فسألها عروة بن الزبير : فما كانت معيشتكم ، يا خالة ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء . وقالت : وكان لنا جيران من الأنصار ، لهم ربائب يسقوننا من لبنها ، جزاهم الله خيراً . ». وقد جاء في حديث آخر : أنها ذكرت « أن آل محمد لم يشبعوا ثلاثة أيام متوالية من طعام بُرٍّ ، حتى مضى النبي صلى الله عليه وسلم ، لسبيله[2] . »

° ° °

لقد عاش النبي هذه الحياة القاسية ، رغم كونه قادراً ، دل القدرة ، على أن يعيش حياة النعيم والترف . وعندما انتقل إلى رحمة الله لم يورث أهله شيئاً ، لا دراهم ولا دنانير ، ولا غنماً ولا إبلاً ، حتى إنه لم يكتب أية وصية ، بل إن النبي العظيم ، الذي كان على معرفة تامة بأن حدود دولته الإسلامية سوف تمتد عابرة إفريقية وآسيا ، حتى تصل إلى قلب أوربا — قال : « نحن معاشر الأنبياء ، لا نورث ؛ ما تركنا صدقة . »

° ° °

(١) متفق عليه .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٤٠٠ وما بعدها .

إن هذه الوقائع التي أوردناها ، من الإيثار ، والإخلاص ، وسمو الأخلاق ، ليست حوادث استثنائية في حياة الرسول ، وإنما هي حياته بأكملها ، بل هي بالحرى ، صورة مصغرة وموجزة عن الوقائع التي كانت تحدث في حياته المثالية . لقد ارتفع بالإنسانية إلى أسمى قمة تحلم بها ، حتى إنه لو لم يوجد ، لاضطر المؤرخون إلى القول : بأنه لم يوجد إنسان من هذا الطراز ، ولن يوجد في التاريخ .

• • •

فليس غريباً ، مطلقاً ، أن يقال : إنه كان نبيّ الله ، ولكن الغريب أن ينكره أحد منا عناداً وغروراً .

ونحن عندما نسلّم بدعواه يمكننا أن نفسّر سر حياته المعجزة .

أما إذا أنكرنا نبوته ، فسنفقد أي أساس لتفسير منبع أوصافه العجيبة ، التي لم نجد لها مثيلاً في التاريخ .. وقد اعترف البروفيسور « بوسورث سميث » بهذه الحقائق ، حتى إنه ليدعو البشرية كلها إلى الإيمان برسالةالنبي :

« لقد ادعى محمد لنفسه في آخر حياته نفس ما ادعاه في بداية رسالته . وإني لأجدني مدفوعاً إلى الاعتقاد بأن كلاً من الفلسفة العليا والمسيحية الصادقة سوف تضطران ، يوماً ما ، إلى التسليم بأنه كان نبياً ... نبياً صادقاً من عند الله[1] . »

• • •

أما الناحية الأخرى في قضية إثبات الرسالة المحمدية ، فهي ذلك الكتاب الذي جاء به صاحب الرسالة ، مدعياً أنه منزل من عند الله .

وهذا الكتاب يفيض بخصائص ومزايا تدل صراحة على أنه كلام غير إنساني ، وأنه من عند الله . ولما كان البحث في هذه الناحية ذا طبيعة خطيرة — نظراً لأهميته — فقد قدرنا أن ندرسه في باب مستقل ..

• • •

---

(١) *Mohammad & Mohammadanism*, p. 344

الباب السابع

القرآنُ.. صَوتُ الله

عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما مِنَ الأنبياء نبيّ إلا أُعْطِيَ من الآيات ما مثلُه آمَنَ عليه البشرُ ، وإنما كان الذي أُوتيتُ وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أني أكثرهم تابعاً يوم القيامة[1] . »

إن هذا الحديث النبوي يعيّن جوانب بحثنا الصحيحة ؛ فهو يقول : إن أهم وسائلنا لمعرفة النبي هو الكتاب الذي جاء به ، مدعياً أنه من عند الله ، والقرآن هو رسالة الرسول بين ظهرانينا ، كما أنه يبرهن على صدقه .

فما الخصائص التي تبرهن على أن القرآن من عند الله ؟

إنها متعددة الجوانب كثيرة ، نستطيع أن نلخصها في الفصول التالية :

---

(١) صحيح البخارى : الاعتصام .

أولاً ــ إعجاز القرآن

أول خاصة يتنبه إليها الباحث في العلوم القرآنية هي ذلك التحدي الصريح الذي وجهه القرآن إلى الناس كافة ، منذ أربعة عشر قرناً ، وبخاصة أولئك الذين ينكرون رسالة القرآن ، ولم يستطع أحد من عباقرة البشر أن يرد التحدي إلى الآن . لقد أعلن القرآن ، بصوت عال ، لا إبهام فيه ولا غموض :

« وإنْ كنتم في رَيْبٍ مما نَزَّلْنا على عَبْدِنا فَأْتُوا بسورةٍ من مِثْلِه ، وادْعُوا شُهَدَاءكم من دونِ اللهِ ، إن كنتم صادقين[1] . »

إنه أغرب تحدٍّ في التاريخ ، وأكثره إثارة للدهشة، فلم يجروْ أحد من الكتاب في التاريخ الإنساني ــ وهو بكامل عقله ووعيه ــ أن يقدم تحدياً مماثلاً ، فإن مؤلفاً ما لا يمكن أن يضع كتاباً ، يستحيل على الآخرين أن يكتبوا مثله ، أو خيراً منه .. فمن الممكن إصدار مثيل من أي عمل إنساني في أي مجال . ولكن حين يُدَّعَى أن هناك كلاماً ليس في إمكان البشر الإتيان بمثله ، ثم تُخْفِقُ البشرية على مدى التاريخ في مواجهة هذا التحدي ، حينئذ يثبت تلقائياً أنه كلام غير إنساني ، وأنها كلمات صدرت عن صميم

(١) سورة البقرة : ٢٣ .

المنبع الإلهي (Divine Origin) ، وكل ما يخرج من المنبع الإلهي لا يمكن مواجهة تحدياته .

° ° °

وفي صفحات التاريخ بعض الوقائع ، غر أصحابَها الغَرُورُ ، فانطلقوا يواجهون هذا التحدي .

وأولى هذه الوقائع ما حدث من الشاعر العربي لبيد بن ربيعة ، الشهير ببلاغة منطقه ، وفصاحة لسانه ، ورصانة شعره . فعندما سمع أن محمداً يتحدى الناس بكلامه قال بعض الأبيات رداً على ما سمع ، وعلقها على باب الكعبة ، وكان التعليق على باب الكعبة امتيازاً لم تدركه إلا فئة قليلة من كبار شعراء العرب ، وحين رأى أحد المسلمين هذا أخذته العزة ، فكتب بعض آيات الكتاب الكريم ، وعلقها إلى جوار أبيات لبيد ، ومر لبيد بباب الكعبة في اليوم التالي ، ولم يكن قد أسلم بعد ، فأذهلته الآيات القرآنية ، حتى إنه صرخ من فوره قائلاً : (والله ما هذا بقول بشر ، وأنا من المسلمين) [1] .

---

(١) هذا الخبر عن لبيد أورده المؤرخ ج . ساروار في كتابه *Muhammad: The Holy Prophet* ص ٤٨٨-كراتشي ، وهو على هذا النحو غير مسلم، لأن لبيدا لم يسلم إلا في السنة التاسعة للهجرة ، حين وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ضمن وفد كلاب (انظر : الطبقات الكبرى ٦/٣٣ ، وأيضاً ١/٣٠٠ - ط بيروت ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٢٧٥ - تحقيق الشيخ أحمد شاكر) . وإنما كان الذي حدث قريباً من هذا الذي ذكره المؤلف مع استبعاد رواية إسلامه ، فقد ذكر الحافظ أبو نعيم في الحلية ١/١٠٣ أن عثمان بن مظعون رضي الله عنه كان في أول الإسلام يعيش في جوار الوليد بن المغيرة ، فلما رأى ما يحدث لإخوانه من أذى المشركين عز عليه أن يعذبوا دونه ، فرد جوار الوليد ، ثم مضى إلى الكعبة فوجد لبيد بن ربيعة في المجلس من قريش ينشدهم، فجلس معهم عثمان ، فقال لبيد وهو ينشدهم :

(ألا كل شيء ما خلا الله باطل) . .

فقال عثمان : صدقت . فقال :

(وكل نعيم لا محالة زائل) .

فقال عثمان : كذبت ، نعيم أهل الجنة لا يزول ، فقال لبيد : يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث فيكم =

وكان من نتيجة تأثر هذا الشاعر العربي العملاق ببلاغة القرآن أنه هجر الشعر ، وقد قال له عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوماً : يا أبا عقيل : أنشدني شيئاً من شعرك ، فقرأ سورة البقرة ، وقال : ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علمني الله سورة البقرة وآل عمران[١] .

وأما الحادث الثاني فهو أغرب من الأول ، وهو عن ابن المقفع ، أورده المستشرق (وُلاستن) في كتابه ، وعلق عليه قائلاً :

"... that Muhammad's boast as to the literary excellence of the Quran was not unfounded, is further evidenced by a circumstance, which occured about a century after the establishment of Islam."

« ... إن اعتداد محمد بالإعجاز الأدبي للقرآن لم يكن على غير أساس ، بل يؤيده حادث وقع بعد قرن من قيام دعوة الإسلام[٢] . »

والحادث ، كما جاء على لسان المستشرق ، هو أن جماعة من الملاحدة والزنادقة أزعجهم تأثير القرآن الكبير في عامة الناس ، فقرروا مواجهة تحدي القرآن ، واتصلوا ، لإتمام خطتهم ، بعبد الله بن المقفع (٧٢٧ م) ، وكان أديباً كبيراً ، وكاتباً ذكياً ، يُعْتَدّ بكفاءته ، فقبل الدعوة للقيام بهذه المهمة .. وأخبرهم أن هذا العمل سوف يستغرق سنة كاملة ، واشترط عليهم أن يتكفلوا بكل ما يحتاج إليه خلال هذه المدة ..

= هذا ؟ إلى آخر الخبر ، ومفهوم هذا أن لبيداً قد بقي على جاهليته حتى أسلم سنة تسع ، ويذكر ابنه قتيبة أنه لم يقل في إسلامه غير بيت واحد هو :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي   حتى كساني من الإسلام سربالا

وقيل هو قوله :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه   والمرء يصلحه الجليس الصالح .

(المراجع)

(١) انظر في هذا الخبر : الشعر والشعراء لابن قتيبة السابق .

(٢) *Mohammad: His Life & Doctrine*, p. 143.

ولما مضى على الاتفاق نصف عام ، عادوا إليه ، وبهم تطلع إلى معرفة ما حققه أديبهم لمواجهة تحدي رسول الإسلام ؛ وحين دخلوا غرفة الأديب الفارسي الأصل ، وجدوه جالساً والقلم في يده ، وهو مستغرق في تفكير عميق ، وأوراق الكتابة متناثرة أمامه على الأرض ، بينما امتلأت غرفته بأوراق كثيرة ، كتبها ثم مزّقها .

لقد حاول هذا الكاتب العبقري أن يبذل كل مجهود ، عساه أن يبلغ هدفه ، وهو الرد على تحدي القرآن المجيد .. ولكنه أصيب بإخفاق شديد في محاولته هذه ، حتّى اعترف أمام أصحابه ، والخجل والضيق يملكان عليه نفسه ، أنه ، على الرغم من مضي ستة أشهر ، حاول خلالها أن يجيب على التحدي ، فإنه لم يفلح في أن يأتي بآية واحدة من طراز القرآن ! وعندئذ تخلى ابن المقفع عن مهمته ، مغلوباً مستخذياً ..[1]

• • •

وهكذا لا يزال تحدي القرآن الكريم قائماً ومستمراً على مر القرون والأجيال ، وهي خاصة عظيمة ورائعة في صالح القرآن، تثبت، دون مرية ، أنه كلامُ مَنْ هو فوق الطبيعة . وأي إنسان يتمتع بكفاءة التفكير والإمعان ، في حقيقة الأمر ، يكفيه ذلك ليؤمن بهذا الكتاب ..

ومما لا شك فيه أن العرب ــ وهم الذين لم يعرف لهم مثيل في التاريخ ، في البلاغة والبيان ، حتّى أطلقوا على غيرهم اسم « العجم » لشدة اعتزازهم ببيانهم ــ قد اضطروا أن يركعوا أمام القرآن، معترفين بعجزهم عن الإتيان

---

(١) وردت في التاريخ أمثلة أخرى حاول أصحابها مواجهة هذا التحدي ، غير أنهم أخفقوا إخفاقاً ذريعاً ، ومن هؤلاء : مسيلمة بن حبيب الكذاب ، وطليحة بن خويلد الأسدي ، والنضر بن الحارث ، وأبو الحسين أحمد بن يحيى المعروف بابن الراوندي ، وأبو الطيب المتنبي ، وأبو العلاء المعري ، صاحب كتاب « الفصول والغايات في مجاراة السور والآيات » ، أنظر للتفصيل كتاب الرافعي : إعجاز القرآن ــ المترجم .

بمثله ، فلزمتهم بذلك الحجة ..

ومما جاء في كتب الحديث عن ابن عباس أن (ضماداً) قدم مكة . وكان من ازدِ شنوءةَ . وكان يرقى[1] من هذه الريح (الجنون ومس الجن) . فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون : إن محمداً مجنون . فقال : لو أني رأيت هذا الرجل ، لعل الله يشفيه على يديّ . قال : فلقيه ؛ فقال : يا محمد ! إني أرقى من هذه الريح ، وإن الله يشفى على يدى من شاء ، فهل لك ؟ فقال رسول الله : « إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، من يهده فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أما بعد . » قال : فقال : أعد عليّ كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، قال : فقال : « لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن ناعوس البحر (قعره الأقصى[2]) » .

إن هناك عدداً لا يحصى من الاعترافات التي أدلى بها أرباب الشعر والأدب والفكر ، في شأن القرآن الكريم ، سُطِّرَتْ في صفحات التاريخ القديم ، كما أنها توجد بكثرة في تاريخ العصر الحاضر .

---

(١) من الرقية ، وهي العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة .

(٢) صحيح مسلم ٢/٥٩٣ – حديث رقم ٨٦٨ طبعة محمد فؤاد عبد الباقي . وبقية الحديث كما في الصحيح : قال : فقال : هات يدك أبايعك على الإسلام ، قال : فبايعه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وعلى قومك » ، قال : وعلى قومي . قال : فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فمروا بقومه ، فقال صاحب السرية للجيش : هل أصبتم من هؤلاء شيئاً ؟ فقال رجل من القوم : أصبت منهم مطهرة ، فقال : ردوها فإن هؤلاء قوم ضماد .

وتفسير (ناعوس البحر) بأنه : قعره الأقصى – منقول عن صحيح مسلم ، من إضافة شارحه ، وهي كلمة غير معروفة من كلام العرب ، قال ابن الأثير في (النهاية في غريب الحديث ٥/ ٨١) عن أبي موسى : « هكذا وقع في صحيح مسلم ، وفي سائر الروايات : (قاموس البحر) أي : وسطه ولجته » . أقول : ولعلها لهجة ضماد . المراجع

ثانياً ـــ نبوءات القرآن

الجانب الثاني من عظمة القرآن الكريم يتجلى في تنبؤاته المختلفة ، التي ثبتت صحتها فيما بعد بطرق عجيبة .

إن عدداً كبيراً من أذكياء الناس، ومن العباقرة، قد جرؤوا على أن يتنبأوا عن أنفسهم أو عن غيرهم . ولكننا نعرف أن الزمان لم يصدق هذه النبوءات مطلقاً ، بل جاء يكذبها بكل قسوة . ولقد تحفز الفرص المواتية ، والأحوال المساعدة ، والكفاءات العالية ، وكثرة الأعوان والأنصار ، والنجاح الخارق في البداية ، الكثيرين ــ وهم يرون أنهم يسيرون تجاه نتائج مرضية ــ أن يتنبأوا بنتيجة معينة بكل يقين ، ولكن الزمن يبطل هذه الدعاوى ويكذبها دائماً .. والزمن نفسه هو الذي أثبت صحة ما جـــاء في القرآن من التنبؤات في حين أنها جميعـــاً جاءت في أحوال غير مواتية . إن هـــذه التنبؤات ـــ وقد وقعت فعلاً على ما يحدثنا التاريخ ـــ تجعل علومنا المادية حائرة عند تفسيرها . وما دمنا ندرسها في ضوء علومنا المادية ، فلن نستطيع إدراك حقائقها ، إلا أن ننسبها إلى مصدر غير بشري ..

° ° °

كان نابليون بونابرت من أعظم قواد الجيوش في عصره ، وقد دلت فتوحاته الأولى على أنه سوف يكون ندا لقيصر، والإسكندر المقدوني . وترتب على ذلك أن وجد الغرور منفذه إلى رأس نابليون ، فأصبح يتوهم أنه هو مالك القدر ، وازداد هذا الشعور لديه ، حتى إنه ترك مستشاريه ، وادعى

أنه لم يكتب في قدره غير الغلبة الكاملة على من في الأرض . ولكنا جميعاً نعرف النهاية التي كتبت له في لوح القدر .

سار **نابليون** من باريس يوم ١٢ من يونيه ، سنة ١٨١٥ ، مع جحفله العظيم ، ليقضي على أعدائه وهم في الطريق ، ولم تمض غير ستة أيام حتى ألحق « دوق ولنجتون » شر هزيمة بجيش نابليون الجبار، في « ووترلو » بأراضي بلجيكا . وكان (الدوق) يقود جنود انجلترا وألمانيا وهولندا . ولما يئس نابليون ، وأيقن من مصيره المحتوم ، فر هارباً من القيادة الفرنسية متوجهاً إلى أمريكا ، ولم يكد يصل إلى الشاطىء ، حتى ألقت شرطة السواحل القبض عليه ، وأرغمته على ركوب سفينة تابعة للبحرية البريطانية ، وانتهى به القدر إلى أن أرسل إلى جزيرة غير معمورة بجنوب الأطلنطي ، هي جزيرة « سانت هيلينا » . ومات القائد العسكري في هذه الجزيرة بعد سنوات طويلة من البؤس والشقاء والوحدة ، في ٥ من مايو سنة ١٨٢١ .

• • •

و**البيان الشيوعي** المعروف ، الذي صدر سنة ١٨٤٨ ، تنبأ بأن أول البلاد التي ستقود الثورة الشيوعية هي (ألمانيا) ؛ ولكن ألمانيا ، على الرغم من مضي مائة وعشرين عاماً من هذه النبوءة ، لا تزال صفحات تاريخها خالية من مثل هذه الثورة .

ولقد كتب **كارل ماركس** في مايو سنة ١٨٤٩ قائلاً : « إن الجمهورية الحمراء تبزغ في سماء باريس ! » ورغم أنه قد مر على هذه النبوءة أكثر من قرن ، فإن شمس الجمهورية الحمراء البازغة لم تشرق على أهالي باريس !

• • •

وقد قال **أدولف هتلر** في خطابه الشهير الذي ألقاه بميونيخ في ١٤ من مارس سنة ١٩٣١ :

« إنني سائر في طريقي، واثقاً تمام الثقة بأن الغلبة والنصر قد كُتبا لي[1] ».
والعالم بأجمعه يعرف اليوم أن الذي كتب في قدر الجنرال الألماني العظيم كان هو الهزيمة والانتحار ..

• • •

وقد شاهدنا وقائع عديدة من هذه النبوءات المضحكة في « الهند » .. فقد أعلن زعيم الشيوعيين : س.ب.جوشي ، في المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي الهندي ، الذي انعقد في (مدوراى) بجنوب الهند ، في يناير سنة ١٩٥٤ ، بأن الحزب الشيوعي سوف يحكم ، مستقلاً بنفسه ، في الانتخابات العامة القادمة ، في ولايات : ترابونكور – كوتشين (كيرالا) ، ومدراس ، وآندهرا ، والبنغال الغربية ، وآسام . وبعد أجريت ثلاثة انتخابات عامة (وانتخابات تكميلية أخرى) في هذه المدة الطويلة ، ولم يستطع الحزب الشيوعي تأليف وزارة مستقلة في أية ولاية من ولايات الهند[2] .

• • •

وسط هذه الجحافل من المتنبئين والنبوءات ، لا نجد غير « القرآن » الذي تحققت نبوءاته حرفاً حرفاً ، وهذا الواقع يكفي في ذاته لإثبات أن هذا الكلام صادر عن عقل وراء الطبيعة ، يمسك بزمام الأحوال والحوادث ، وهو على معرفة بكل ما سيحدث منذ الأزل إلى الأبد .

وسوف نورد هنا خبرين من التنبوءات الكثيرة التي أدلى بها رسول

---

(١) *A Study of History* (Abridgment) p. 447.

(٢) تمكن الحزب الشيوعي من تأليف وزارة ائتلافية في كيرالا ، في الانتخابات العامة لسنة ١٩٦٧ ، كما تمكنت « الجبهة المتحدة » في البنغال الغربية من تأليف وزارة ائتلافية في الانتخابات التكميلية التي أجريت في الولاية في ١٩٦٩ ، ويتمتع الشيوعيون بالأغلبية في الجبهة المتحدة . ومعروف أن الشيوعيين لم يحصلوا على هذه المقاعد إلا بعد أن باعوا ضمائرهم إلى أسيادهم في بكين مقابل المساعدات المالية . المترجم

الإسلام ، وتحققت بكاملها . والشهادتان اللتان سنذكرهما ، تتعلق إحداهما بغلبة الإسلام نفسه ، على حين تتعلق بغلبة الروم مرة أخرى ..

° ° °

(أ) – عندما بدأ النبي صلى الله عليه وسلم دعوته وقفت الجزيرة العربية كلها ضده ، وكان على النبي مواجهة ثلاث جبهات في وقت واحد :

أولاها : القبائل المشركة ، بعد أن أصبحوا أعداء حياته .

وثانيتها : الرأسمالية اليهودية .

وثالثتها : أولئك المنافقون الذين تسربوا داخل المسلمين للقضاء على حركتهم ، من داخل معاقلهم .

وكان الرسول يجاهد في سبيل رسالته السامية على كل هذه الجبهات : قوة المشركين ، والرأسمالية اليهودية ، والطابور الخامس . وقد وقف أمام هذا الطوفان الطاغي وقفات رائعة لا مثيل لها ، ولم يسانده في مواقفه غير حفنة من المهاجرين والأنصار ، وجماعة أسلمت من العبيد . ومما لا شك فيه أنه قد انضم إليه بعض كبار قريش ، ولكن سرعان ما انقطعوا عن أهلهم وذويهم ، وعادتهم قريش كمعاداتها النبي .

وقد سارت هذه الحركة بمكة قُدُماً ، تكافح وتناضل ، حتى أصبحت الأمور غاية في السوء ، واضطر النبي وأصحابه أن يهاجروا إلى جهات مختلفة ، حتى اجتمع شملهم في المدينة المنورة ، وهم في أشد حالات العوز والفقر ، بعدما تركوا ثرواتهم في مكة – موطنهم الأصلي . ويمكن قياس بؤس هؤلاء المهاجرين بتلك الجماعة التي عاشت في المسجد النبوي ، حيث لم تكن لديهم بيوت ، وكانوا ينامون على « صُفَّة » في فناء المسجد النبوي ، فأطلق عليهم : « أهل الصُفَّة » . ومما روى في كتب التاريخ أن تعداد هؤلاء الصحابة الكرام ، الذين عاشوا على « الصفة » ، بلغ في بعض الأحيان أربعمائة صحابي .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : رأيت سبعين من أهل الصُّفَّة يصلون في ثوب ، فمنهم من يبلغ ركبتيه ، ومنهم من هو أسفل من ذلك ؛ فإذا ركع أحدهم قبض عليه ، مخافة أن تبدو عورته ..

وعنه (أبي هريرة) رضي الله عنه أنه قال : « لقد رأيتني أصْرَع بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين حجرة عائشة رضي الله تعالى عنها ، فيقول الناس : إنه مجنون ، وما بي جنون ، ما بي إلا الجوع ! ».

° ° °

وفي هذه الحالة البائسة ، حيث كان المسلمون في أسوأ أحوالهم ؛ مكشوفين في عراء المدينة المنورة ، خائفين، يترقبون الأعداء من كل جانب ، مخافة أن يتخطفوهم في أي وقت ؛ في هذه الحالة نجد القرآن يبشرهم مرة بعد أخرى :

« كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أنَا وَرُسُلِي . »[1]

وقال أيضاً :

«يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأفْوَاهِهِمْ ، واللهُ مُتِمّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُون. هُوَ الّذِي أرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلّهِ ، وَلَوْ كَرِهَ المشركون[1] » .

ولم تمض على هذه البشرى أيام طويلة ، حتى وجد المسلمون الجزيرة العربية كلها تحت أقدامهم ؛ فقد انتصرت أقلية ضئيلة لا تملك الخيول ولا الأسلحة ، على أعداء يملكون الجيوش الكبيرة، والعدة ، والعتاد .

وليس بوسعنا تفسير هذه التنبؤات في ضوء المصطلحات المادية ، إلا أن نسلم بأن صاحب هذا الإخبار بالغيب لم يأت به من عند نفسه ، وإنما كان

---

(١) المجادلة / ٢١ . (٢) الصف/٨ و ٩ .

خليفة عن الله ؛ فلو أنه كان إنساناً عادياً لاستحال كل الاستحالة أن تصنع كلماته أقدار التاريخ. وكما قال البروفيسور (ستوبارت): «إنه لا يوجد مثال واحد في التاريخ الإنساني بأكمله يقارب شخصية محمد.».
وهو يضيف قائلاً:

«ألا .. ما أقل ما امتلكه من الوسائل المادية، وما أعظم ما جاء به من البطولات النادرة، ولو أننا درسنا التاريخ من هذه الناحية، فلن نجد فيه اسماً منيراً هذا النور، وواضحاً هذا الوضوح، غير اسم النبي العربي[1]».

إن هذا الأمر هو أعظم دليل على كونه صلى الله عليه وسلم مرسلاً من لدن الحق تبارك وتعالى. وقد اعترف السير وليام ميور، ذلك العدو اللدود للإسلام، بهذا الأمر بطريقة غير مباشرة، حين قال:

«لقد دفن محمد مؤامرات أعدائه في التراب، وكان يثق بانتصاره ليل نهار، مع حفنة من الأنصار والأعوان، رغم أنه كان مكشوفاً عسكرياً من كل ناحيـــة، وبعبارة أخرى: كان يعيش في عرين الأسد، ولكنه أظهر عزيمة جبارة، لا نجد لها نظيراً غير ما ذكر في الإنجيل، من أن نبياً قال لله تعالى: «لم يبق من قومي إلا أنا[2]»!

• • •

ب ـ أما النبوءة الثانية التي وردت في القرآن، فهي الإخبار بغلبة الروم على الفرس. وقد جاء في أول سورة الروم قوله تعالى:

«بسم الله الرحمن الرحيم. ألم. غُلِبَتِ الرّومُ في أدْنَى الأرْضِ

---

(1) *Islam & Its Founder*, p. 228

(2) *Life of Mohammad*, p. 228 — وربما يذكرنا هذا الاقتباس بقول القرآن حكاية على لسان موسى عليه السلام: «رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي» – المائدة/٢٥ المراجع.

وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ . »

كانت الامبراطورية الفارسية تقع شرقي الجزيرة العربية ، على الساحل الآخر للخليج العربي ، على حين كانت الامبراطورية الرومانية تمتد من غربي الجزيرة على ساحل البحر الأحمر إلى ما فوق البحر الأسود . وقد سميت الأولى – أيضاً – بالامبراطورية الساسانية ، والأخرى بالبيزنطية . وكانت حدود الامبراطوريتين تصل إلى الفرات ودجلة ، في شمال الجزيرة العربية . وكانتا أقوى حكومتين شهدهما ذلك العصر .

ويبدأ تاريخ الامبراطورية الرومانية – كما يرى المؤرخ « جِبُن » – في القرن الثاني بعد الميلاد ، وكانت تتمتع حينئذ بمكانتها كأرقى دولة حضارية في العالم .

وقد شغل المؤرخين تاريخ زوال الروم ، كما لم يشغلهم زوال أية حضارة أخرى [١] . وليس يغني كتاب من الكتب التي ألفت حول هذا الموضوع عن الكتب الأخرى ، ولكن يمكن اعتبار كتاب المؤرخ « إدوارد جبن » : « تاريخ سقوط واندحار الامبراطورية الرومانية »[٢] أكثرها تفصيلاً وثقة ، وقد ذكر المؤرخ في الجزء الخامس من كتابه الوقائع المتعلقة ببحثنا هنا .

• • •

اعتنق الملك « قسطنطين » الدينَ المسيحي عام ٣٢٥ م ، وجعله ديانة البلاد الرسمية ، فآمنت بها أكثرية رعايا الروم . وعلى الجانب الآخر ، رفض الفرس – عباد الشمس – هذه الدعوة .

---

(١) *Western Civilization*, p. 210.

(٢) *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*, by Edward Gibbon.

وكان الملك الذي تولى زمام الامبراطورية الرومانية في أواخر القرن السابع الميلادي هو « موريس » ، وكان ملكاً غافلاً عن شئون البلاد والسياسة ، ولذلك قاد جيشه ثورةً ضده ، بقيادة « فوكاس » Phocas . وأصبح فوكاس ملكَ الروم ، بعد نجاح الثورة ، والقضاء على العائلة الملكية بطريقة وحشية ؛ وأرسل سفيراً له إلى امبراطور إيران « كسرى أبرويز الثاني » ، وهو ابن « أنو شيروان » العادل .

وكان « كسرى » هذا مخلصاً للملك « موريس » ، إذ كان قد لجأ إليه عام ٥٩٠ – ٥٩١ م ، بسبب مؤامرة داخلية في الامبراطورية الفارسية ، وقد عاونه « موريس » بجنوده لاستعادة العرش . ومما يروى أيضاً أن « كسرى » تزوج بنت « موريس » ، أثناء إقامته ببلاد الروم ، ولذلك كان يدعوه « بالأب » .

ولما عرف بأخبار انقلاب الروم ، غضب غضباً شديداً ، وأمر بسجن السفير الرومي ، وأعلن عدم اعترافه بشرعية حكومة الروم الجديدة .

وأغار « كسرى أبرويز » على بلاد الروم ، وزحفت جحافله عابرة نهر الفرات إلى الشام . ولم يتمكن « فوكاس » من مقاومة جيوش الفرس التي استولت على مدينتي « أنطاكية والقدس » ، فاتسعت حدود الامبراطورية الفارسية فجأة إلى وادي النيـــل . وكانت بعض الفرق المسيحية – كالنسطورية واليعقوبية – حاقدة على النظام الجديد في روما ، فناصرت الفاتحين الجدد ، وتبعها اليهود ، مما سهل غلبةَ الفرس .

• •

وأرسل بعض أعيان الروم رسالة سرية إلى الحاكم الرومي في المستعمرات الإفريقية ، يناشدونه إنقاذ الامبراطورية ، فأرسل الحاكم جيشاً كبيراً بقيادة ابنه الشاب « هرقل » ، فسار بجيشه في الطريق البحرية ، بسرية تامة .. حتى إن « فوكاس » لم يدر بمجيئهم إلا عندما شاهد الأساطيل ، وهي

تقرّب من السواحل الرومانية ، واستطاع هرقل – دون مقاومة تذكر – أن يستولي على الامبراطورية ، وقَتَل « فوكاس » الخائن .

بيد أن هرقل لم يتمكن – برغم استيلائه على الامبراطورية ، وقتله « فوكاس » – من إيقاف طوفان الفرس .. فضاع من الروم كل ما ملكوا من البلاد في شرقي العاصمة وجنوبيها . لم يَعُد العلم الصليبي يرفرف على العراق والشام وفلسطين ومصر وآسيا الصغرى ، بل علتْها راية الفرس : « دُرَفْشِ كاوياني » ! ! وتقلصت الامبراطورية الرومانية في عاصمتها ، وسُدت جميع الطرق في حصار اقتصادي قاس ؛ وعم القحط ؛ وفشت الأمراض الوبائية ؛ ولم يبق من الامبراطورية غير جذور شجرها العملاق . وكان الشعب في العاصمة خائفاً يترقب ضربَ الفرس للعاصمة ، ودخولهم فيها ؛ وترتب على ذلك أن أغلقت جميع الأسواق ، وكسدت التجارة ؛ وتحولت معاهد العلم والثقافة إلى مقابر موحشة مهجورة .

وبدأ عباد النار يستبدون بالرعايا الروم ، للقضاء على المسيحية .. فبدءوا يسخرون علانيـــة من الشعائر الدينية المقدسة ، ودمروا الكنائس ، وأراقوا دماء ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ من المسيحيين المسالمين ، وأقاموا بيوت عبادة النار في كل مكان ، وأرغموا الناس على عبادة الشمس والنار ، واغتصبوا الصليب المقدس وأرسلوه إلى « المدائن » .

ويقول المؤرخ « جبن » في المجلد الخامس من كتابه :

« ولو كانت نوايا « كسرى » طيبة ، في حقيقة الأمر ، لكان اصطلح مع الروم ، بعد قتلهم « فوكاس » ، ولاستقبل « هرقل » كخير صديق أخذ بثأر حليفه وصاحب نعمته « موريس » ، بأحسن طريقة ؛ ولكنه أبان عن نواياه الحقيقية عندما قرر مواصلة الحرب . »[1] .

ويمكن قياس الهوة الكبرى التي حدثت بين الروم والفرس من خطاب وجهه « كسرى » إلى « هرقل » ، من بيت المقدس ، قائلا :

---

(١) كتاب جبن / مجلد / ٥ ص ٧٤ .

« من لدن الإله كسرى ، الذي هو أكبر الآلهة ، وملك الأرض كلها ، إلى عبده اللئيم الغافل : هرقل . إنك تقول : إنك تثق في إلهك ! فلماذا لا ينقذ إلهك القدس من يديّ ؟ ! »

واستبد اليأس والقنوط بهرقل من هذه الأحوال السيئة ، وقرر العودة إلى قصره الواقع في « قرطاجنة » على الساحل الإفريقي .. فلم يعد يهمه أن يدافع عن الامبراطورية ، بل كان شغله الشاغل إنقاذ نفسه . وأرسلت السفن الملكية إلى البحر ، وخرج « هرقل » في طريقه ليستقل إحدى هذه السفن إلى منفاه الاختياري .

وفي هذه الساعة الحرجة تحايل كبير أساقفة الروم باسم الدين والمسيح ، ونجح في إقناع « هرقل » بالبقاء ، وذهب « هرقل » مع الأسقف إلى قربان « سانت صوفيا » يعاهد الله تعالى على أنه لن يعيش أو يموت إلا مع الشعب الذي اختاره الله له .

وبإشارة من الجنرال الإيراني سين (Sain) أرسل « هرقل » سفيراً إلى « كسرى » طالباً منه الصلح ؛ ولكن لم يكد القاصد الرومي يصل إلى القصر ، حتى صاح « كسرى » في غضب شديد : « لا أريد هذا القاصد ! وإنما أريد « هرقل » مكبلاً بالأغلال تحت عرشي ؛ ولن أصالح « الرومي » حتى يهجر إلهه ، الصليبي ، ويعبد الشمس إلهتنا ! »[1] .

• • •

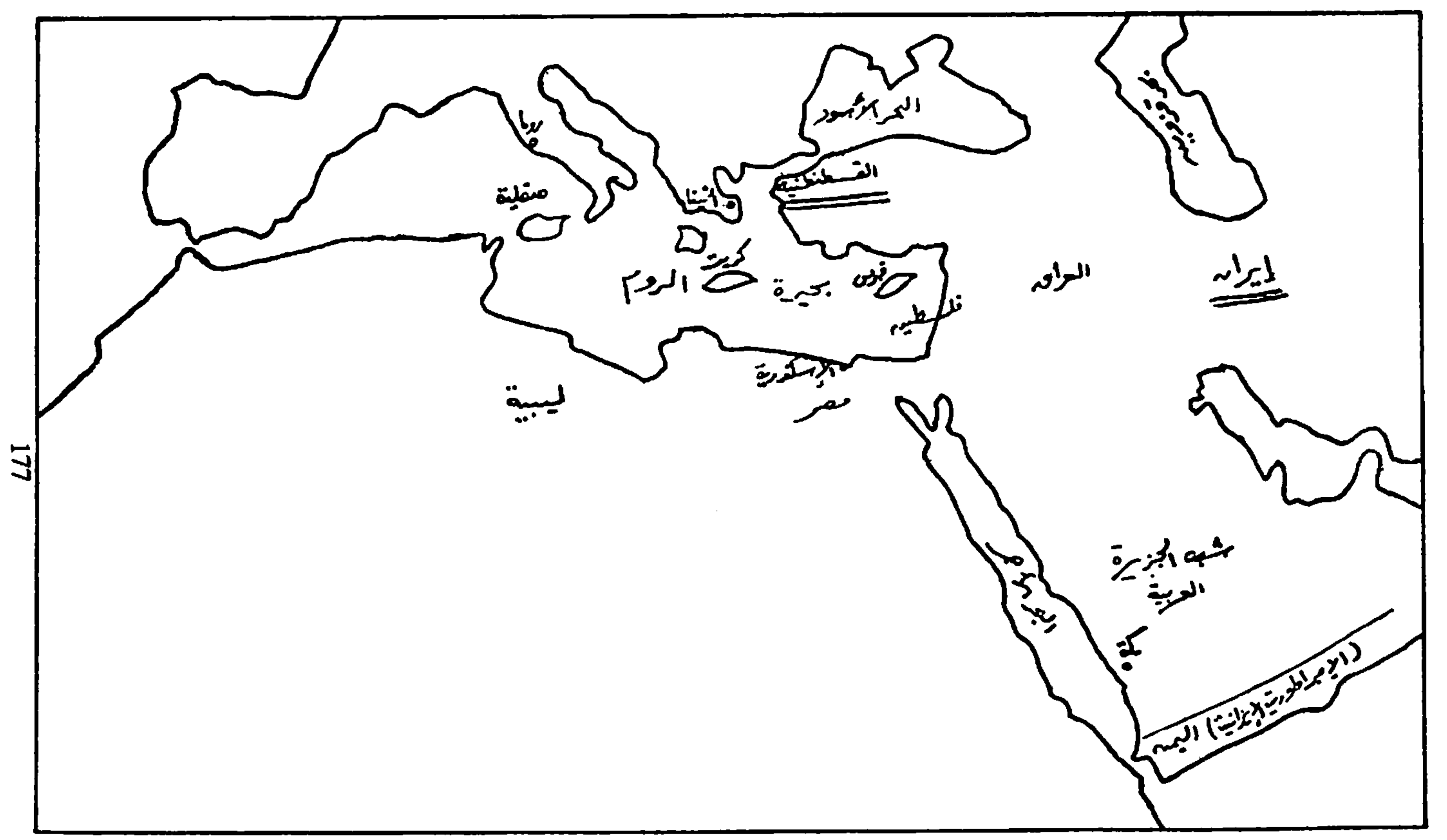
وبعد مضي ستة أعوام على الحرب ، رضي الامبراطور الإيراني أن يصالح « هرقل » على شروط معينة ، هي أن يدفع ملك الروم :

« ألف تالنت[2] من الذهب ، وألف تالنت من الفضة ، وألف

---

(١) (ص - ٧٦ - ج ٥) .

(٢) Talent ، ميزان يوناني قديم ، حوالي ستة وعشرين كيلو جراماً ، لدى الأثينيين ، وقد يطلق على كمية النقود الذهبية أو الفضية التي تزنه (المراجع)



خريطة الامبراطوريتين : الفارسية والرومانية

ثوب[1] من الحرير ، وألف جواد ، وألف فتاة عذراء . »

ويصف « جبن » هذه الشروط بأنها « مخزيـة » دون شك ، وكان من الممكن أن يقبلها « هرقل » ، لولا المدة القصيرة التي أتيحت له لدفعها من المملكة المنهوبة ، والمحدودة الأرجاء ؛ ولذلك آثر أن يستعمل هذه الثروة ، كمحاولة أخيرة ، ضد أعدائه .

° • °

وبينما سيطرت على العاصمتين الفارسية والرومية هذه الأحداث ، فقد سيطرت على شعب العاصمة المركزية في شبه الجزيرة العربية — وهي « مكة » المكرمة — مشكلة مماثلة : كان الفرس مجوساً ، من عباد الشمس والنار ، وكان الروم من المؤمنين بالمسيح ، وبالوحي ، وبالرسالة ، وبالله تعالى . وكان المسلمون مع الروم — نفسياً — يرجون غلبهم على الكفـار والمشركين ، كما كان كفار مكة مع الفرس ، لكونهم من عباد المظاهر المادية . وأصبح الصراع بين الفرس والروم رمزاً خارجياً للصراع الذي كان يدور بين أهل الإسلام وأهل الشرك في « مكة » . وبطريقة نفسية كانت كل من الجماعتين تشعر بأن نتيجة هذا الصراع الخارجي هي نفس مآل صراعهما الداخلي . فلما انتصر الفرس على الروم عام ٦١٦ م. ، واستولوا على جميع المناطق الشرقية من دولة الروم ، انتهزها المشركون فرصة للسخرية من المسلمين ، قائلين : لقد غلب إخواننا على إخوانكم ، وكذلك سوف نقضي عليكم ، إذا لم تصطلحوا معنا ، تاركين دينكم الجديد ! ! وكان المسلمون بمكة في أضعف وأسوأ أحوالهم المادية ، وفي تلك الحالة البائسة ، صدرت كلمات من لسان الرسول صلى الله عليه وسلم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . ألم . غُلِبَتِ الرّومُ في أدْنَى الأرْضِ .

---

(١) الثوب : ثلاثون متراً من القماش تقريباً — المراجع .

وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ ، للهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعْدَ اللهِ ، لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ . » – الروم : ١ – ٦ .

وتعليقاً على هذه النبوءة يكتب « جبن » .

« في ذلك الوقت ، حين تنبأ القرآن بهذه النبوءة ، لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعاً ، لأن السنين الاثنتي عشرة الأولى من حكومة « هرقل » كانت تؤذن بانتهاء الامبراطورية الرومانية[1] »

ولكن من المعلوم أن هذه النبوءة جاءت من لدن من هو مهيمن على كل الوسائل والأحوال ، ومن بيده قلوب الناس وأقدارهم ، ولم يكد جبريل يبشّر النبي بهذه البشرى ، حتى أخذ انقلاب يظهر على شاشة الامبراطورية الرومانية ! !

ويرويه « جبن » على النحو التالي :

« إنها من أبرز البطولات التاريخية ، تلك التي نراها في « هرقل » . فقد ظهر هذا الامبراطور غاية في الكسل والتمتع بالملذات وعبادة الأوهام ، في السنين الأولى والأخيرة من حكومته ، كان يبدو كما لو كان متفرجاً أبله ، استسلم لمصائب شعبه ، ولكن الضباب الذي يسود السماء ساعتي الصباح والمساء ، يغيب حيناً من الوقت لشدة شمس الظهيرة ؛ وهذا هو ما حدث بالنسبة إلى هرقل ، فقد تحول « أرقاديوس[2] القصور » إلى « قيصر ميدان الحرب[3] » فجأة ، واستطاع أن يستعيد مجد الروم خلال

---

(١) ص – ٧٤ ، المجلد ٥ .

(٢) أرقاديوس (٣٧٧ – ٤٠٨ م) ، أحد أباطرة الرومان ، وهو الابن الأكبر لتيودوس الأول ، تولى العرش سنة ٣٩٥ م . واشتهر بالجبن . (المراجع)

(٣) قيصر أو « سيزار » (١٤٤ – ١٠١ ق.م.) قائد وسياسي رومي عظيم .

ست حروب شجاعة شنّها ضد الفرس . وكان من واجب المؤرخين الروم أن يزيحوا الستار عن الحقيقة ، تبياناً لأسرار هذه اليقظة والنوم ، وبعد هذه القرون التي مضت يمكننا الحكم بأنه لم تكن هناك دوافع سياسية وراء هذه البطولة ، بل كانت نتيجة غريزة هرقل الذاتية ، فقد انقطع عن كافة الملذات ، حتى إنه هجر ابنة أخته « مارتينا » – التي تزوجها لشدة هيامه بها ، رغم أنها كانت محرمة عليه[1] » .

• • •

هرقل – ذلك الملك الغافل الفاقد العزيمة – وضع خطة عظيمة لقهر الفرس ، وبدأ في تجهيز العدة والعتاد ، ولكن رغم ذلك كله ، عندما خرج هرقل مع جنوده ، بدا لكثيرين من سكان « القسطنطينية » أنهم يرون آخر جيش في تاريخ الامبراطورية البيزنطية .

وكان هرقل يعرف أن قوة الفرس البحرية ضعيفة ، ولذلك أعد بحريته للإغارة على الفرس من الخلف . وسار بجيوشه عن طريق البحر الأسود إلى « أرمينيا » ، وشن على الفرس هجوماً مفاجئاً في نفس الميدان الذي هزم فيه الإسكندر جيوش الفرس ، لما زحفَ على أراضي مصر والشام . ولم يستطع الفرس مقاومة هذه الغارة المفاجئة ، فلاذوا بالفرار .

وكان الفرس يملكون جيشاً كبيراً في « آسيا الصغرى » ، ولكن « هرقل » فاجأهم بأساطيله مرة أخرى ، وأنزل بهم هزيمة فادحة ، وبعد إحراز هذا النصر الكبير عاد « هرقل » إلى عاصمته « القسطنطينية » عن طريق البحر ، وعقد معاهدة مع الأفاريين (Avars) ، واستطاع بنصرتهم أن يسد سيل الفرس عند عاصمتهم .

وبعد الحربين اللتين مر ذكرهما شن هرقل ثلاث حروب أخرى ضد

---

(١) ص – ٧٧ – ٧٦ ، المجلد الخامس .

الفرس في سنوات ٦٢٣ و ٦٢٤ و ٦٢٥ م . واستطاع أن ينفذ إلى أراضى العراق القديم (ميسو بوتانيا) عن طريق البحر الأسود ، واضطر الفرس إلى الانسحاب من جميع الأراضي الرومية ، نتيجة هذه الحروب ، وأصبح « هرقل » في مركز يسمح له بالتوغل في قلب الامبراطورية الفارسية ، وكانت آخر هذه الحروب المصيرية — تلك الحرب التي خاضها الفريقان في « نينوا » على ضفاف « دجلة » في ديسمبر عام ٦٢٧ م .

• • •

ولما لم يستطع « كسرى أبرويز » مقاومة سيل الروم ، حاول الفرار من قصره الحبيب « دستگرد » ، ولكن ثورة داخلية نشبت في الامبراطورية ، واعتقله ابنُه « شيرويه » ، وزج به في سجن داخل القصر الملكي ، حيث لقي حتفه ، لسوء الأحوال ، في اليوم الخامس من اعتقاله ، وقد قتل ابنُه « شيرويه » ثماني عشرة من أبناء أبيه (كسرى) أمام عينيه .

ولكن « شيرويه » هو الآخر لم يستطع أن يجلس على العرش أكثر من ثمانية أشهر ، حيث قتله أحد أشقائه ، وهكذا بدأ القتال داخل البيت الملكي ، وتولى تسعة ملوك زمام الحكم في غضون أربعة أعوام . ولم يكن من الممكن ، أو المعقول ، في هذه الأحوال السيئة ، أن يواصل الفرس حربهم ضد الروم .. فأرسل « قباد الثاني » ابن كسرى أبرويز الثاني يرجو الصلح ، وأعلن تنازله عن الأراضي الرومية ، كما أعاد الصليب المقدس ، ورجع « هرقل » إلى عاصمته « القسطنطينية » في مارس عام ٦٢٨ م ، في احتفال رائع ، حيث كان يجرّ مركبته أربعة أفيال ، واستقبلته آلاف مؤلفة من الجماهير ، خارج العاصمة ، وفي أيديهم المشاعل وأغصان الزيتون[1] !!

• • •

---

(١) جبن : ص — ٩٤ ، ج — ٥ .

وهكذا صَدَقَ ما تنبأ به القرآن الكريم عن غلبة الروم في مدته المقررة ، أي في أقل من عشر سنين ، كما هو المراد في لغة العرب من كلمة : « بضع » !

وقد أبدى « جبن » حيرته وإعجابه بهذه النبوءة ، ولكنه كي يقلل من أهميتها ربطها برسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى « كسرى » .

يقول جبن :

« وعندما أتم الامبراطور الفارسي نصره على الروم وصلتْه رسالة من مواطن خامل الذكر ، من « مكة » ؛ دعاه إلى الإيمان بمحمد ، رسول الله ، ولكنه رفض هذه الدعوة ومزّق الرسالة . وعندما بلغ هذا الخبرُ رسولَ العرب ، قال : سوف يمزق الله دولتَه تمزيقاً ، وسوف يقضي على قوته .

« ومحمد ، الذي جلس في الشرق على حاشية الامبراطوريتين العظيمتين ، طار فرحاً ، مما سمع عن تصارع الامبراطوريتين وقتالهما ، وجروْ في إبان الفتوحات الفارسية وبلوغها القمة ، أن يتنبأ بأن الغلبة سوف تكون لراية الروم بعد بضع سنين . وفي ذلك الوقت، حين ساق الرجل هذه النبوءة ، لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعاً ، لأن الأعوام الاثني عشر الأولى من حكومة هرقل كانت تشي بنهاية الامبراطورية الرومانية[1] . »

بيد أن جميع مؤرخي الإسلام يعرفون معرفة تامة أن هذه النبوءة لا علاقة لها بالرسالة التي وجهها النبي إلى « كسرى أبرويز » ، لأن تلك الرسالة إنما أرسلت في العام السابع من الهجرة ، بعد صلح الحديبية ، أي عام سنة ٦٢٨ م ، في حين أن آية النبوءة المذكورة نزلت بمكة عام ٦١٦ م ؛ أي قبل الهجرة بوقت طويل ، فبين الحدثين فاصل يبلغ اثني عشر عاماً[2] .

• • •

(١) المرجع السابق ، ص ٧٤ — ٧٣ .

(٢) انظر : *Encyclopaedia of Religion and Ethics* جـ١٠ / ٥٤٠-٥٤٥

ثالثاً : القرآن والكشوف الحديثة

والميزة الثالثة التي سوف أدرسها في هذا الباب ، للإبانة عن صدق القرآن وحقيته ، هي أنه رغم نزول القرآن قبل قرون كثيرة من عصر العلوم الحديثة ، لم يتمكن أحدٌ من إثبات أية أخطاء علمية فيه ، ولو أنه كان كلاماً بشرياً لكان هذا ضرباً من المستحيل .

° ° °

كانت بعثة لطلبة الصين تدرس بجامعة كاليفورنيا ، منذ بضع سنين ، وقد ذهب اثنا عشر من هؤلاء الطلبة إلى كاهن « كنيسة بركلي » طالبين منه أن ينظم لهم دراسة حول الدين المسيحي في أيام الأحد ، وقالوا له بكل صراحة : إننا غير راغبين في اعتناق المسيحية ، ولكننا نريد أن نعرف مدى تأثير هذا الدين على الحضارة الأمريكية ، واختار القسيس عالماً في الرياضة والفلك ، هو البروفيسور « بيتر و. ستونر » ، للتدريس لهؤلاء الشبان . وبعد أربعة أشهر من هذا الواقع اعتنقوا الدين المسيحي ! !

أما الدوافع وراء هذا العمل المدهش ، فلنسمعها من الأستاذ نفسه :

« لقد كان السؤال الأول أمامي : ماذا أقول لهم عن الدين ؟ إنهم لا يؤمنون بالإنجيل إطلاقاً ، وتدريس الإنجيل على الطريقة التقليدية لن يأتي بفائدة ما ، وفي ذلك الوقت تذكرت أني أثناء دراستي كنت ألاحظ علاقة

كبيرة بين العلوم الحديثة وسفر التكوين في الإنجيـــل ؛ ولذلك رأيت أن أعرض هذا الكلام أمام هذه الجماعة من الشباب .

« وكنا — أنا والطلبة — نعرف بطبيعة الحال أن ما جاء في هذا الكتاب عن بدء الكون قد كُتب قبل آلاف السنين من كشوف العلوم الحديثة عن الأرض والسماء ، وكنـــا نشعر كذلك أن أفكار الناس في زمن موسى ستبدو لغواً باطلاً ، لو درسناها في ضوء معلومات العصر الحاضر .

« وقد أمضينا فترة الشتاء كلها ندرس في سفر التكوين ، وكان الطلبة يكتبون الأسئلة حول ما جاء في هذا السفر التكوين ، ثم يبحثون عن أجوبتها بكل جهد في مكتبة الجامعة . وعند انتهاء الشتاء أخبرني القسيس أن الطلبة حضروا إليه ليخبروه أنهم يريدون اعتناق المسيحية ، وقد أقروا أنـــه ثبت لهم أن الإنجيل كتاب موحى من عند الله[1] . »

• • •

وعلى سبيل المثال يقول سفر التكوين عن حالة الأرض في بداية الأمر :

« لقد غشى على الأغوار ظلام[2] »

وهذا هو أحسن تصوير للحالة التي وجدت في الأرض في ذلك الوقت ، كما عرفناها من العلوم الحديثة ، فكان سطح الأرض حاراً جداً ، وتبخرت المياه بسبب هذه الحرارة ، ولم يصل النور إلى سطح الأرض ، لأن مياه بحارنا كانت معلقة في صورة سحب كثيفة ، في الفضاء ، وكان ظلام حالك يسود الأرض .

• • •

---

(١) *The Evidence of God*, pp. 137-38.

(٢) تقول الترجمة العربية للتوراة (المنقولة عن اليونانية) : « وكانت الأرض خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلمة . » الإصحاح : ١ — (المراجع) .

إننا نؤمن بأن الإنجيل والتوراة من الكتب الإلهية، مثل القرآن الكريم، ولذلك توجد فيهما قبسات من العلم الإلهي، ولكن النصوص الأصلية قد ضاعت، وطرأ فارق كبير بين الإنجيل الحقيقي وإنجيل هذا العصر، بعد مضي ألفي عام حافلة بعمليات الترجمة من لغة إلى أخرى، ثم بأعمال التحريف البشري Human Interpolation الـذي أصاب النسخة الإلهية، أكثر ما أصاب، على حد تعبير العالم الأمريكي «كريسي موريسون[1]».

ولما كانت هذه الصحائف قد فقدت قيمتها، نتيجة لما حدث، فقد أرسل الله تعالى «طبعة جديدة» من كتابه إلى البشر، وهذا الكتاب هو «القرآن الكريم»، وهو يحمل، من أجل صحته وكماله، كل الميزات والخصائص التي لا توجد منها سوى لمحات في الكتب القديمة.

وسوف أستعرض هنا هذه الخاصة دليلاً ثالثاً من أدلتي على صدق القرآن الكريم، ولقد أنزل القرآن قبل عصر النهضة، ولكن أحداً من الناس لم يستطع إبطال شيء مما جاء به، ولو كان هذا القرآن من كلام البشر، لعُدَّ ذلك ضرباً من ضروب الإحالة.

• • •

نزل القرآن في عصر لم يكن الإنسان يعرف فيه عن الطبيعة إلا القليل النادر، وكانوا يرون أن الأمطار تنزل من السماء؛ وأن الأرض مستوية، كالفراش؛ وأن السماء سقف الأرض؛ وكانوا يرون أن النجوم مسامير لامعة من الفضة مركبة في قبة السماء، أو أنها قناديل معلقة في الفضاء! وكان أهل الهند الأقدمون يؤمنون بأن الأرض محمولة على أحد قرني «البقرة الأم»، وهي حين تقوم بنقل الأرض من قرن إلى آخر يحدث زلزال على

---

(1) *Man does not Stand Alone*, p. 120 ، ومن الثابت أن الأناجيل لم تكتب في حياة المسيح، ولا حتى بعد وفاته بنصف قرن كما أن التوراة آخر ما كتب من عصر السبى البابلي (٥٨٦ ـ ٥٣٨ ق. م.). (المراجع).

البسيطة[1] . وكان العلماء يرون أن الشمس ساكنة بلا حراك ، وأن الأرض تدور حولها ، إلى أن جاء « كوبرنيك » (١٥٤٣/١٤٧٣ م) ، وعرض فكرته الشهيرة عن حركة الشمس .

• • •

وهكذا تقدم العلم رويداً رويدا ، إلى أن زادت قوة المشاهدة والدراسة لدى الإنسان ، فكشف عن أسرار كثيرة . والآن لا نجد جزءاً مـا من معلوماتنا عن أجزاء الجسم ، وشعب العلم المختلفة ، إلا وقد تغيرت نظرتنا إليه كلية ، وثبت بطلان عقائد العصر القديم .

ويدل هذا بكل صراحة على أنه لا وجود لكلام إنساني تدوم صحته كلياً .. لأن الإنسان يتكلم عما هو معروف من المعتقدات والعلوم في عصره ؛ إنه سوف يسرد ما وجده في زمنه ؛ سواء وقع كلامه في دائرة الشعور أو اللاشعور . ولذلك لا نجد كتابـاً مضى عليه حين من الدهر إلا وهو مملوء بالأغلاط والأخطاء من سائر نواحيه ، نظراً إلى الكشوف الجديدة في كل الميادين .

ولكن مسألة القرآن الكريم تختلف تمام الاختلاف عن هذه الكلية ! فهو حق وصادق في كل ما قال ، كما كان في القرون الغابرة . ولم يطرأ على مقاله أي تغير رغم مضي قرون وعصور طويلة . وهذا في نفسه دليل على أن منبعه عقل جبار يحيط بالأزل وبالأبد علماً ؛ وهو يعلم سائـر الحقائق في صورها النهائية والحقيقية ؛ ولا يخضع علمه ومعرفته لحواجز الزمان والمكان والأحوال . ولو كان هذا الكلام صادراً عن بشر محدودي النظر والعلم لكان الزمان قد أبطله منذ عصور عديدة ، كما يحدث لكل كلام إنساني في مستقبله .

---

(٤) شاعت هذه العقيدة الخرافية كذلك في أوساط العوام وأشباه المتعلمين في شرقنا العربي ، وإن كان تيار المعرفة العامة الآن يقضي على مثل هذه الخرافات – المراجع .

إن المحور الحقيقي لرسالة القرآن هو السعادة الأخروية ، فهو بذلك لا يدخل في دائرة أي من علومنا وفنوننا الحديثة . ولكن حيث إنه يخاطب « الإنسان » في حقيقة الأمر ، فهو يمس كل ما هو متعلق بالإنسان ، وهي مسألة دقيقة ، وموقف جد خطير .. لأن المرء حين يكون جاهلاً ، أو ناقص المعلومات حول مشكلة ما ، ثم يتجرأ ليتكلم عن تلك المشكلة — ولو إجمالاً — فلا بد أن يكبو في حديثه . وذلك حين يستخدم كلمات أو عبارات لا علاقة لها بالواقع والحقائق !

وعلى سبيل المثال : قال أرسطو ، استدلالاً على أسبقية الرجل على المرأة : إن فم المرأة يحوي أسناناً أقل عدداً من أسنان الرجل ! ! ومن المعروف أن هذا الكلام لا علاقة له بعلم الأجسام ، بل هو يدل على أن صاحبه جاهل بهذا العلم ، فإن عدد الأسنان سواء لدى الرجل والمرأة . ولكن من من المدهش حقاً أن القرآن — حتى فيما يمس أكثرَ العلوم الحديثة من ناحية أو أخرى — لا يحتوي كلمة ما ، أثبت العلم فيما بعد ، أنها من صنع رجل جاهل بذلك الموضوع ، وهذا يوضح صراحة أنه كلامُ موجودٍ فوق الطبيعة ؛ وهو على معرفة تامة بكل شيء ، على حين لم يكن أحدٌ يعلم شيئاً ، وهو يعلم أيضاً كل ما يجهله البشر في هذا العصر ، مع تقدم العلوم ..

وسوف أورد هنا بعض الأمثلة التي تدل صراحة على أن القرآن الكريم يحيط بالحقائق التي لم تُعرفْ إلا في عصرنا هذا ، وإن كانت إحاطته هذه ضمن إشارات غير مقصودة لذاتها .

ويجب أن أقول ، تمهيداً لهذا البحث : إن مطابقة كلمات « القرآن » وألفاظه للكشوف الحديثة مبنية على أن العلم الحديث قد استطاع الكشف عن أسرار الواقعة موضوع البحث ، فتوفرت لدينا مواد نافعة لتفسير

الإشارات القرآنية في ذلك الموضوع . ولو أن دراسة المستقبل في موضوع ما تُبطل واقعة من وقائع العلم الحديث كلياً أو جزئياً فليس هذا بضائر مطلقاً صدق القرآن ، بل معناه أن المفسّر أخطأ في محاولته لتفسير إشارة مجملة في القرآن ، وإنني لعلى يقين راسخ بأن الكشوف المقبلة سوف تكون أكثر إيضاحاً لإشارات القرآن ، وأكثر بياناً لمعانيه الكامنة .

• • •

تقسيم لآيات القرآن :

ونستطيع أن نقسم الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الجانب إلى نوعين :

الأول : ما عرف عنه الإنسان ـ حتّى ذلك العصر ـ أموراً جانبية وسطحية .

والثاني : ما لم يعرف عنه ذلك الإنسان شيئاً ، مطلقاً .

إن هناك أشياء كثيرة كان الأقدمون يعرفون عنها بعض المعارف الجزئية ، وكانت معرفتهم هذه ناقصة جداً بالنسبة إلى المعرفة التي أتيحت للإنسان اليوم ، بفضل الاختراعات الحديثة . وقد واجه القرآن في هذا الصدد مشكلة كبرى ، فهو لم يكن كتاباً في العلوم والهندسة ، ولذلك لو أنه كان بدأ يكشف عن أسرار الطبيعة لاختلف الناس فيما بينهم حول ما جاء في القرآن ، ولاستحال عندئذ بلوغ الهدف الحقيقي من نزول القرآن ، وهو إصلاح العقل الإنساني وتزكيته . فمن إعجاز القرآن أنه تكلم في لغة العلم ، قبل كشفه ، كما أنه استعمل كلمات وتعبيرات لم تستوحشها أذواق الأقدمين ولا معارفهم ، على حين أحاطت بكشوف العصر الحديث !

• • •

النوع الأول

(ا) ذكر القرآن الكريم قانوناً خاصاً بالماء في سورتين : هما الفرقان والرحمن . وجاء في السورة الأولى :

« وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ . هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ . وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً . »[1]

وأما الآية التي وردت في السورة الأخرى فهي تقول :

« مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ »[2] .

إن الظاهرة الطبيعية التي يذكرها القرآن في هذه الآيات معروفة عند الإنسان منذ أقدم العصور ؛ وهي أنه إذا ما التقى نهران في ممر مائي واحد فماء أحدهما لا يدخل (أي لا يذوب) في الآخر . وهناك، على سبيل المثال، نهران يسيران في « تشاتغام » بباكستان الشرقية إلى مدينة « أرْكانْ » ، في « بورما » ، ويمكن مشاهدة النهرين ، مستقلاً أحدهما عن الآخر ، ويبدو أن خيطاً يمر بينهما ، حداً فاصلاً ؛ والماء عذب في جانب ، وملح في جانب آخر . وهذا هو شأن الأنهار القريبة من السواحل ؛ فماء البحر يدخل ماء النهر عند حدوث « المد البحري » ، ولكنهما لا يختلطان ، ويبقى الماء عذباً تحت الماء الأجاج . وهكذا شاهدتُ عند ملتقى نهري الكنج والجامونا ، في مدينة « الله آباد » ، فهما رغم التقائهما لم تختلط مياههما ، ويبدو أن خيطاً فاصلاً يميز أحدهما من الآخر[3] .

إن هذه الظاهرة ، كما قلتُ ، كانت معروفة لدى الإنسان القديم .. ولكنا لم نكشف قانونها إلا منذ بضع عشرات من السنين . فقد أكدت المشاهدات والتجارب أن هناك قانوناً ضابطاً للأشياء السائلة ، يسمى « قانون المطّ السطحي » Surface Tension ، وهو يفصل بين السائلين ؛

---

(١) الفرقان / ٥٣   (٢) الرحمن / ٢٠ - ٢١ .

(٣) وهو ما كان يشاهد عند التقاء النيل بالبحر الأبيض ، قبل بناء السد العالي .
(المراجع)

لأن « تجاذب » الجزئيات يختلف من سائل لآخر ، ولذا يحتفظ كل سائل باستقلاله في مجاله . وقد استفاد العلم الحديث كثيراً من هذا القانون ، الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه : « بينهما برزخ لا يبغيان » . وملاحظة هذا البرزخ لم تخف عن أعين القدماء ، كما لم تتعارض مع المشاهدة الحديثة ، ونستطيع ، بكل ثقة ، أن نقول : إن المراد من « البرزخ » إنما هو « المط أو التمدد السطحي » ، الذي يوجد في الماءين ، والذي يفصل أحدهما عن الآخر.

ويمكن فهم هذا المط السطحي بمثال بسيط ، وهو : أنك لو ملأت كوباً بالماء ، فإنه لن يفيض إلا إذا ارتفع عن سطح الكوب قدراً معيناً .. والسبب في ذلك أن « جزئيات » السوائل عندما لا تجد شيئاً تتصل به فوق سطح الكوب ، تتحول إلى ما هو تحتها ، وعندئذ توجد « غشاوة مرنة » Elastic Film على سطح الماء ؛ وهذه الغشاوة هي التي تمنع الماء من الخروج عن الكوب لمسافة معينة ، وهي غشاوة قوية لدرجة أنك لو وضعت عليها إبرة من حديد فإنها لن تغوص ! وهذه الظاهرة هي ما يسمى بالمط السطحي ، الذي يحول دون اختلاط الماء والزيت ، والذي يفصل بين الماء العذب والملح .

• • •

(ب) وجاءت في القرآن بيانات مماثلة ، وعلى سبيل المثال :

« اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمواتِ ، بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا »[1]

وهذه الآية مطابقة لما كان يراه الرجل القديم ؛ فإنه كان يشاهد عالماً كبيراً قائماً بذاته في الفضاء ، مكوناً من الشمس والقمر والنجوم ، ولكنه لم ير لها أية ساريات أو أعمدة ، والرجل الجديد يجد في هذه الآية تفسيراً لمشاهدته ، التي تثبت أن الأجرام السماوية قائمة دون عَمَدٍ في الفضاء اللانهائي ، بيد أن هنالك « عمداً غير مرئية » ؛ تتمثل في قانون « الجاذبية »

---

(١) الرعد /٢ .

Gravitation Pull ؛ وهي التى تساعد كل هذه الأجرام على البقاء في أمكنتها المحددة .

• • •

(ج) وقد قال القرآن عن الشمس والنجوم :

« كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون »[1]

وكان الإنسان في العصر الغابر يشاهد أن النجوم تتحرك وتبتعد عن أمكنتها بعد وقت معين . ولذلك لم يكن هذا التعبير القرآني موضع دهشتهم واستغرابهم ، ولكن البحوث الحديثة قد خلعت على هذه التعبيرات ثوباً جديداً ؛ فليس هنالك تعبير أروع ولا أدق من « السباحة » لدوران الأجرام السماوية في الفضاء البسيط اللطيف !

• • •

(د) وقال القرآن الكريم عن الليل والنهار :

« يُغْشِي الليلَ النهارَ ، يطْلُبُه حثيثاً »[2] .

إن هذه الآية الكريمة تشرح للإنسان القديم سرّ مجيء الليل بعد النهار .. ولكنها تحوي إشارة رائعة إلى دوران الأرض محورياً ، وهو الدوران الذي يُعتبر سبب مجيء الليل والنهار ، طبقاً لمعلوماتنا الحديثة .

وسوف أذكّر القراء — هنا — بأن من بين المشاهدات التي أدلى بها رجل الفضاء الروسي « جاجارين » ، بعد دورانه في الفضاء حول الأرض : أنه شاهد « تعاقباً سريعاً » Rapid Succession للظلام والنور على سطح الأرض بسبب دورانها المحوري حول الشمس .

وهناك بيانات كثيرة جداً من هذا القبيل في القرآن الكريم ..

• • •

---

(١) يس / ٤٠ . (٢) الأعراف / ٥٤ .

النوع الثاني من الآيات :

وأما النوع الثاني من الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع ، فلم يعرف عنها الرجل القديم شيئاً ما على الإطلاق . وقد تناول القرآن تلك الموضوعات، كاشفاً الغطاء عن أسرار بالغة الأهمية ، ثبت صدقها بعد الدراسات الحديثة ، وسوف أعرض في الصفحات التالية بعض الأمثلة من مختلف فروع العلوم الحديثة .

• • •

أولاً : علـــم الفلك

يطرح القرآن الكريم فكرة معينة ومحدودة المعالم حول بدايـــة الكون المادي ونهايته ، وكانت هذه الفكرة غير معروفة لدى الإنسان الجديد قبل قرن من الزمان .. أما الإنسان القديم فلا مجال للقول بأنه كان من الممكن أن يتطرق عقله الصغير إلى هذه الفكرة أو أجزائها ، وجاء العلم الجديـــد ليشهد على ما جاء في القرآن الكريم .

يعبر القرآن عن **بداية الكون** على النحو التالي :

أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَــا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا . »[1]

أما عن **نهاية الكون** ، فهو يقول :

« يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ »[2] .

فالكون ، بناء على تفسير هذه الآيات كان منضماً ومتماسكاً (الرتق : مُنْضَمّ الأجزاء) ، ثم بدأ يتمدد في الفضاء ، ويمكن رغم هذا التمدد

---

(١) الأنبياء / ٣٠ . (٢) السابقة / ١٠٤ .

تجميعه مرة أخرى في حيز صغير .

وهذه هي الفكرة العلمية الجديدة عن الكون ؛ فقد توصل العلماء ، خلال أبحاثهم ومشاهداتهم لمظاهر الكون ، إلى أن « المادة » كانت جامدة وساكنة في أول الأمر ؛ وكانت في صورة غاز ساخن ، كثيف ، متماسك . وقد حدث انفجار شديد في هذه المادة قبل ٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة على الأقل ، فبدأت المادة تتمدد وتتباعد أطرافها . ونتيجة لهذا أصبح تحرك المادة أمراً حتمياً ، لا بد من استمراره ، طبقاً لقوانين الطبيعة ، التي تقول : إن قوة « الجاذبية » في هذه الأجزاء من المادة تقل تدريجياً بسبب تباعدها (ومن ثم تتسع المسافة بينها بصورة ملحوظة .)

ويعتقد العلماء أن دائرة المادة كانت ١,٠٠٠ مليون سنة ضوئية ، في أول الأمر . وقد أصبحت هذه الدائرة الآن ، كما يقول البروفيسور « إيدنجتون » : عشرة أمثال بالنسبة إلى الدائرة الحقيقية . وهذه العملية من التوسع والامتداد مستمرة دون ما توقف . وكما يقول البروفيسور «إيدنجتون» :

« إن مثال النجوم والمجرات : كنقوش مطبوعة على سطح بالون من المطاط ، وهو ينتفخ باستمرار ؛ وهكذا تتباعد جميع الكرات الفضائية عن أخواتها ، بحركاتها الذاتية ، في عملية التوسع الكوني[1] . »

وأما الأمر الآخر ، فقد ثبت لنا صدقه ، كما ورد في القرآن . فكان الإنسان القديم يرى أن النجوم يبتعد بعضها عن بعض رأيَ العين ؛ ولكننا نراها متقاربة لبعدها الهائل عن الأرض ، وهي ، في حقيقة الأمر ، متباعدة بمسافات قياسية .

ولم يقف الأمر بنا عند هذا الحد ، بل عرفنا أيضاً أن تلك الأجسام والأجرام التي كنا نشاهدها في قديم الزمن ، وكنا نحسبها كاملة وسالمة ،

---

(١) *The Limitations of Science*, p. 20.

أكثرها يحتوي على فضاء خالٍ . وقد عرفنا أن كل جسم مادي يدور حول نظام له ، مثل النظام الشمسي الذي تدور حوله نجوم وسيارات كثيرة . ومن أمثلته نظام « الذرة » . فنحن نشاهد الفضاء الخالي في « النظام الشمسي » ، ولكننا نعجز عن مشاهدة فضاء « النظام النووي » لصغر حجمه المتناهي .. حتى إنه يستحيل مجرد مشاهدة هذا النظام[1] . ومعنى ذلك أن كل شيء – حتى لو بدا متماسكاً – يحوي حيزاً من الفضاء في داخله . ومثاله : أننا لو جردنا الفضاء أو المكان Space من الذرات المادية في الجسم الإنساني ، ذات الستة الأمتار ، فلن نجد إلا كمية قليلة جداً من المادة ، تكاد تكون متناهية الوجود .

وهكذا يرى علماء الطبيعة الفلكية (Astro-Physicists) أننا لو طوينا كل شيء في الكون بدون أن نترك للفضاء مكاناً ، فسيكون حجم الكون كله ثلاثين ضعفاً من حجم الشمس ! ! ويمكن قياس سعة الكون من أن أبعد مجرة استطاع الإنسان الكشف عنها تبعد بضعة ملايين من السنين الضوئية عن النظام الشمسي .

• • •

٣ – لقد توصل العلماء ، خلال أبحاثهم ، إلى أنه لا بد في المستقبل القريب – وطبقاً لقانون دوران الأجرام السماوية – أن يقترب القمر من الأرض ، حتى ينشق من شدة الجاذبية ، وتتناثر أجزاؤه في الفضاء[2] . وسوف تحدث عملية انشقاق القمر هذه بناء على نفس القانون الذي يحكم المد والجزر في البحار . فالقمر هو أقرب جيراننا في الفضاء ، ولا يبعد عن الأرض غير ٢٤٠,٠٠٠ ميلاً ، وهذا القربُ يؤثر على البحار مرتين يومياً ،

---

(١) أنظر التفصيلات عن « الذرة » في الباب الرابع من هذا الكتاب .

(٢) *Man Does Not Stand Alone*, p. 24

حيث ترتفع فيها أحياناً أمواج يبلغ طولها ستين متراً ، وأما تأثير هذه الجاذبية على سطح الأرض فيبلغ عدة بوصات ! !

إن المسافة الفاصلة بين الأرض والقمر مناسبة تماماً لصالح أهل الأرض . ولو نقص هذا الفاصل إلى خمسين ألفاً من الأميال – على سبيل المثال – فسوف يحدث طوفان شديد في البحار ، وسوف تغطي أمواجها أكثر مناطق الأرض المأهولة ، وسوف يغرق كل شيء ، حتى لتتحطم الجبال من شدة تموج البحار ، وسوف تحدث شقوق مروعة على سطح الأرض من وطأة الجاذبية ! !

ويرى علماء الفلك أيضاً أن الأرض قد مرت بكل هذه الأدوار أثناء عملية التكوين ، حتى وصلت إلى بعدها الحالي من القمر ، بناء على قانون الفلك ، وهذا القانون هو نفسه سوف يأتي بالقمر قريباً من الأرض مرة أخرى .. ويرون أن من المتوقع حدوث هذا قبل بليون سنة [1] . وعندئذ سوف ينشق القمر ، وسوف يتناثر حول فضاء الأرض في صورة حلقة .

أليست هذه النظرية من أعظم موافقات العلم لتلك النبوءة الواردة في القرآن الكريم ، حول انشقاق القمر ، حين تقترب القيامة [2] ؟

اقرأوا قوله تعالى :

---

(١) هذا مجرد تعبير عن الإمكان العلمي ، وحدوده الزمنية . وليس ببعيد أن تقع هذه الظاهرة في وقت أقل مما حدده الفلكيون ، وكلامهم لا ينفي هذا .

(٢) رويت معجزة « انشقاق القمر » في الصحيحين وكتب الحديث الأخرى ، بروايات صحيحة الإسناد ، ومنها ما رواه عبد الله بن مسعود (رضي الله تعالى عنه) ، وهو من الشهود العيان لذلك الحادث الخارق ؛ وبرغم ذلك لا تزال مسألة « انشقاق القمر » موضع خلاف شديد بين المفسرين والعلماء . فيرى الجمهور أنه قد حدث فعلا ، « .. وقال بعض المفسرين : سينشق » كما يرى صاحب التفسير « الكبير » ، ومن القائلين به الإمام الحسن البصري ، وقد نقل عنه أبو حيان الأندلسي القول التالي : « إن المعنى إذا جاءت الساعة انشق القمر بعد النفخة الثانية » . – البحر المحيط ، ج – ٨ ، ص – ١٧٣ –

« اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ الْقَمَرُ . وَإنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ويَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ »[1]

• • •

ثانياً – علم طبقات الأرض

١ – جاء في القرآن الكريم ، غير مرة ، أن الجبال أرسيت في الأرض حفاظاً على توازنها ، ومن ذلك قوله تعالى :

« وألْقَى في الأرْضِ رَوَاسِيَ أنْ تَمِيدَ بِكُمْ »[2]

ولقد ظل العلم الحديث جاهلاً بهذه الحقيقة طوال القرون الثلاثة عشر الماضية ، ولكن دارسي الجغرافيا الحديثة يعرفونها جيداً تحت اسم « قانون التوازن » Isostasy . ولا يزال العلم الحديث في مراحله البدائية بالنسبة إلى أسرار هذا القانون ، ويقول الأستاذ إنْجِلِنْ :

« من المفهوم الآن أن المادة – الأقل وزناً – ارتفعت على سطح الأرض ، على حين أصبحت أمكنة المادة الثقيلة خنادق هاوية ، وهي التي نراها الآن في شكل البحار . وهكذا استطاع الارتفاع والانخفاض أن يحافظا على توازن

= وهناك فئة ثالثة من العلماء تؤثر « التوفيق » بين الرأيين ، فهم يرون أن معجزة شق القمر ، التي جاء ذكرها في الأحاديث وقعت أمام جمع من المسلمين والمشركين « بمنى » في مكة المكرمة ، ويرى الإمام الغزالي والشاه ولي الله الدهلوي أنها وقعت « بتصرف البصر » . ومن الممكن أن تكون قد حدثت فعلا نتيجة انشقاق فلكي . وهكذا ستكون الواقعة الأولى آية أولية للأحداث التي سوف يجري وقوعها قرب القيامة . وفيها يقول المفسر الهندي الكبير العلامة شبير أحمد العثماني في تفسيره للقرآن :

« لقد كانت معجزة شق القمر مثالا على أن كل شيء سينشق هكذا عند اقتراب القيامة » .

(١) القمر/ ١ و ٢ . (٢) لقمان / ١٠ .

الأرض[1] . »

ويرى عالم آخر من باحثي الجغرافيا :

« وفي البحار ، أيضاً ، توجد وديان مثل وديان البر . ولكن وديان البحر أكثر غوراً وأبعد عمقاً من تلك التي توجد في البر ؛ كما أنها بعيدة عن المجال التجريبي للإنسان . ويبدو أنه قد حدثت مغارات عميقة في البحار . (ويبلغ عمق بعض هذه الوديان ٣٥ ألف قدم عن سطح البحر ؛ وهـذا العمق أعلى من أعظم جبال العالم ارتفاعاً . ويبلغ من عمق هذه الوديان البحرية أحياناً أنه لو وضعت فيها قمة « إيفرست » ، من سلسلة جبال « الهملايا » ، والتي يبلغ طولها ٢٩,٠٠٢ ، فسيكون سطح البحر فوقها بمسافة ميل كامل!)

« ومن الظواهر المحيّرة أن هذه الخنادق البحرية توجد قرب السواحل البرية بدلَ أن توجد في أعالي البحار . ومَن ذا يستطيع أن يعلم قدرَ ذلكم الضغط الهائل، الذي أحدث هذه المغارات السحيقة في قاع البحار . ولكن قرب هذه الوديان من الجزر والبراكين يدل على أن هناك علاقة بين طول الجبال والخنادق البحرية .. وهو أن الأرض يقوم توازنها على أساس الارتفاع والعمق (في أجزائها المختلفة) . ويرى بعض كبار علماء الجغرافيا أنه من الممكن أن تكون الأغوار البحرية علامات على جزر قد تظهر في المستقبل . وسببه أن الرواسب والمخلفات لكل من البر والبحر تترسب في هـذه الوديان ، وقد سُوّيت مناطق كبيرة من هذه الوديان بعد أن ملأتها هذه الرواسب . ولهذا من الممكن – بناء على عدم التوازن الذي يحدث عن هذه العملية – أن تبرز جبال جديدة في أي وقت ، أو تظهر سلسلة جديدة من الجزر ، ومما يؤكد ذلك أنه قد وُجدت آثار الرواسب البحرية في بعض الجبال الساحلية .

---

(١) C.R. Von Anglen. *Geomorphology*. p. 26-27. New York. 1948.

وعلى كل حال ، لا توجد نظرية ـ في ضوء المعلومات الحالية للإنسان ـ لتقوم بتفسير الوديان البحرية ، وهذه المغارات الدائمة البرودة ، والتي توجد في ظلام حالك ، وتحت ضغط قدره سبعة أطنان على كل بوصة ـ لا زال ذلك كله لغزاً أمام الإنسان ، كألغاز البحر الأخرى[1] ! »!

٢ ـ وقد جاء في القرآن الكريم أنه قد مضى على الارض زمن طويل سواها الله خلاله ؛ قال تعالى :

« والأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا . »[2]

وهذه الآية الكريمة تطابق مطابقة عجيبة أحدث الكشوف العلمية ؛ وهو : « نظرية تباعد القــارات » أو انتشارهــا (Theory of Drifting Continents) . ومغزى هذه النظرية : أن جميع القارات كانت في وقت من الأوقات أجزاءً متصلة ، ثم انشقت وبدأت « تنقذف » ، أو تنتشر من تلقاء نفسها ، وهكذا وجدت قارات تحول دونها بحار واسعة .

وقد طُرحت هذه النظرية في العالم عام ١٩١٥ ، لأول مرة ، حين أعلن خبير طبقات الأرض الألماني الأستاذ « الفريد واجنر » أنه لو قُرِّبت القارات جميعاً ، فسوف تتماسك ببعضها ، كما يحدث في ألعاب الألغاز التي تسمّى Jigsaw Puzzle . ويمكن مشاهدتها في الأشكال الثلاثة ، التي تبين هذه النظرية (أنظر ص ٢٢٢) .

° ° °

وهناك شبه كبير يوجد على سواحل البحار المختلفة ، كأن نجد جبالا متماثلة عمرها الأرضي (واحد) ؛ وكأن نجد فيها دواب وأسماكاً ونباتات متماثلة أيضاً ! وهذا هو ما دفع عــالم النباتات البروفيسور رونالد جود

---

(١) The World We Live in, New York, 1955.

(٢) النازعات / ٣٠ ـ ٣١ .

(Ronald Good) في كتابه : جغرافية نباتات الزهور (Geography of Flowering Plants) – إلى أن يقول :

« لقد اتفق علماء النباتات على النظرية القائلة بأنه لا يمكن تفسير ظاهرة وجود نباتات متماثلة في مختلف قارات العالم إلا إذا سلّمنا بأن أجزاء الأرض هذه كانت متصلاً بعضها ببعض ، في وقت من الأوقات . »

وقد أصبحت هذه النظرية علمية تماماً بعد تصديق « الجاذبية الحجرية » لها (Fossil Magnetism) ، فإن العلماء اليوم – بعد دراسة اتجاهات ذرات الحجارة – يستطيعون تحديد موقع أي بلد وُجدت به هضبةُ تلك الحجارة في الزمن القديم . وقد أكدت هذه الدراسة في «الجاذبية الأرضية» أن أجزاء الأرض لم تكن موجودة في القديم، بالأمكنة التي توجد بها اليوم ، وإنما كانت في ذلك المكان الذي تحدده « نظرية تباعد القارات ، وفي هذا الأمر يقول البروفيسور بلاكيت[1] :

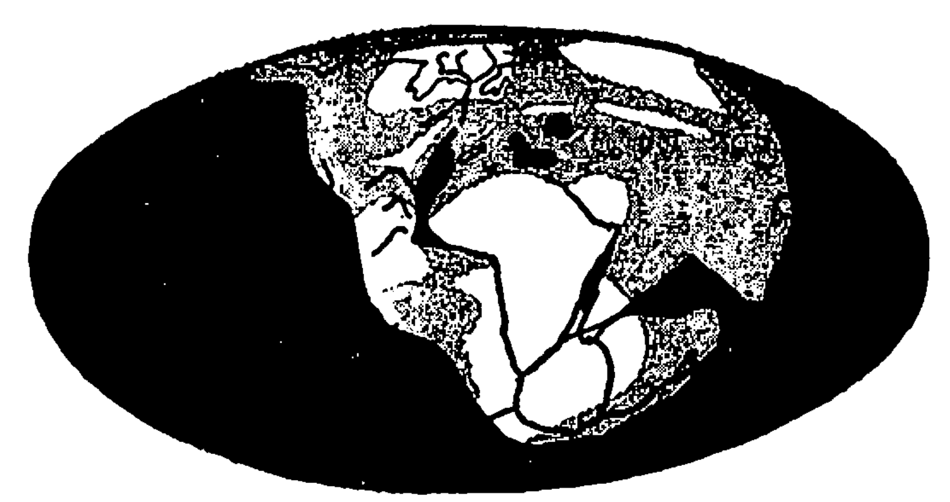
« إن دراسة أحجار الهند تبيّن أنها كانت توجد في جنوب خط الاستواء، قبل سبعين مليون سنة ؛ وهكذا تثبت دراسة جبال جنوب إفريقيا أن القارة الإفريقية انشقت عن القطب الجنوبي قبل ثلاثمائة مليون سنة[2] . »

• • •

لقد ورد في الآية المذكورة آنفاً لفظة « الدحو » ، ومعناه تسوية الشيء ونشره ، كما يقال : « دحا المطر الحصى عن وجه الأرض » ، وهذا هو نفس مفهوم الكلمة الانجليزية : « Drift » التي استخدمت في التعبير عن النظرية الجغرافية الحديثة .

---

(١) P.M.S. Blacket ، أستاذ (الطبيعة) في الكلية الملكية بلندن – المعرب .
(٢) أنظر للتفصيل : ريدرز دايجست ، عدد يونيه (حزيران) من عام ١٩٦١ .



الشكل الأول : يبّين حالة الأرض في بداية أمرها ، قبل ثلاثمائة مليون سنة



الشكل الثاني : يبين حالة الأرض أثناء عملية انتشار وتباعد قاراتها
وقد بدأت هذه العملية قبل خمسين مليون سنة



الشكل الثالث : يبين حالة الأرض بعد أن استقر أمرها ، قبل مليون سنة

لسنا نملك أمام هذا التوافق المدهش بين ما ورد في الماضي البعيد ، وما اكتشف بالأمس القريب – إلا أن نؤمن بأن هذا الكلام صادر عن موجود يحيط علمه بالماضي ، والحال ، والمستقبل ، على السواء .

• • •

ثالثاً – علم الأغذية

إن قائمة الأغذية التي يقررها لنا القرآن تحرّم (الدم) ، وكان الإنسان غافلاً عن أهمية هذا التحريم ، ولكن التحليلات التي أجريت للدم قد أكدت أن هذا القانون كان مبنياً على أهمية خاصة بالنسبة إلى الصحة . فالتحليل يثبت أن (الدم) يحتوي كمية كبيرة من « حَمْض البَوْليك » Uric Acid ، وهو مادة سامة تضر بالصحة لو استعملت غذاءً . وهذا هو السر في الطريقة الخاصة التي أمر بها القرآن في ذبح الحيوانات . والمراد من « الذبح » في المصطلح الإسلامي هو الذبح بطريقة معينة حتى يخرج سائر الدم من جسم الحيوان ، وهي أن نقطع الوريد الرئيسي ، الذي يوجد في العنق ،فقط ، وأن نمتنع عن قطع الأوردة الأخرى ، حتى يمكن استمرار علاقة المخ بالقلب إلى أن يموت الحيوان ، لكيلا يكون سبب الموت الصدمة العنيفة التي وجهت إلى أحد أعضاء الحيوان الرئيسية ، كالدماغ ، أو القلب ، أو الكبد ، والمقصود من هذا هو أن الدماء تتجمد في العروق ، وتسري إلى أجزاء الجسم ، لو مات الحيوان في الحال – على إثر صدمة عنيفة – وهكذا يتسمم اللحم كله ، نتيجة سريان « حمض البوليك » في أنحائه .

ولقد حرّم القرآن لحم (الخنزير) ، ولم يعرف الإنسان في الماضي شيئاً عن أسرار هذا التحريم ، ولكنه يعرف اليوم أن لحم الخنزير يسبب

أمراضاً كثيرة ، لأنه يحتوي أكبر كمية من « حَمْض البوليك » بين سائر الحيوانات على ظهر الأرض . أما الحيوانات الأخرى ، غير الخنزير ، فهي تُفرز هذه المادة بصفة مستمرة عن طريق البول . وجسم الإنسان يفرز، تسعين في المائة من هذه المادة بمساعدة (الكليتين) . ولكن الخنزير لا يتمكن من إخراج « حمض البوليك » إلا بنسبة اثنين في المائة (٢٪) ، والكمية الباقية تصبح جزءاً من لحمه ، ولذلك يشكو الخنزير من آلام المفاصل، والذين يأكلون لحمه، هم الآخرون، يشكون من آلام المفاصل، والروماتيزم[١] ، وما إلى ذلك من الأمراض المماثلة[٢] .

• • •

إن الباحث في القرآن الكريم يجد أمثلة لا حصر لها ، من هذا القبيل الذي أشرنا إلى بعضه في الصفحات الماضية ، وهي دليل قطعي على أن القرآن صادر عن عقل غير إنساني . وتؤكد البحوث التي اضطلع بها العلماء في

---

(١) ليكن مفهوماً هنا أنه عند وصف تأثير أي غذاء ، لا يمكن إلا بيان تأثيره الذاتي من المنافع والمضار ، وليس معناه أن تأثير ذلك الغذاء سوف يكون واحداً لدى كل إنسان يأكله . والسبب في ذلك أن الإنسان لا يأكل شيئاً بمفرده ، وإنما يبتلعه مع مأكولات من أنواع عديدة ، ولذلك قد ينقص تأثير ذلك الغذاء ، أو يزول في بعض الأحايين ، نتيجة ردود الفعل والأغذية المضادة لتأثير ذلك الغذاء ، وعلى رغم ذلك كله فلا يمكننا وصف تأثير أي شيء إلا بما عرف عنه بصفته الفردية .

(٢) لعل العلة الأخرى في تحريم الخنزير أساساً أنه حيوان قذر ، يأكل النجاسات ، فإلى جانب التحريم القطعي النصي له ، يمكن أن نلحظ فيه علة تحريم (الجلالة) التي تأكل النجاسة ، فقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن أكلها أو شرب ألبانها . انظر : بداية المجتهد لابن رشد ٤٨١/٢ ، وإلا فالأمراض التي ذكرها المؤلف شائعة في المسلمين وغيرهم ، فهي راجعة إلى أسباب عديدة . (المراجع)

العصر الحاضر بطريقة مدهشة صدق تكلُّم النبوءة ، التي وردت في القرآن الكريم :

« سَنُرِيهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسِهم حتى يتبينَ لهم أنه الحقُّ[1] »

• • •

وسوف أختم هذا الباب بواقعة رواها العالِم الهندي المغفور له الدكتور عناية الله المشرقي ، وهو يقول :

« كانَ ذلك يوم أحَدٍ ، من أيام سنة ١٩٠٩ ، وكانت السماء تمطر بغزارة ، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما . فإذا بي أرى الفلكي المشهور السير جيمس جينز — الأستاذ بجامعة كمبردج — ذاهباً إلى الكنيسة ، والإنجيل والشمسية تحت إبطه ، فدنوتُ منه ، وسلّمت عليه . فلم يرد عليّ ، فسلّمت عليه مرة أخرى ، فسألني : « ماذا تريد مني ؟ » فقلت له : « أمرين ، يا سيدي ! الأول هو : أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر ! » فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور . فقلت له : « وأما الأمر الآخر فهو : ما الذي يدفع رجلاً ذائع الصيت في العالم — مثلك — أن يتوجه إلى الكنيسة ؟ » وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظةً ، ثم قال : « عليك اليوم أن تأخذ شايَ المساء عندي » . وعندما وصلت إلى داره في المساء ، خرجت « ليدي جيمس » في تمام الساعة الرابعة ، بالضبط ، وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرني . وعندما دخلت عليه في غرفته ، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي . وكان البروفيسور منهمكاً في أفكاره ، وعندما شعر بوجودي ،

---

(١) فصلت / ٥٣ .

سألني : « ماذا كان سؤالك ؟ » ، ودون أن ينتظر ردّي ، بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية ، ونظامها المدهش ، وأبعادها وفواصلها اللامتناهية ، وطرقها ومداراتها وجاذبيتها ، وطوفان أنوارها المذهلة ، حتى إنني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله . وأما (السير جيمس) فوجدت شعر رأسه قائماً ، والدموع تنهمر من عينيه ، ويداه ترتعدان من خشية الله . وتوقف فجأة ، ثم بدأ يقول : « يا عناية الله ! عندما ألقى نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي ، وعندما أركع أمام الله وأقول له : « إنك لعظيم ! » أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء . وأشعر بسكون وسعادة عظيمين . وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة . أفهمت . يا عناية الله خان ، لماذا أذهب إلى الكنيسة ؟ »

ويضيف العلامة عناية الله قائلاً : لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفاناً في عقلي . وقلت له : « يا سيدي ، لقد تأثرت جداً بالتفاصيل العلمية التي رويتموها لي ، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آي كتابي المقدس . فلو سمحتم لي ، لقرأتُها عليكم » ، فهزّ رأسه قائلاً : « بكل سرور » ، فقرأت عليه الآية التالية :

« وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانه كَذَلِكَ . إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » ..[1]

فصرخ السير جيمس قائلاً :

---

(١) فاطر / ٢٨ .

ماذا قلتَ ؟ – إنّمَا يَخْشَى اللهَ مِن عِبَادِهِ العلماءُ ؟! مدهش ! وغريب ، وعجيب جداً ! ! إن الأمر الذي كشفتُ عنه بعد دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة ، من أنبأ محمداً به ؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقةً ؟ لو كان الأمر كذلك ، فاكتُبْ شهادة مني أن القرآن كتاب مُوحىً من عند الله .

ويستطرد السير جيمس جينز قائلاً :

لقد كان محمد أمياً ، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السرّ بنفسه ، ولكن « الله » هو الذي أخبره بهذا السر .. مدهش.. ! وغريب ، وعجيب جداً[1] ! ! »

(١) مجلة « نقوش » الباكستانية ، العدد الخاص بالشخصيات العالمية ، شخصية (المرحوم العلامة عناية الله المشرقي (ص – ١٢٠٨ – ٩) .

– والعلامة « المشرقي » هذا من أعظم علماء الهند في الطبيعة والرياضيات ، ويتمتع بشهرة كبيرة في الغرب لاكتشافاته العديدة وأفكاره الجديدة ؛ وهو أول من عرض فكرة القنبلة الذرية ؛ غير أنه ترك الميدان العلمي ، فخاض غمار السياسة نظراً لسوء حالة المسلمين في الهند (كان ذلك قبل الاستقلال) فأسس « حزب الخدام الإلهيين » Khaaksar Party ، وكان رجاله (المتطرفون) يؤمنون بوجوب إقامة الفرائض الدينية بالقوة ، واتخذوا من « المعول » شعاراً لحركتهم . ومن أهم مؤلفات العلامة : « التكملة » (لرسالة الإسلام) ! ، وقد طلبت منه « لجنة جائزة نوبل » أن يترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية لإعطائه جائزة العلم ، ولكن العلامة رفض الفكرة بشدة قائلا :

« لست في حاجة إلى جائزة لا تعترف لجنتها باللغة الأردية العظيمة ! » . المعرب .

الباب الثامن

الدينُ ومشكلات الحضارة

التشريـــع

السؤال الأساسي الذي يفرض نفسه عند البحث في المشكلات الحضارية يكون دائماً عن التشريع أو الدستور. فهذه المشكلات تنشأ عن علاقة الفرد بغيره؛ والتشريع هو الذي يحدد هذه العلاقة على أساس من العدل والإنصاف.

---

(١) كان على المؤلف، بعد أن بحث تحدى العلم الحديث للإسلام، أن يبحث المشكلات التي أثارتها العلوم والأفكار الحديثة في الحياة الإنسانية، بمختلف أوجه نشاطها. وهو في هـذا الباب يتطرق – بإيجاز شديد – لكل هذه المشكلات، ولا تعدو ملاحظاته أن تكون إشارات. ولذلك كان من اللازم التنويه إلى أن لا يعتبر القارىء هذا الباب: «كل ما في الأمر»، لأن الأستاذ المؤلف خصص لهذا الموضوع كتاباً بأكمله، هو «الإسلام والعصر الحاضر»، قد يصل إلى القراء في الهند وباكستان، مع وصول هذه الترجمة إلى قراء العربية – ونرجو أن نوفق في تعريب المؤلف الجديد ومؤلفات أخرى للكاتب، وهي التي يعالج فيها القضايا الفكرية والتحديات الأيديولوجية والعملية التي تواجهها الأمة الإسلامية في كل مكان، وهو يصف فيها علاج هذه المشكلات، وطريق المسلمين إلى ما يسميه: «النهضة الثانية».

(المعرب)

ولكن من المذهل أن أقول : إن الإنسان لم يفلح إلى الآن في الكشف عن دستور حياته ! صحيح أن جميع الدول في العالم قائمة على أسس الدستور ؛ ولكن هذه الدساتير مخفقة تماماً في الوصول إلى أهدافها ، بل لا يوجد هناك ما يسوغ وجود هذه الدساتير سوى أنها تُنفّذ بالقوة والإجبار .

ومن الحقائق المعروفة لرجال القانون أن جميع الدساتير الرائجة في هذا العصر تفقد أية أسس علمية أو نظرية تجيز بقاءها . ويرى الأستاذ « فولر » L. L. Fuller أن « القانون لم يكشف عن نفسه بعد ! » .. وفولر هذا هو الذي وضع كتاباً أسماه : « القانون يبحث عن نفسه»

The Law in Quest of Itself

• • •

وقد وُضعت كتبٌ لا حصر لها حول هذا الموضوع بالذات ؛ وبذلت عقول جبارة من علمائنا أوقاتها في سبيل البحث عن مقومات القانون . وكما يرى محرر « موسوعة تشامبرز » « لقد أعطِي القانونُ أهميةَ علمٍ هام، حتى رُفِعَ من شأنه إلى أقصى الحدود » . ولكن كل هذه الجهود لم توفق في الحصول على صورة متفق عليها من القانون . وقد تشعبت بهم السبل ، حتى قال خبير في التشريع : « لــو طلبتَ من عشرة خبراء أن يعرِّفوا القانون ، فعليك أن تستعد لسماع أحد عشر جواباً ! ! »

وقد انقسم خبراء التشريع إلى مدارس فكرية كثيرة ؛ ولكننا – رغم تعدد هذه المدارس – قد لا نجد لبعض كبار علماء القانون فيها مكاناً ! يقول البروفيسور « باتون » G. W. Paton عن « جون آستين » : « إنه لا يصلح لأي من الأقسام العريضة Broad Divisions للقانون[1] : »

---

(١) *A Text Book of Jurisprudence*, 1905, p. 5.

وأما السبب وراء هذا الاختلاف بين خبراء التشريع ، فهو عدم توصّلِهم إلى أساس صحيح يمكن إقامة صرح التشريع عليه . إنهم يجدون أن القيم التي يحاولون جمعها في هيكل الدستور يستحيل وضعها في ميزان واحد . ومثل رجل القانون في محاولته هذه كمثل الرجل الذي يزن مجموعةً من الضفادع بمجموعة أخرى مماثلة ، فكلما وضعَ مجموعةً في كفة وجد أن ضفادع الكفة الثانية قد وثبتْ إلى الماء مرةً أخرى ! !

ومن ثم باءت كل الجهود — التي استهدفت الحصول على الدستور المثالي — بالفشل الذريع .

ويعبّر الأستاذ « و . فريدمان » عن هذه المشكلة قائلاً :

« .. وإنها لحقيقة : أن الحضارة الغربية لم تجد حلاً لهذه المشكلة غير أن تنزلق من وقت لآخر ، من نهاية إلى نهاية أخرى[١] ! »

• • •

وقد لاحظ « جون آستين » أن الدستور — أي دستور — لا يصبح نافذ المفعول إلا إذا كانت تسنده قوة من ورائه ، فعرّف « القانون » في كتابه ، الذي نشر لأول مرة عام ١٨٦١ ، على النحو التالي :

« القانون هو الحكم الذي أصدره « رجلٌ » رفيع المنزلة سياسياً لمن هو أدنى منه في المرتبة السياسية[٢] » .

وقد أصبح التشريع بناء على هذا التعريف « مرسوماً لصاحب السيادة[٣] » ! ولذلك شنّ المحدثون من العلماء حملة شديدة على هذه الفكرة ، وقالوا : إنه لا يمكن منع انحرافات الحكام إلا إذا كان « رضا الشعب العام » دعامة

---

(١) W. Freidman. *Legal Theory*. p. 18.

(٢) *A Text Book of Jurisprudence*. p. 56.

(٣) المرجع السابق — ص — ٤ .

أساسية في التشريع .. وأنكروا أي قانون أو دستور لا يحرز رضا الجماهير ؛ وترتب على ذلك أن ضوابط كثيرة ، يُجْمِع على صحتها وإفادتها جميع أهل العلم ومعلمي الأخلاق ـ لا يمكن تنفيذها ، لأن الشعب لا يوافق عليها . وعلى سبيل المثال لم يتمكن الأمريكيون من إدخال مشروع قرار يحرّم الخمر ، لأن الشعب لم يرض عنه .. كما اضطر البريطانيون إلى إدخال تعديلات هامة في قانون عقوبة القتل ، واضطروا إلى إباحة أنواع محرّمة من العلاقات الجنسية ، على الرغم من ضجيج المثقفين ، واحتجاج علماء القانون !

• • •

وهناك مسألة أخرى اختلف حولها علماء القانون : هل القانون قابلٌ للتغيّر أو لا ؟

لقد لقيت نظرة « القانون الطبيعي » رواجاً كبيراً في القرون الوسطى ، وفي العصور التي تلتها ، ومؤدّاها أن الطبيعة البشرية هي المصدر الحقيقي للتشريع :

« فالطبيعة تطالب أن يكون حق السيطرة والحكومة لمطالبها الطبيعية ودعائمها الرائدة . وقد أعطت الطبيعة هذه الدعائم للإنسان في صورة « العقل » ، ولذلك لا بد من إقامة حكومة بقوة العقل [1] . »

وقد أعطت هذه النظرية أساساً كونياً للمشرّعين ، فقيل : إنه لا بد من دستور موحّد صالح لكل العصور . وهذه هي نظرية علماء القرنين السابع والثامن عشر حول القانون . ثم جاءت مدرسة أخرى ادعت استحالة معرفة الأسس الكونية للدستور . ويقول (كوهلر) في هذا :

« ليس هناك دستور أبدي ، وأي تشريع يصلح لعصر ما ليس ـ

---

(1) Boden Liener, *Jurisprudence*, p. 164

بالضرورة – صالحاً لعصر آخر . وليس لنا إلا أن نجهد أنفسنا في البحث عن دستور يلائم كل حضارة ، على حدة . فقد يكون دستور ما خيراً لطائفة من الناس ، ثم يسبب هلاك طائفة أخرى [1] ».

وقد قضت أفكار هذه المدرسة الأخيرة على تحكم القانون واستقراره ، فهي تدعو الإنسان إلى فكرة التغيير العمياء ، والنسبية Relativism ؛ وهي لن تنتهي إلى حد ما ، حيث إنها تفتقر إلى الأساس . وقد قلبت هذه الفكرة جميعَ القيم الإنسانية رأساً على عقب .

• • •

وهناك مدرسة أخرى تدعو إلى إحراز أكبر قدر من مقومات العدل في التشريع . ويكتب « اللورد رايت » Lord Wright معلّقاً على فكرة « دين راسكو باوند » :

« إن راسكو باوند يدعو إلى فكرة – اطمئننت إلى صدقها بعد جميع تجاربي ودراستي في القانون – وهي أن الهدف الأساسي والابتدائي للتشريع هو « البحث عن العدل[2] » .

فإذا سلّمنا بهذه النظرية واجهنا سؤالاً هاماً هو : « ما العدل ؟ » ؛ « وكيف يمكن تعيينه ؟ » ، وهكذا مرةً أخرى ، نرجع إلى « جون آستين »!

ومرة أخرى نقف أمام ظاهرة أن الإنسان لن يستطيع الكشف عن أساس واقعي للتشريع ؛ رغم الجهود الجبارة التي بُذلتْ في هذا الحقل منذ مئات السنين ، ويزداد يوماً بعد يوم شعور بالمرارة وخيبة الأمل بين رجال التشريع ، لأن الفلسفة الحديثة قد فشلت في بحثها عن أهداف الدستور.

---

(١) *Philosophy of Law*, p. 5

(٢) *Interpretation of Modern Legal Philosophies*, New York, 1947, p. 794.

ويتساءل البروفيسور جورج وهيتكروس باتون قائلاً :

« ما (المصالح) التي لا بد للدستور المثالي أن يحافظ عليها ؟ إنه سؤال يتعلق « بالقيم » ، ويدخل في دائرة فلسفة التشريع . وما أكثر ما نرجو من الفلسفة أن تساعدنا ؛ ولكن ما أقل ما هي مستعدة لبذله في هذه السبيل . فقد فشلنا في الكشف عن « ميزان للقيم » يمكن قبوله لدى جميع الأطراف .

والحقيقة أنه ليس هناك من أساس لشيء من النظم إلا للدين ؛ ولكن الحقائق الدينية تصلح كعقيدة ووجدان ، ولا يمكن قبولها على أساس الاستدلال المنطقي[1] . »

وقد نقل البروفيسور « باتون » رأياً لبعض علماء التشريع ـ يقول : إن جميع محاولات الدراسة الفلسفية للبحث عن « الأهداف » في فلسفة التشريع قد انتهت إلى غير ما نتيجة[2] . ويتساءل « باتون » : أهناك حقاً « قيم مثالية » تحدد الأسس عند تطوير التشريعات ؟ لم يتمكن المشرّعون من التوصل إلى هذه القيم حتّى الآن ، غير أنها لا بد منها » . ويستطرد قائلاً :

« لقد استخرج أصحاب نظرية (القانون الطبيعي) القديمة أسسهم من الحقائق الإلهامية في الدين . ولكن إذا ما أردنا نحن أن نأتي بتشريع علماني ، فأين سنجد أساس القيم المتفق عليها[3] ؟ »

وهذه التجربة المريرة تدعو الإنسان للعودة إلى الجهة التي انحرف عنها منذ قرون . فقد كان الدين يسهم إسهاماً فعالاً في وضع دساتير الزمن القديم .. ويرى خبير القانون المعروف السير هنري مين : أنه « لا يوجد مثال واحد في القوانين ، التي تم تسجيلها كتابةً ، من قانون الصين إلى

---

(١) *A Text Book of Jurisprudence*, p. 104

(٢) المصدر السابق : ص ـ ١٠٦ .

(٣) المصدر السابق ـ ١٠٩ .

بيرو ، إلا وكان ذا علاقة بالطقوس الدينية والعبادات منذ بداية أمره[1] . »

• • •

لقد آن الأوان أن نعترّف بالحقيقة القائلة : بأن البشر لا يستطيعون وضع دستور لهم بدون هدى الله . وبدلاً من المضي في الجهود التي لا تأتي بنتائج مثمرة، علينا أن نعترّف بالواقع الذي يدعونا إليه « الدكتور فرويدمان »، حين يقول :

« يتضح بعد دراسة هذه الجهود المختلفة أنه لا بدّ من هداية الدين لتقييم المعيار الحقيقي للعدل . والأساس الذي يحمله الدين لإعطاء العدل صورةً عملية ينفرد هو به في حقّيته وبساطته[2] . »

إننا نجد في الدين جميع الأسس اللازمة التي يبحث عنها المشرّعون لصياغة دستور مثالي ، ولكي يتضح صدق ما نقوله ، نأتي بالدراسة الوجيزة التالية في أهم مشكلات التشريع الإنساني :

---

(١) Sir Henry Maine. *Early Law & Custom*, p. 5.

(٢) *Legal Theory*, p. 450.

أولا : مصدر التشريع

وأول الأسئلة وأهمها بالنسبة لأي تشريع هو البحث عن مصدر هذا التشريع : من الذي يضعه؟ ومن ذا يعتمده حتى يصبح نافذَ المفعول؟

لم يصل خبراء التشريع إلى إجابة عن هذا السؤال حتى الآن. ولو أننا خوّلنا هذا الامتياز للحاكم، لمجرد كونه حاكماً، فليس هناك أساس نظري وعلمي يجيز تمتعه – هو أو شركاؤه في الحكم – بذلك الامتياز، ثم إن هذا التحويل من ناحية أخرى لا يجدي نفعاً؛ فإن إطلاق أيدي الحكام ليصدروا أي شيء لتنفيذه بوسيلة القوة – أمر لا تطيقه ولا تحتمله الجماهير.

ولو أننا خولنا سلطة التشريع لرجال المجتمع، فهم أكثر جهالة وحمقاً؛ لأن المجتمع – أي مجتمع – إذا نظرنا إليه ككل، لا يتمتع بالعلم والعقل والتجربة، وهي أمور لا بد منها عند التشريع. فهذا العمل يتطلب مهارة فائقة وعلماً وخبرة، وهو ما لا تستطيع العامة من الجماهير الحصول عليه؛ كما أنها، وإن أرادت، لن تجد الوقت الكافي لدراسة المشكلات القانونية وفهمها.

وللخروج من هذه المشكلة توصل رجال القانون إلى حلٍ وسط، وهو أن يقوم (البالغون) من أفراد المجتمع بانتخاب ممثلين لهم، وهؤلاء بدورهم يصدرون التشريعات باسم الشعب.

ومن الممكن أن ندرك حماقة هذا الحل الوسط ، حين نجد أن حزباً سياسياً لا يتمتع إلا بأغلبية ٥١ ٪ من مقاعد البرلمان يحكم على حزب الأقلية ، الذي يمثل ٤٩ ٪ من أفراد المجتمع البالغين . والأمر لا يقف عند هذا الحد ، بل إن هذا الحل يحتوي على فراغ كبير جداً تنفذ منه « أقلية » لتحكم على أغلبية السكان . وعلى سبيل المثال ، فإن الحكومة التي تحكم الهند الآن ، قد وصلت إلى مقاليد الحكم عن طريق الانتخابات العامة الخمسية الثالثة ، التي أجريت في البلاد عام ١٩٦٢ . وقد فاز حزب «المؤتمر القومي » بنسبة ٧٠ ٪ من مقاعد البرلمان ، في حين أن نواب هذا الحزب لم يحصلوا إلا على ٤٠ ٪ من أصوات الشعب ، في الانتخابات . وهذا هو ما حدث في الانتخابات الخمسية الأولى والثانية ، التي أجريت قبل سنة ١٩٦٢ [1] ، وحصل حزب المؤتمر في كلتيهما على أقل من ٥٠ ٪

---

(١) أجريت الانتخابات العامة الأولى والثانية في عامي ١٩٥١ — ٥٢ ، وعام ١٩٥٧ ؛ كما أن الانتخابات العامة الرابعة أجريت في عام ١٩٦٧ ، أي بعد صدور هذا الكتاب ، وفي هذه الانتخابات « فقد المؤتمر ، لأول مرة في تاريخه ثماني ولايات : غلبت فيها أحزاب أو مجموعات نيابية ائتلافية . وقد سبق في انتخابات سنة ١٩٦٢ (و ١٩٥٧) أن ألف الشيوعيون حكومة ائتلافية بالاستعانة ببعض الأحزاب السياسية في ولاية (كيرالا) . أما في انتخابات ١٩٦٧ فقد انهزم حزب المؤتمر هزيمة فادحة في ولايات : كيرالا ، ومدراس ، وأوريسة ، وبيهار ، كما لم يتمكن من إحراز أكثرية مطلقة (تمكنه من تأليف الوزارة) في ولايات : البنغال الغربية ، وأوتار براديش ، وراجستان وبنجاب . » انظر كتاب : إنديرا غاندي — سيرة سياسية ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص — ٢١٥ — ١٦ — للمعرب .

ومعناه : أن حزب المؤتمر فقد الحكم على نصف الولايات (البالغ عددها ست عشرة ولاية) ؛ ورغم ذلك تمكن هذا الحزب من تشكيل الحكومة الاتحادية (المركزية) ،لأن نوابه (الذين أحرزوا هذه المرة أقل من نصف مقاعد البرلمان ! » يمثلون الأغلبية بالنسبة إلى عشرات من الأحزاب الأخرى المتنازعة فيما بينها على المصالح والمناقشات الفقهية العقيمة ! ولو اتفقت هذه الأحزاب فيما بينها فكونت جبهة نيابية ائتلافية (كما فعلته بعض الأحزاب في الولايات الإقليمية) لاحتلت مقاعد الحكم ولاضطر نواب حزب المؤتمر إلى الجلوس في مقاعد « المعارضة » !

ويتضح من هذا جلياً : « كيف تنفذ أقلية في الفراغ الدستوري الموجود في تشريعاتنا حكم على الأغلبية ! » المعرب .

من مجموع الأصوات ! ولكنه رغم ذلك كان له الحق في تشكيل الحكومة ، لأن أصوات الناخبين الأخرى كانت موزّعة بين نواب الأحزاب (المعارضة) . ولم تكن بطولة حزب المؤتمر إلا في أنه أحرز أصواتاً أكثر من أي حزب آخر « على حدة » !

ولا أستثني من هذه القاعدة إلا الانتخابات المزعومة ، التي تجري في الدول الشيوعية ، فيفوز زعماؤها بأرقام خيالية للأصوات !

وهكذا نقف مرة أخرى أمام ظـاهرة البحث عن أساس القانون ومصدره .

والدين يستجيب لهذا التحدي الخطير ، الذي قد يدمر سعادة البشرية كلها .. إنه يقول : إن مصدر « التشريع » هو « الله » وحده ، خالق الأرض والكون ؛ فالذي أحكم قوانين الطبيعة هو وحده الذي يليق أن يضع دستور حضارة الإنسان ومعيشته . وليس هناك من أحـد غيره سبحانه ، يمكن تخويله هذا الحق .

إن هذا الجواب معقول وبسيط لدرجة أنه يصرخ قائلاً ، لو استطعنا أن نسمع نداءه : هل هناك أحد غير الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يسوي هذه المشكلة المصيرية ؟

لقد وصلت بنا هذه الإجابة إلى مكانها الحقيقي من التشريع والمشرّع ؛ بعد أن استحال علينا المضي خطوةً ما في ظلام الضلالة عن الهدى الحقيقي.

إنه لا يمكن قبول إنسان حاكماً ومشرّعاً للإنسان ؛ ولا يتمتع بهذا الحق إلا خالق الإنسان ، وحاكمه الطبيعي : الله

ثانياً : العناصر الأساسية للتشريع

ومن أهم الأسئلة لدى علماء القانون تحديد عناصر التشريع .. هل هي كلها إضافية ، أو أن هناك عنصراً أو عناصر أساسية ، لا يمكن الاستغناء عنها في أي دستور عند تعديله ، أو تجديده ، أو تغييره ؟ ..

لم يستطع خبراء التشريع الوصول إلى اتفاق في هذا الصدد ، رغم البحوث الطويلة التي أجريت في هذا الباب . وهم يسلّمون ، نظرياً ، بأنه لا بد من عنصر في التشريع يتمتع بالدوام والأبدية ، مع عناصر أخرى تتصف بالمرونة ، فيمكن الاستغناء عنها عند الضرورة .

ويرون أيضاً أن افتقار الدستور إلى أحد العنصرين « الأبدي والإضافي » سوف يكون مصدر شقاء دائم للبشرية . وقد عبر عن هذه الحالة أحد قضاة الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو القاضي كاردوزو Cardozo على النحو التالي :

« من أهم ما يحتاج إليه التشريع اليوم : أن نصوغ له فلسفة للتوفيق بين الرغبات المتحاربة حول ثبات عنصر ، وتغيّر عنصر آخر[1]. »

---

(1) *The Growth of Law.*

ويقول خبير آخر في شئون القانون ، وهو البروفيسور « راسكو باوند » :

« لا بد من عنصر التحكم في التشريع ، ولكن هذا لا يعني أن يصبح التشريع جامداً . ولذلك بذل الفلاسفة قصارى جهودهم ، للتوفيق بين مقومات التحكم والتغيير في هذا المجال [1] . »

والحق أنه لا يمكن التوصل إلى أساس يميّز بين عناصر القانون الذي وضعه الإنسان ، بعضها وبعض ، فكل عنصر يدعي أنه صالح للدوام يلزمه أن يقدم دليلاً على ذلك ؛ وهو عاجز تماماً عن الإتيان بذلك الدليل ؛ فقد نرى اليوم عنصراً من الدستور ، صالحاً للدوام ، ثم يأتي رجال الغد يعلنون الاستغناء عن ذلك العنصر من دستورهم ، ما دام الدستور يصاغ بناءً على رغبات الشعب ، فقد لا يُعجبهم ذلك ، أو يرونه قد فقد صلاحيته بمضي الزمن .

* * *

أما الحل الوحيد لمشكلتنا فهو « الشرع الإلهي » الذي يمنحنا جميع العناصر الأساسية الضرورية ، فهذا الشرع يضع جوانب أساسية جذرية ، ثم يترك الباقي مفتوحاً للاجتهادات المختلفة ، بحسب الزمان والمكان .

إنه يحدد العناصر الأساسية وغير الأساسية بالنسبة إلى دستور ما . ثم هو إلى جانب ذلك يتصف ويتمتع بدليل الترجيح والتفضيل لصالحه ، حيث إنه من عند الله سبحانه وتعالى ، ومن ثم لا بد لنا أن نعتبره حقاً ، وأن نعتده الكلامَ الأخير في الموضوع ، الذي لا كلام بعده . وتلك ميزة هامة في التشريع الإلهيّ ، لا يستطيع الإنسان أن يأتي ببديل عنها .

* * *

---

(١) *Interpretations of Legal History*, p. 1.

ثالثاً : تحديد مفهوم الجريمة

ومما لا بد أن يتوفر لأيّ دستور أن يكون لديه دليل معقول ، يستند إليه ، لاعتبار عمل ما « جريمةً » . ويقول الدستور الذي وضعه الإنسان : إن الجريمة هي : « كل عمل يضر بالأمن العام ، أو نظام الحكم القائم » ، والتشريع الإنساني لا يجد أساساً غير هذا لاعتبار عمل ما جريمةً . وقد دفع هذا الأساسُ القانونَ الجديد إلى إقرار أن جريمة « الزنا » ليست بجريمة ، إلا إذا تمت جبراً أو إكراهاً لأحد الطرفين . فالقانون الجديد لا يعتبر «الزنا» جريمة ، وإنما الجريمة الحقيقية عنده هي الجبر والإكراه الذي سبق «الزنا».

إن الاستيلاء على أموال أحد المواطنين حرام ، وكذلك إهدار عصمتهم والنيل من عفتهم . ولكن أموال إنسان من الناس تصبح مباحة لرجل آخر . إذا تم ذلك برضاء (الطرف الأول) ــ صاحب المال ! وكذلك يرى القانون أن عصمة أحد الطرفين تباح للثاني ما دام راضياً ، فعند رضا الجانبين يصبح القانون حامياً لهما ، ومدافعاً عنهما ؛ ولو حاول « طرف ثالث » التدخل في الأمر ، فهو الذي سوف يُعد مجرماً ، وليس الطرفان الأولان !

إن جريمة « الزنا » تفشي فساداً كبيراً في المجتمع ، فهي تخلق مشكلات أطفال الحرام (غير الشرعيين) ، وتُضعِف روابط الزواج ؛ وهي كذلك تصدر عن عقلية تفضل اللذات السطحية في الحياة ، وتربي عقلاً

خائناً ، وتخلق السَّرَقَةَ واللصوص ، وتروّج الاغتيالات والانتحار والخطف ؛ ومن ثم تفسد المجتمع كله ، ولكن القانون – رغم ذلك – لا يستطيع تحريمها ، فهو لا يجد أساساً لتحريم « الزنا » الذي تم بالرضا المتبادل ! !

* * *

ولم يستطع القانون الجديد أن يحرّم « الخمر » ، لأنه يؤمن بأن الأكل والشرب حق من الحقوق الطبيعية للإنسان . وهو حر في اقتناء كل ما يريد أن يأكله ويشربه ؛ وليس للقانون أن يتدخل في حقوق الطبيعة ، ومن ثم لم يكن شرب الخمر والسكر الذي يتبعه جريمة في الواقع ، إلا إذا اعتدى شارب الخمر على أحد المواطنين في هذه الحالة من السكر ؛ أو خرج إلى الشارع وهو سكران ؛ فالجريمة ليست هي حالة السكر ، بل الاعتداء على الآخرين في تلك الحالة !

والخمر تضر بالصحة ، وتبدّد أموالَ الناس ، وتؤدي بمدمنيها إلى كوارث اقتصادية محققة ، وتضعف الشعور الأخلاقي ، حتى إن الإنسان يتحول إلى حيوان رويداً رويداً . والخمر خير مساعد للمجرمين ، فهي تشل الإحساسات اللطيفة ، حتى يستطيع الإنسان اقتراف أية جريمة من السرقة والقتل ، وهدر العصمة . ولكن القانون الإنساني رغم هذه المعايب الشنيعة – لن يتمكن من تحريم الخمر ، لأنه لا يجد جواباً يسوغ تدخله في حق من حقوق الإنسان الطبيعية ! !

ولن نجد حلاً لهذه المشكلة إلا في قانون الله ، إن قانونه يبيّن رضا حاكم الكون ؛ فإن كون أي قانون قانونَ الله يحمل معه أولوية تنفيذه ، ولا يحتاج بعد ذلك دليلاً آخر . وهكذا يسدّ القانون الإلهي فجوةً عميقة ، نتمكن بعدها من إحالة أي عمل إلى دائرة القانون .

* * *

رابعاً : القانون والأخلاق

لا يستطيع القانون أن يستقل بذاته في أي وقت من الأوقات ، بل لا بد له أن يقترن بالأخلاق . ولتوضيح هذه النقطة نقول :

١ — لو طرحت قضية أمام القانون — على سبيل المثال — وتعمد الفريقان وشهودهما الكذب فلم يتبين الصدق أمام القاضي ، فسوف يقضى على العدل ، ولن يتمكن القاضي من الحصول عليه مهما حاول . ولذلك كان لا بد من قانون آخر « وراء القانون » ، يحرّك الناس ، ويحملهم على الإدلاء بالبيانات الصادقة للوصول إلى العدل . وقد اعترفت جميع محاكم العالم بهذا المبدأ ، حتى إنها تلزم كل شاهد (أن يقسم بالله أن يقول الحق) قبل الإدلاء بشهادته .. وهو دليل واضح يؤكد أهمية العقائد الدينية لصون حرمة القانون . بيد أن المجتمع الجديد قد قضى على أهمية المعتقدات الدينية ، حتى أصبحت أيمانُ المحاكم أضحوكة ، وتقليداً لا يأتي بنفع . أي نفع !

° ° °

٢ — ومما لا بد منه أن يكون أي « عمل » يعاقب عليه القانون « جريمة » في نظر المجتمع أيضاً ، وأي بندٍ من قانون مكتوب لا يمكنه أن يخلق نفسية في المجتمع ، ترى في عمل ما جريمة ، كما يراه القانون ؛ إذ لا بد من أن يشعر مرتكب الجريمة بأنه « مذنب » . ويعتبره المجتمع مذنباً . ويقبض عليه

رجال الشرطة بكل اقتناع ، ثم يصدر قاضي المحكمة – وهو في غـاية الاطمئنان – حكماً ضد ذلك الرجل. ولذلك كان لا بد أن تكون كل جريمة « ذنباً » أيضاً. وهذا هو ما يراه أصحاب المدرسة التاريخية مـن رجال القانون :

« إن أي تشريع لن يصيب هدفه إلا إذا كان مطابقاً للاعتقـادات السائدة عند المجتمع الذي وضعَ له ذلك القانون ، ولو لم يطابق التشريع اعتقاداتِ المجتمع ، فلا بد من فشله[1] . »

هذا الرأي الذي عبرت عنه « المدرسة التاريخية » لرجال القانون غير صائب في مغزاه الحقيقي الذي يرمي إليه إطلاقاً ، ولكنه ذو صدق خارجي.

° ° °

٣ – إن خوف الشرطة والمحكمة لا يكفي لدرء الجرائم ، وإنما لا بد أن يكون هناك وازع في المجتمع يمنع الناس من ارتكاب الجرائم ؛ لأن الرشاوى ، والمحسوبيات ، وخدمات المحامين البارعين ، وشهود الزور – كل هذه العوامل تكفي لحماية المجرم من أية شرطة أو محكمة إنسانية ، والمجرم لا يرهب عقاباً ، أي عقاب ، لو استطاع أن يفلت من أيدي القانون.

إن الشرع الإلهي يستوفي كل هذه الأمور ؛ فعقيدة « الآخرة » ، التي يحملها الشرع الإلهي ، هي خير وازع عن ارتكاب الجرائم ؛ وهي تكفي لتبقى إحساساً بالجريمة واللوم يعتمل في قرارة ضمير الإنسان ، لو أدلى بشهادة كاذبة أمام القاضي.

لقد أقيم في فناء محكمة « ويسترن سركيت » نُصُبٌ من حجر ، يذكّر الناس بشاهد أدلى بشهادة زور في فناء الدار ، ثم قال : « وإن كنت

(١) A Text Book of Jurisprudence, p. 16.

كاذباً ، فَلْيمتني الله ، هنا ؛ في الحال ! » ولم تكد هذه العبارة تخرج من فم الشاهد حتى سقط على ساحة الأرض ، ومات في الحال[1] ! !

وهناك وقائع أخرى من هذا النوع حدثت لشدة إحساس أصحابها باللوم والذنب .

° ° °

إن قرارات البرلمانات لن تخلق في الجماهير شعوراً بشناعة فعل ما ، إلا إذا كانت معتمدة من القانون الإلهيّ ، وراسخة في معتقدات المجتمع .

والوازع الذي يمنع من ارتكاب الجرائم ليس هو الدين في حد ذاته ، فإنه لا يقدم لنا تشريعاً فحسب ، وإنما يخبرنا أن صاحب هذا التشريع يشاهد كل أعمالنا من خير وشر .. فنياتنا وأقوالنا وحركاتنا بأكملها تسجّل بواسطة أجهزة هذا المشرّع ؛ ولسوف نقف بعد الممات أمامه ، ولن نستطيع أن نفرض ستاراً على أدنى أعمالنا .

ولو أننا استطعنا الهروب من عقاب محكمة الدنيا ، فلن نتمكن — بالتأكيد — من أن نفلت من عقاب صاحب التشريع السماوي .

ولو أننا حاولنا تفادي عقاب الدنيا ، فسوف نذوق عذاباً مضاعفاً يوم القيامة ، يفوق عقاب الأرض ملايين المرات ، قسوة وعنفاً .

• • •

(١) Sir Alfred Denning, *The Changing Law*, p. 103, 1953.

خامساً : القانون والفرد

ورد في التاريخ الإنجليزي أن الملك « **جيمس الأول** » أصدر مرسوماً يقول بأنه (الملك) يستطيع أن يحكم البلادَ مطلقَ العنان ، كما أن من حقه إصدار أحكام دون أن تخضع للمرافعة أو الاستئناف في المحاكم .

وكان رئيس القضاة حينئذ هو القاضي الشهير « **اللورد كوك** » **Coke** ، وكان شديد التمسك بالدين حتّى اعتاد أن يقضي ربع يومه في الكنيسة وذهب اللورد كوك ليقول للملك : « ليس من حقك أن تحكم في أي شيء ، ولا بد لجميع القضايا أن تذهب إلى المحكمة للنظر فيها . »

فقال له الملك : « إنني أرى — وهو ما سمعته — أن القوانين قد وضعت على أساس العقل ، فهل أنا أقل من قضاتك عقلاً ؟ »

فأجابه رئيس القضاة : « إنه مما لا شك فيه أنكم تتمتعون بعلم وكفاءة مثاليين ، ولكن القانون يتطلب تجربة طويلة ودراسة عميقة . وفوق ذلك هو الميزان الذهبي الذي يزن حقوق الرعية ؛ وهو الذي يصون شخصيتكم . »

فغضب الملك بشدة وقال : « هل أنا أيضاً أخضع للقانون ؟ إن هذا المقال بمثابة تمرد وخيانة ! »

وكان جواب « اللورد كوك » أن ذكّر الملك برأى « براكتون » **Bracton** ، الذي قال :

« إن الملك لا يخضع لأحد من الناس ؛ ولكنه خاضع لله وللقانون »[1] .

• • •

وهنا — لو جرّدنا القانون من « الله » . فلن نجد أساساً معقولاً للقول بأن : « الملك خاضع للقانون » — لأن الذين صاغوا القانون ، وأصدروه بإرادتهم ، يستطيعون — في الوقت نفسه — تعديله وتغييره إذا ما أرادوا ذلك ، فكيف — إذن — سيخضعون لذلك القانون[2] ؟...

---

(١) المرجع السابق : ص — ١١٧ — ١٨ .

(٢) ومن أمثلته ما حدث في الهند أخيراً ، بعد أن أفلحت مجموعات نيابية ائتلافية في الحصول على مقاليد الحكم في كثير من الولايات الإقليمية ، فحينئذٍ أجرت الحكومة المركزية (التي يحكمها حزب المؤتمر) تعديلات هامة في كثير من المجالات ، لتقييد حركة الحكومات (المعارضة) ؛ ومنها — على سبيل الذكر — منع تقديم الهبات والمعونات المالية إلى الأحزاب السياسية . وكانت هذه المعونات المقدمة إلى الأحزاب السياسية معفاة من الضرائب ، فضلا عن أن أصحابها كانوا يتمتعون بتسهيلات عديدة عند دفع الضرائب . وكان حزب المؤتمر ، كحزب حاكم ، يحصل على هذه الهبات بأكثر من ثمانين في المائة ، بينما كانت الأحزاب الأخرى لا تتمتع إلا بنسب ضئيلة جداً من هذه المعونات ، ولكن بعد نجاح الأحزاب الأخرى في الوصول إلى مقاعد الحكم في كثير من الولايات تحولت مصالح الرأسماليين إلى الحكام الجدد فأغدقوا على أحزابهم المعونات ، مما آل بأضرار بالغة بالنسبة لحزب المؤتمر ، فمنعت الحكومة المركزية التسهيلات التي كانت تقدم إلى أصحاب الهبات ، وبالتالي حرمت الأحزاب الأخرى من جنى فوائد كبرى ! لقد أصبح نفس الشيء الذي كان مباحاً في الماضي — محظوراً في الحال ، لأن مصالح واضعي الدستور (الذين يتمتعون بأغلبية ضئيلة تمكنهم من فرض آرائهم على الأقلية الكبيرة) لم يعد لها وجود ، بسبب تصاريف الزمن !

ومنها كذلك أن « الجمعية التشريعية » في ولاية (أورلسه) الهندية أصدرت قانوناً يحرم على المواطنين تغيير الديانة ، وهذا — كما هو واضح بكل جلاء — لمنع الهندوس ، وخصوصاً المنبوذين ، من قبول الإسلام !! وهذا البند المستحدث يتعارض تعارضاً كلياً ، بل يصادم الدستور الهندي الذي يعطي للمواطنين الحرية الكاملة في الشئون المماثلة . ولكن هذا التشريع الجديد جاء ليرضي الرجعيين المنادك الذين يقبعون في مقاعد الحكم الحساسة في الحكومة المركزية (مثل مورارجي ديساي ، نائب رئيس الوزراء السابق) ؛ وهؤلاء يشجعون ، علانية ، مثل هذه الحركات الشنيعة ، لمنع الأهالي من قبول الدعوة الإسلامية ؛ وهؤلاء الرجعيون هم المسئولون عن الاضطرابات الطائفية التي يذهب ضحيتها الكثيرون من المسلمين المسالمين ، ثم لا يقدم مثيرو الشغب والفساد إلى المحاكمة — إطلاقاً — لتمتعهم بعطف ووصاية الرجعيين — المعرب .

إن الإنسان إذا كان هو المشرّع ، فهو يحل محل القانون والإله معاً ، وحينئذ يستحيل احتواؤه داخل دائرة القانون ، بأي صورة من الصور .

وقد أدى هذا العيب في القوانين الحديثة إلى أنه – على الرغم من أن كل الجمهوريات تقرّ مبدأ المساواة المدنية – فإن هذه المساواة لا تُنفّـذ فعلاً في أية دولة ، فلو أنك كنت تريد أن تحاكم رئيس جمهورية الهند ، أو أحد حكام الولايات ، فلن تستطيع ذلك ، كما تستطيع أن تحاكم المدنيين العاديين ؛ إذ كان لا بد لك من الحصول على موافقة الدولة ، قبل الذهاب إلى المحكمة . فقد أضفى الدستور الهندي (في المادة ٣٦١) على رئيس الجمهورية ونائبه وحكام الولايات هالة وامتيازاً ، بحيث لا تمكن محاكمتهم إلا بعد موافقة البرلمان المركزي . وكذلك لا بد من الحصول على موافقة الحكومة ، لمحاكمة الوزراء !

والأمر لا يقف بنا عند هذا الحد ، بل تنص المادة ١٩٧ ، من (لوائح العقوبات الهندية) على : « أن قاضياً ، أو وكيلاً للنيابة العامة ، أو أحد الموظفين الحكوميين (من الذين لا يجوز فصلهم من الخدمة إلا بعد موافقة الحكومة المركزية) لو اتّهم أحدهم بارتكاب جريمة ما ، فليس من شأن المحاكم النظر في قضية أحدهم، إلا بعد الحصول على موافقة الحكومة المركزية أو المحلية ، التي تتعلق بها وظيفة المتهم المطلوب محاكمته » ! !

وبكلمة أخرى : لو أردت أن تحاكم سياسياً كبيراً ، أو أحد أعضاء السلطة التنفيذية العليا – فعليك أن تسأل هؤلاء أنفسهم : « هل تبيحون لنا محاكمتكم ؟ » !

وليس هذا عيب الدستور الهندي بالمرة ، بل هو عيب القانون البشري بعامة ، وهو عيبٌ موجودٌ ، في حيث يوجد هذا النوع من الدساتير الوضعية .

ليس من الممكن أن يتحقق العدل الكامل إلا في ظل القانون الإلهي ، حيث يكون كل إنسان مساوياً للآخرين أمام الدستور ، وحيث تمكن مقاضاة

أية سلطة سياسية وتنفيذية، كما يُحاكَمُ ابن الشعب ، لأن الحاكم في هذا القانون هو « الله » سبحانه وحده ، والمحكومون هم سائر أفراد المجتمع دون أدنى تمييز[1] ..

• • •

(١) لذلك أمثلة رائعة في العصور الأولى لخلافتنا الإسلامية ، حين كان العاديون من أفراد الشعب يحتكمون إلى القضاة ضد الخلفاء وعمال الأقاليم وكبار رجال الدولة. بل وهناك أمثلة في العهود القريبة جداً ، ومنها ، على سبيل المثال وليس الحصر ، أن أفراد الشعب العاديين احتكموا إلى المحاكم عدة مرات ضد الإمبراطور المسلم المغولي« جهانكير » – ابن الإمبراطور « أكبر » – الذي حكم الهند في القرن السابع عشر. – المعرب –

أقول: أليس هذا أثراً من آثار المبادىء المحمدية السامية ، وانعكاساً لقولة رسول الله صلى الله عليه وسلم المدوية في سمع الزمان : « أتشفعون في حد من حدود الله ؟ والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .؟.. المراجع

سادساً : القانون والعدل

إن أهم وأكبر أساس في هيكل القانون هو « العدل » ، الذي يبحث عنه خبراء القانون من قرون طويلة ، وهو موجودٌ في القانون الإلهي في أتم الصور وأكملها . والقول بأن : عدم اهتداء الإنسان إلى أساس العدل يرجع إلى أن بحوثنا لا زالت ناقصة ، وتتطلب المزيد من البحث - قولٌ باطل . فهذا الكلام يثبت أنه ليس في مستطاع الإنسان أن يحصل على هذا الأساس أبداً .

لقد قطعنا شوطاً كبيراً في مضمار البحوث الطبيعية بنتائج باهرة في كل مجال ، ولكنا ، رغم جهودنا المضاعفة في البحث عن القوانين المدنية ، لم نحرز نجاحاً ، ولو بنسبة واحد في المائة من الدرجة المطلوبة . وهذه الخيبة تؤكد أن إخفاقنا لا يرجع إلى نقص الجهود ، وإنما سببه الحقيقي أن هذا الأمر خارج - على الإطلاق - عن نطاق بحث الإنسان .

° ° °

لقد صوّر الإنسان أول صورة فوتوغرافية في عام ١٨٢٦ م . وقد بذل العالم الفرنسي ، الذي اخترع الجهاز ، ثماني ساعات متواصلة لتصوير شرفة المنزل .. والآن تستطيع آلات تسجيل الأفلام أن تصور أكثر من ألفي صورة في الثانية الواحدة ، ومعنى ذلك أننا نستطيع اليوم أن نصور أكثر

من ستين مليون صورة ، في نفس الوقت الذي استغرقته عملية التصوير الأولى ، أي أن سرعتنا قد زادت ستين مليون مرة ، في ١٤٠ سنة فقط ! !

وعند بدء هذا القرن العشرين لم يكن يوجد في شوارع الولايات المتحدة غير أربع سيارات ، على حين تمرق الآن على شوارعها الفسيحة عشرة ملايين سيارة .

ويمضي الإعجاز العلمي بالإنسان إلى أن يقسّم الزمن إلى $\frac{}{١,٠٠٠,٠٠٠}$ جزء من أجزاء الثانية ! وتستطيع المراصد العلمية أن تكشف عن أدنى فارق في حركة دوران الأرض – حتّى ولو بلغ في مدته $\frac{١}{١,٠٠٠,٠٠٠}$!

لقد اخترعنا آلات حساسة يمكنها الكشف عن فارق الوزن الذي يطرأ على كتابة (حرفين) بالحبر ، على ورقة من أوراق موسوعة من ثلاثين مجلداً !

هذه هي حال الإنسان في حقل البحث العلمي ، على حين لم يتمكن من إحراز أي تقدم – ولو بمقدار « بوصة » – في مجال القوانين المدنية .

وسوف أورد هنا بعض الأمثلة من مختلف مجالات الحياة ، لنتبين مدى صدق القول : بأن الدستور الإلهي هو وحده الأساس الحقيقي ، الذي يصلح لأن يكون مصدراً لقوانين الحياة الإنسانية .

• • •

المرأة والمجتمع

إن الإسلام لا ينظر إلى المرأة والرجل نظرةً واحدة ، فهو يحرم العلاقات الحرة بينهما . وقد أخذ العلماء عند بدء العصر العلمي يسخرون من هذه القوانين ، وأطلقوا عليها : « مخلفات العصر الجاهلي » .

وقالوا بشدة : إن الرجل والمرأة متساويان ، ويرثان النسل الإنساني بطريقة متساوية ؛ ولسوف تكون جريمة كبرى لو أقمنا العقبات في طريق علاقاتهما الحرة .

وقد أنتجت هذه الفكرة مجتمعاً جديداً في الغرب . بيد أن التجارب الطويلة المريرة التي مرت بها الإنسانية بعد هذه الإباحة الجنسية هي أقسى ما عاناه البشر ؛ فقد ثبت بعد هذه التجارب أن المرأة والرجل لا يتساويان فطرياً ، ولا طبيعياً ، وأي مجتمع يقوم على أساس مساواتهما سوف يسبب خراباً ودماراً عظيمين للحضارة البشرية .

• • •

(ا) إن أول حقيقة في هذا الأمر هي أن الرجل والمرأة يختلفان كلَّ الاختلاف في نوعية كفاءاتهما الطبيعية ، واعتبارهما متساويين إنما هو مخالفة كبرى لقوانين الطبيعة في حد ذاتها .

كتب الدكتور « الكسيس كيربل » ، الحائز على جائزة نوبل للعلم – وهو يبيّن الفارق العضوي بين الرجل والمرأة – يقول :

« إن الأمور التي تفرق بين الرجل والمرأة لا تتحدد في الأشكال الخاصة بأعضائهما الجنسية والرحم والحمل ، وهي لا تتحدد أيضاً في اختلاف طرق تعليمهما ؛ بل إن هذه الفوارق هي ذات طبيعة أساسية ؛ من اختلاف نوع الأنسجة في جسم كليهما ؛ كما أن (المرأة) تختلف عن (المرء) كلياً ، في المادة الكيماوية التي تفرز من مبيض الرحم داخل جسمها . والذين ينادون بمساواة الجنس اللطيف بالرجل يجهلون هذه الفوارق الأساسية ، فيدّعون أنه لا بد أن يكون لهما نوع واحد من التعليم والمسئوليات والوظائف. ولكن المرأة في الواقع تختلف عن الرجل كل الاختلاف ؛ فكل خلية من جسمها تحمل طابعاً أنثوياً ، وهكذا تكون أعضاؤها المختلفة ، بل وأكثر من ذلك هذه هي حال نظامها العصبي .

إن قوانين وظائف الأعضاء محددة ومنضبطة كقوانين الفلك ، حيث لا يمكن إحداث أدنى تغيير فيهما بمجرد الأمنيات البشرية ، وعلينا أن نُسلّم بها ، كما هي ، دون أن نسعى إلى ما هو غير طبيعي ، وعلى النساء أن يقمن بتنمية مواهبهن بناءً على طبيعتهن الفطرية ، وأن يبتعدن عن تقليد الرجال[1] . »

ولقد صدّقت التجارب العملية نتائج هذه الفوارق الطبيعية ، فقد فشلت المرأة في أن تحرز أية مساواة مع الرجل في أي ميدان .. حتى إن الرجل يتقدم المرأة في الميادين التي كانت تعتبر حكراً على المرأة في الماضي . ومن ذلك أن المرأة فشلت في المساواة مع الرجل في حقل السينما . وليس الرجل هو الذي يدير اليوم كل ما هو متعلق بالسينما ، ومع ذلك فهو يتقاضى

---

(١) *Man the Unknown*, p. 93

أجراً أكثر من المرأة . فممثل كبير يتقاضى اليوم ستة ملايين روبيه ،[1] في السنة ، على حين لا يزيد دخل أعظم ممثلة هندية على أربعة ملايين روبيه ! !

° ° °

وليس هذا هو كل ما في الأمر .. فإننا لو أنكرنا القوانين الطبيعية والضوابط الفلكية ، وبدأنا نعمل على عكسها فسوف نكسّر رؤوسنا بأيدينا . وهكذا جلب النظام الذي صاغه الإنسان ـ متجاهلاً الحيثيات الفارقة بين الجنسين ـ صنوفاً من الأمراض والجرائم إلى داخل المجتمع . إن شباب هذا المجتمع الجديد يشكو أنواعاً من الأمراض الجنسية والخلقية والنفسية ، فضلا عن العصمة التي أهدرها المجتمع ، نتيجة هذا الاختلاط المروّع .

ومن الظواهر التي تتكرر مراراً أمام أطباء هذا المجتمع أن تدخل فتاة غرفة الطبيب ، وهي تشكو من الصداع وقلة النوم ، وتمضي بعض الوقت تتحدث عن هذه الآلام .. ثم لا تلبث أن تتكلم عن شاب التقت به صدفة منذ مدة .. وحينئذ يشعر الطبيب أنها تتعثر وتتلعثم في كلامها ، فيقول لها :

"Well, then he asked you to his flat, what did you say?"

حسناً ! ثم دعاك إلى شقته ، فماذا قلتِ له ؟ »

وتقول الفتاة في دهشة :

« كيف عرفت ذلك . لقد كنت أريد أن أقول لك ذلك حالاً ! »

ومن الممكن قياس كل ما ستقول الفتاة للطبيب بعد هذا الحديث .

---

(١) عملة هندية كانت تساوي عشرة منها جنيهاً مصرياً (عند صدور هذا الكتاب) ، وأما الآن فستة عشر (١٦) منها تساوي الجنيه المصري الواحد ، بعد تخفيض قيمة العملة الهندية عام ١٩٦٦ ، وبالتالي قفزت دخول الممثلين الهنود إلى أرقام خيالية ، فجاء في إحدى الإحصائيات الحديثة أن أكبر ممثل هندي (دليب كومار ، واسمه الحقيقي يوسف خان) يتقاضى ١,٦٠٠,٠٠٠ روبية للاشتراك في فيلم واحد ، بينما أكبر ممثلة لا تتقاضى إلا أقل من نصف هذا الأجر ! المعرب

وهذا هو الذي دفع علماء الغرب إلى الشعور بخيبة الأمل ، فانتهوا إلى أن الحفاظ على العفة والعصمة « كلام فارغ » في ظل مجتمع العلاقات الحرة .
وقد قال طبيب غربي :

« من الممكن أن يصل الرجل والمرأة إلى نقطة ، يستحيل عندها التحكم في الأعصاب ، والإحساس بالعواقب . »

وقد بدأت حملة شديدة ضد هذه الظواهر في صورة المقالات والكتب. وبدأ بعض علماء الغرب يشعرون بالكارثة التي تهدد حضارتهم . ولكنهم ، رغم ذلك كله ، غير قادرين على فهم جذور الموقف .

ولقد نشرت الطبيبة المعروفة « **ماريون هيليارد** » مقالاً عنيفاً ضد الاختلاط الحر . فقالت : « إنني لا أستطيع أن أسلم ، كطبيبة ، بأن العلاقات الطاهرة ممكنة بين رجل وامرأة ، ينفردان برضاهما وقتاً طويلاً . »

ولكن الدكتورة « هيليازد » تستطرد قائلة :

« ولست على هذه الدرجة من الغباء ، حتى أنصح الشبان والفتيات أن يمتنعوا عن التقبيل . ولكن أكثرية الأمهات لا تخبرن أولادهن أن القبلة لا تبرد العواطف ، وإنما تلهبها[1] . »

وتسلم الدكتورة (هيليارد) ، بهذا القول ، بالقانون الإلهي الذي يحرم هذه الظواهر ، حتى لا يصل الإنسان إلى حافة الجرائم الجنسية القبيحة ؛ ولكن الطبيبة لا تعرف : كيف تحرم هذه الظاهرة التي تنتهي إلى الأعمال الشيطانية لا محالة ؟ !

• • •

ب ـ لقد أباح مشرع الإسلام « تعـدد الزوجات » ؛ وأثيرت

---

(١) مجلة « ريدرز دايجست » ، عدد ديسمبر عام ١٩٥٧ .

ضجة كبرى ضد هذا التشريع ، وأطلق عليه – هو الآخر – أنه « تذكار العصر الجاهلي » . ولكن جاءت التجارب العملية لتثبت أنه كان تشريعاً مناسباً للطبيعة الإنسانية ، لأن سدّ باب الزوجات إنما هو فتح لعشرات الأبوابالفاجرة ، غير الشرعية .

وسوف أشير هنا إلى النشرة الإحصائية التي نشرتها هيئة الأمم المتحدة في عام ١٩٥٩ . لقد أثبتت هذه النشرة بالأرقام والإحصائيات : أن العالم يواجه الآن مشكلة « الحرام أكثر من الحـــلال » (More out than in) في شأن المواليد ! وجاء في هذه الإحصائية أن نسبة الأطفال غير الشرعيين قد ارتفعت إلى ستين في المائة . وأما في بعض البلاد ، وعلى سبيل المثال « بناما » فقد جاوزت هذه النسبة الخمسة والسبعين في المائة ، أي أن ثلاثة عن طريق الحرام من كل أربعة مواليد ! وأرفع نسبة لهـــؤلاء الأطفال غير الشرعيين موجودة في أمريكا اللاتينية .

وتثبت هذه النشرة أيضاً أن نسبة الأطفال غير الشرعيين تصل إلى « العدم » في البلدان الإسلامية . وتقول النشرة : إن نسبة هؤلاء الأطفال أقل من واحد في المائة في الجمهورية العربية المتحدة ، مع أنها أكثر البلاد الإسلامية تأثراً بالحضارة الغربية .

فما الأسباب التي تحمي الدول الإسلامية من هذه البلية ؟

يقول محررو هذه النشرة الإحصائية : إن البلدان الإسلامية محفوظة من هذا الوباء لأنها تتبع نظام « تعدد الزوجات[1] » .

لقد استطاع هذا القانون الإلهي الحكيم أن يحمي بلادنا الإسلامية من كارثة محققة في هذا العصر .

---

(١) جريدة *The Hindustan Times* ، عدد ١٢ سبتمبر سنة ١٩٦٠ .

فقد أكدت تجارب الإنسانية أن القانون الإلهي القديم هو الذي كان مبنياً على الحق ، والرحمة بالإنسانية [1].

• • •

(۱) لم يستطع محررو النشرة الإحصائية أن يشيدوا بالدين الإسلامي وروحه (وذلك راجع إلى تعصبهم أو جهالتهم بالحقائق ؛ أو إلى الإثنين معاً) ، فمن مزايا الإسلام أنه يحرم « الزنا » ، وتحريمه هذا هو الذي يحمي المسلمين ، سواء أكانوا من متعددي الزوجات أم من غيرهم ؛ وذلك لأن ظاهرة تعدد الزوجات آخذة في الاختفاء من المجتمع الإسلامي ، بسبب الحملات السخيفة التي تعرضت لها من جانب علماء الغرب ، والمتفرنجين من أبناء الشرق المبهورين بالحضارة الغربية (والذين يطلق عليهم مؤلف هذا الكتاب كلمة « الإنجليز السود » المتحمسون للحضارة الغربية أكثر من أصحابها) . وترتبت على هذا الوضع مشكلات خطيرة – من عائلية واجتماعية إلى حضارية ، بسبب عدم اكتفاء الكثيرين من الأزواج بزوجة واحدة ، وكثرة الفتيات والأرامل الطالبات للزواج ، وقلة الشبان ، وهذه مشكلات يعاني منها مسلمو الهند وباكستان بشدة أكثر من إخوانهم العرب . (المعرب)

التمدن

شرع الإسلام القصاص ممن قَتَلَ عمداً ، إلا أن يرضي ورثة القتيل بالدية . ولقد تعرض هذا القانون لنقد شديد من جانب رجال القانون في العصر الحاضر ، وأهم ما يستدلون به : أن معنى هذا التشريع أن تضيع نفس أخرى ، بعد أن ضاعت الأولى بالفعل ؛ ودفعهم هذا إلى إلغاء نظام (الإعدام شنقاً) في كثير من البلاد .

إن القانون الذي يقرره الإسلام له فائدتان هامتان :

أولاهما : أن تستأصل جذور هذه الجريمة ، لأن أحداً من الآخرين لن يندفع إلى ارتكابها مرةً أخرى نظراً للعاقبة الوخيمة التي لقيها أحد أفراد المجتمع[1] .

وأما الثانية : فهي « الدية » ، وقد راعى المشرّع النتائج مراعاة تامة ، فلو قتل الابن الوحيد لشيخ ؛ فعلى القاتل أن يدفع لوالد المقتول مبلغاً من

---

(١) الدولة الوحيدة التي تطبق النظام الإسلامي في هذا المجال هي المملكة العربية السعودية ، ومن المعروف لكل المهتمين بالشئون السعودية أن نسبة القتل بها أقل نسبة في العالم كله ؛ فالمعدل السنوي لحوادث القتل بالمملكة السعودية لا يزداد عن « بضع » حوادث ، وذلك راجع إلى العقوبة التي يلقاها المجرمون ، وكذلك تنعدم حوادث السرقة بهذه المملكة ، للسبب نفسه
المعرب

المال يُرضيه ، فيعفو عن الجريمة لقاء المبلغ الذي تقاضاه . وقد جعل التشريع الإسلامي حقاً للدولة أن تأمر برفع مبلغ الدية ، إخماداً لنار « الثأر » .

إن هذا التشريع حكيم لدرجة عظيمة ، وتجربته تؤكد أن غريزة القتل قد قُضي عليها في أي بلاد طبَّقَتْهُ ، كما أكدت التجارب أيضاً أن أي بلاد ألغت هذا التشريع قفزت فيها جرائم القتل إلى نِسَبٍ خيالية ، حتى إن نسبة الاغتيالات قد ارتفعت في بعض هذه الدول إلى اثنتي عشرة في المائة .

وهناك أمثلة أخرى عديدة : بلادٌ ألغت عقوبة القصاص ، ولكنها عادت فأقرَّتْهُ مرة أخرى ، نظراً للعواقب . فقد أصدر البرلمان السيلاني قانوناً سنة ١٩٥٦ يحرم القصاص في حدود سيلان .. فارتفعت نسبة جرائم القتل ارتفاعاً مخيفاً بعد صدور القانون . ولم يستيقظ السيلانيون من سباتهم إلا يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٥٩ : عندما تسلّل رجل مسلّح داخل منزل رئيس الوزراء السيد بندرانيكه ، وقتله بكل جرأة في غرفته . وكان أول ما فعله أعضاء البرلمان السيلاني بعد دفن جثمان رئيس الوزراء المأسوف عليه ، أن عقدوا جلسة طارئة استغرقت أربع ساعات ، وأعلنوا عند ختامها أن سيلان قررت إلغاء القانون ، وإصدار قانون جديد بتشريع القصاص .

• • •

المعيشـــة

إن النظام الذي يقره الإسلام في المعيشة يسلّم بالملكية الفردية لوسائل الإنتاج الزراعي ، وهيكل المعيشة في الإسلام يقوم على أساس الملكية الفردية . وقد راج هذا النظام عصوراً طويلة في العالم[1] . ثم تعرّض بعد الثورة الصناعية لنقد قاسٍ ؛ حتى إن المثقفين رضوا بإلغائه .

وقد راج في أوربا ، فيما بين النصف الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، شعورٌ بأن الملكية الفردية أحد القوانين المجرمة التي تفشت في عصر الجاهلية المظلم .. وأنهم قد استطاعوا الآن أن يكشفوا عن نظام « الملكية الجماعية » – التي هي أقوى أساس لتنظيم المعيشة .

ثم بدأت أول تجربة للنظرية الجديدة – الملكية الجماعية ؛ ونفذت على رقعة واسعة من الأرض ، وبدأت دعاية كبيرة في شأنها ؛ وعقدت عليها آمال كبار ، ولكن التجربة الطويلة أثبتت أن هذا النظام ، رغم الجهود الضخمة التي بذلت في سبيله ، لم يأت إلا بإنتاج أقل من الإنتاج الذي يأتي به نظام الملكية الفردية .

---

(١) نظام الملكية الفردية الذي راج في العالم هو أثر من آثار الدين . ولذلك خالف « ماركس » وأتباعه الأديان بشدة ، حتى يتمكنوا من طرد فكرة الملكية الفردية من أذهان الأفراد .

هذا ، فضلاً عن نقائصه الكثيرة التي تتلخص في كونها غير طبيعية ، إلى استخدام العنف لتنفيذها ؛ وأنها تمنع التقدم الإنساني ، وأنها أكثر من الأنظمة الرأسمالية تركيزاً ، واستغلالاً ، ودكتاتورية .

• • •

وسوف أضرب هنا مثالاً لروسيا ؛ لقد نفذت الحكومة الروسية نظام « الملكية الجماعية » في جميع أنحاء البلاد ؛ والدولة تملك جميع الأراضي الزراعية ، فهي تقوم بزراعة أراضيها في صورة « المزارع الجماعية » . وقد منح القانونُ الزراعي الذي أصدرته الدولة عام ١٩٣٥ الفلاحَ حقاً بملكية الثلث أو نصف الفدان ؛ أو فدانين في بعض الأحوال الاستثنائية ، وسمح له أن يربي بعض الأنواع من الحيوانات ، مثل الأبقار والأغنام والدجاج .

وتثبت الإحصائية الرسمية التي نشرت عام ١٩٦١ أن الأراضي الزراعية في روسيا في ذلك الوقت كانت ٢٠٤ مليون هيكتار ، منها أراضٍ قدرُها ستة ملايين هيكتار في حوزة الملكية الفردية ؛ أي ثلاثة في المائة من مجموع مساحة الأراضي الزراعية ، ولكن نسبة المحصول الزراعي للبطاطس عام ١٩٦١ كانت كما يلي :

	نسبة الأراضي المزروعة (بالفدان)	نسبة المحصول (بالطن)
المزارع الجماعية	٤,٣٥٢,٠٠٠	٣٠,٨٠٠,٠٠٠
الأراضي الفردية	٤,٥٢٦,٠٠٠	٥٣,٥٠ ,٠٠٠

وتؤكد هذه الإحصائية أن المحصول الزراعي كان أحد عشر طناً من البطاطس في الأراضي الفردية ، مقابل سبعة أطنان في الأراضي الحكومية .

وهذه النسبة توجد كذلك في المحاصيل الأخرى ، على حين أن الأراضي الفردية لا تتمتع بتسهيلات الآلات الزراعية ، والسماد ، والكفاءات ، التي تتمتع بها المزارع الجماعية الحكومية .

وأما الماشية فهي أسوأ حالاً في المؤسسات الحيوانية الحكومية ، فهي تموت بكثرة بسبب نقص الكلأ، والاستهتار في الرعاية ؛ وقد مات ١٧٠,٠٠٠ من الرءوس في إقليم واحد ، في مدة أحدَ عَشَرَ شهراً عام ١٩٦٢ .

وأما حيوانات الملكية الفردية فهي آخذة في الازدياد والنمو يوماً بعد يوم ، رغم العقبات العديدة ، وهي كذلك أكثر إنتاجاً من غيرها . فالمؤسسات الحكومية التي تملك سبعين في المائة من الحيوانات والدجاج لم تقدّم للسوق من اللحوم إلا ما يزيد على عشرة في المائة بالنسبة إلى أصحاب الملكية الفردية، الذين لا يملكون أكثر من ثلاثين في المائة من الحيوانات والدجاج ، ويقدمون إنتاجهم للحكومة ، وهو ما يتبقى لديهم بعد استهلاكهم الذاتي . وقد تخلفت المؤسسات الزراعية الحكومية كثيراً في إنتاج البيض . ويمكن استنتاج هذه الفوارق من إحصائية رسمية لعام ١٩٦١ :

المحصول	النسبة الحكومية (بالطن)	النسبة الفردية (بالطن)
اللحم	٤,٨٠٠,٠٠٠	٣,٩٠٠,٠٠٠
اللبن	٣,٤٠٠,٠٠٠	٢٨,٥٠٠,٠٠٠
الصوف	٣٨٧,٠٠٠	٧٩,٠٠٠
البيض	٦,٣٠٠ (مليون بيضة)	٧٩,٠٠٠ (مليون بيضة)

إنه لمن الطريف أن يقوم الأفراد بسدّ حاجات حكومة تملك ، بل تحتكر كل وسائل الإنتاج ! إن الإحصائية تدلنا على أن إحدى الجمهوريات السوفيتية حصلت من الأفراد على ستة وعشرين في المائة من البطاطس ، وأربعة وثلاثين في المائة من البيض ، لسدّ احتياجاتها المحلية ، وهكـــذا

اضطرت إلى شراء أشياء أخرى مماثلة من الأفراد ، لاستهلاكها محليا[1] .

ومن العواقب الوخيمة لهذه الملكية الجماعية أن روسيا ــ التي كانت من بين الدول الكبرى المصدّرة لإنتاجها الزراعي في عهد القيصرية ــ اضطرت إلى شراء خمسة عشر مليوناً من أطنان القمح ، من كل من : أستراليا ، وكندا ، والولايات المتحدة الأمريكية . وهذه الحال مستمرة في التدهور ، فقد اشترت روسيا ١,٢٥٠,٠٠٠ طناً من القمح من الولايات المتحدة، فيما بين ١٩٤١ ــ ٥٦ .. وهذا هو الذي يجري في الصين الشيوعية[2] .

• • •

وتؤكد هذه التجارب القاسية التي خاضتها البشرية أن العقل الإلهي ــ الذي هو منبع القانون الحقيقي ــ هو أعرف بالطبيعة الإنسانية ، وأكثر فهماً لمسائلها و مشكلاتها.

إن في الدين جواباً محدداً لكل الأسئلة التي تؤرقنا في كفاحنا الحضاري . إنه يوجهنا إلى المشرّع الحقيقي الطبيعي ؛ وهو يضع لنا الأساس النظري للقانون .. فهو يمنحنا أساساً صائباً لكل مسألة في الحياة البشرية حتى يمكن لها الوصول إلى أعلى درجات الازدهار والرقي ؛ وهو الصورة الوحيدة للمساواة الكاملة بين الحاكم والرعية . وهو يهيء الأساس النفسي ، الذي يصبح القانون بدونه مشلولاً بلا حراك ، وهو يخلق لنا ذلك المناخ المناسب الذي لا بد منه لتطور أي مجتمع تطوراً حيوياً وفعالاً .

وهكذا يعطينا الدين كل ما نحتاج إليه لبناء الحضارة ؛ في حين لا يتيح لنا الإلحاد والكفر شيئاً ما ، سوى الضياع والفاقة ، فهو عقيم لا يجدي نفعاً .

• • •

---

(١) *Bulletin* (Germany), November, 1963.

(٢) *Ibid.*, October, 1963.

الباب التاسع

الحياة التي ننشدها

كتب « فريدرك أنجلز » :

« لا بد للإنسان أن يجد لباساً يستر به جسده ، وخبزاً يشبع به بطنه ، حتى يستطيع الخوض في الفلسفة والسياسة . »

والواقع أن الأسئلة الأولى التي يسعى الإنسان إلى معرفة جواب عنها في حياته هي :

من أنا ؟

وما هذا الكون ؟

وكيف بدأت حياتي ؟

وإلى أين ستنتهي ؟

إنها أسئلة الفطرة الأساسية . فالإنسان يفتح عينيه في عالم يحوي كل شيء ، غير جواب هذه الأسئلة ؛ فالشمس توصل إليه الحرارة اللازمة ، ولكن الإنسان غافل عن حقيقتها ، وعن أسباب قيامها بهذه العملية لخدمته ،

والهواء يعطي الحياة للإنسان ، ولكن الإنسان غير قادر أن يؤثر فيه ليجيب عن السؤال : من أنت ؟ ولماذا تقوم بهذا العمل ؟

إنه يمعن في وجوده ، ولكنه لا يفهم من هو ؟ ولماذا جاء إلى هذه الدنيا؟

والذهن الإنساني غير قادر على وضع إجابات هذه الأسئلة الأساسية في حياة البشر ، ولكنه لن يتخلى عن بحثه ، ولن يمل هذا البحث عن جواب .

هذه الأسئلة ، وإن وردت ألفاظاً على ألسنة الجماهير ، فإنها تؤلم روحها ، وهي ترد أحياناً بطريقة يصاحبها الانفعال ، حتّى يصبح الإنسان مجنوناً .

• • •

لقد عرفنا « أنجلز » مفكراً ملحداً ، ولكن إلحاده أتى عن طريق المجتمع المصاب بالبلبلة وعدم الاستقرار . لقد كان شغوفاً بالدين ، وكان يقضي وقتاً طويلاً في الكنيسة ؛ ولكنه بعد ما كبر وتوسع نظره في الدراسة أعرض عن الدين التقليدي . وهو يكتب أحوال هذه الفترة في خطاب له إلى أحد أصدقائه ، قال :

« إنني أدعو كل يوم ، وأقضي اليوم كله داعياً أن تنكشف لي الحقيقة. لقد أصبح الدعاء هوايتي ، منذ وجدت الشكوك طريقها إلى قلبي ؛ إنني لا أستطيع أن أقبل عقائدكم . إن قلبي يفيض بالدموع الغزار وأنا أكتب هذه السطور ، قلبي يبكي ، عيني تبكي ، ولكنني أشعر أنني لست بطريد من رحمة الله ، بل آمل أن أصل إلى الله الذي أتمنّى رؤيته بكل قلبي وروحي. وأقسم بحياتي أن عشقي وبحثي هذا لمحة من روح القدس . ولن أقلع عن تفكيري هذا ، ولو كذبه الإنجيل المقدس عشرة آلاف مرة ! ! »

لقد أقلقت غريزة البحث عن الحق روحَ « أنجلز » الشاب ، ولكن الدين المسيحي التقليدي لم يمنحه السكينة التي كان ينشدها ، فانقلب متمرداً عليه ، وانغمس في الفلسفات السياسية ، والمادية الإلحادية .

• • •

وجذور هذه الغريزة الإنسانية هي إحساس البشر بحاجتهم إلى الرب الخالق ؛ ففكرة : « الله خالقي وأنا عبده » منقوشة في اللاشعور الإنساني ؛ وهي ميثاق سريّ مأخوذ على الإنسان منذ يومه الأول ،وهو يسرى في كل خلية من خلايا جسمه ؛ وعندما يفتقد إنسان ما هذا الشعور يحسّ بفراغ عظيم ، وتطالبه روحه من أعماقه أن يبحث عن إلهه الذي لم يره قط ، والذي لو وجده لخرّ راكعاً على ركبتيه ، ثم ينسى كل شيء .

وليس الاهتداء إلى معرفة الله غير الوصول إلى المنبع الحقيقي لهذه الفطرة الإنسانية ، والذين لا يهتدون إلى المعرفة يُقبلون على أشياء أخرى . فإن كل قلب يبحث عمن يُهْدِي إليه خير أمانيه .

• • •

وعندما رفرف العلم الوطني لأول مرة على الأبنية الحكومية في الهند بدلاً من العلم البريطاني : « اليونيان جاك » ، في صباح يوم ١٥ أغسطس عام ١٩٤٧ — اغرورقت عيون كثيرة بالدموع ، وهي ترى الصورة التي طالما حلمت بها . وكانت هذه الدموع مظهراً لعلاقة أصحابها « بالمعبودة : الحرية » ، التي ضحوا من أجل الحصول عليها بخير أيام حياتهم .

وهكذا عندما يذهب زعيم وطني إلى ضريح « أبي الوطن » ويضع عليه إكليل الزهور ، ثم يقف أمامه لحظةً مطأطئاً رأسه ، فهو حينئذ يباشر نفس العمل الذي يقوم به المؤمن أمام معبوده ، حين يركع ويسجد .

وحين يمر شيوعي أمام تمثال « لينين » ويرفع قبعته عن رأسه ، ويبطيء في سيره ، يكون هو الآخر ، مثل رجل الدين ، يقدّم أحسن تمنياته إلى إلهه . فكل إنسان مجبور على أن يتخذ شيئاً ما إلهاً له ، ويقدم له قرابين أمانيه الصادقة .

ولكن الإنسان إذا قدم هذه القرابين لغير الله ، فهو يشرك بمن يستحق وحده العبادة .. و « إن الشرك لظلمٌ عظيم[1] » ، والظلم أن تضع الشيء

---

(١) لقمان : ١٣ .

في غير موضعه ، فلو كنت تريد أن تتخذ من غطاء الوعاء قبعةً فهو «ظلم»، والإنسان عندما يميل إلى غير الله لملء فراغه النفسي ، ويتخذ من غير الله ملجأً له ، فهو ينحاز عن مكانه الصحيح ، ويتخذ من غريزته أسوأ أسباب الضلال .

ولما كانت هذه الغريزة فطرية ، فإنها تظهر دائماً في صورتها الطبيعية متجهة إلى الله ، ولكن المجتمع ، وأحوال البيئة ، يعطيان هذه الغريزة اتجاهاً مغايراً ، فتبدأ الشكوك تساور الإنسان في أول الأمر ، ولكنه سرعان ما يتخلص من هذه الشكوك ، عمداً أو عفواً ، لأنه يتمتع بحرّية أكثر في الحياة الجديدة ، فيرضى بها ولو ظاهرياً .

• • •

لقد كان «برتراند رسل» شديد العلاقة بالدين في أول حياته ، وكان يواظب على حضور صلوات الكنيسة باهتمام ، وفي يوم من الأيام سأله جدّه : ما تكون دعواتُك المفضلة يا «بَرْتِي» ؟

فأسرع الشاب برتراند رسل يقول : «لقد سئمت الحياة ، وأنا مدفون تحت وطأة ذنوبي – يا إلهي ! » وعندما جاور برتراند الثالثة عشرة من عمره بدأت خواطر التمرد تراود ذهنه ، بفعل البيئة التي أحاطت به ، إلى أن تحول ذلك الطفل المواظب على صلوات الكنيسة فأصبح من بعدُ برتراند رسل الفيلسوف الملحد ، الذي لا يؤمن بالحقائق السماوية . وقد أجرت الإذاعة البريطانية حديثاً معه عام ١٩٥٩ ، وعندما سأله «فريمان» – المعلق السياسي بالإذاعة – : «هل وجدت أن هواية الاشتغال بالرياضيات والفلسفة يمكن أن تحل محل المشاعر الدينية عند الإنسان؟ »، أجاب «رسل» قائلاً :

«نعم، لقد وصلتُ في سن الأربعين إلى الطمانينة التي قال عنها «أفلاطون» : إنه يمكن الحصول عليها من طريق الرياضيات . إنها عالَم أبديٌّ ، حر ، لا يقاس بزمان . ولقد حظيت في هذا العالم بسكينة تشبه تلك التي يحصلون عليها في الدين . »

لقد أنكر هذا المفكر البريطاني حقيقة المعبود السماوي ، ولكنه لم يستطع الاستغناء عن ضرورتها القصوى ، بسبب الغريزة الفطرية التي ولد بهـا الإنسان، فجاء بالرياضيات والفلسفة، وأجلسهما في المقعد المخصص لله وحده . بل اضطر أيضاً أن يخلع على الرياضيات والفلسفة نفس الصفات التي ينفرد بها الله سبحانه ، وهي : الأبدية ، والتحرر من أبعاد الزمن ، والسر في ذلك أنه لا يمكن الحصول بدونهما على الطمأنينة التي يبحث عنها الإنسان .

• • •

« جواهر لال نهرو في حالة الركوع ! » لو كانت الصحف قد نشرت هــذا الخبر في يوم من الأيام لما صدقهـا الناس ! ولكن الصورة التي تحملها الصفحة الأخيرة من جريـدة « هندوستان تيمس » ، الصادرة في دلهي يوم ٣ أكتوبر من عام ١٩٦٣ ، تصدق هــذا الخبر . وقد ظهر في تلك الصورة رئيس وزراء الهنـد الأسبق في حالة ركوع ، واقفـاً أمام ضريح المهاتما غاندي في ذكرى ميلاده ، وهو يقدم تمنياته إلى « أبي القومية الهندية » !

إن مثل هذه الأحداث تقع كل يوم في كل مكان من العالم ؛ وآلاف من الناس الذين ينكرون وجود الله يركعون أمام معبوداتهم، تسكيناً لغريزتهم التعبدية ، وذلك لأن « الإله » ضرورة فطرية للإنسان . وهذه المظاهر كافية لتأييد هذه الغريزة على أنها طبيعية ، لأن الإنسان يضطر إلى الركوع أمام آخرين كثيرين ، إذا ما امتنع عن السجود أمام « الله الواحد » ؛ أي أن فطرته لن تتمكن من ملء الفراغ الذي يخلو عند إنكار وجود الله ، والإلحاد.

• • •

وليست الحقيقة أن يتخذ الإنسان آلهة آخرين عند الكفر بالله ، فيسكن غريزته ، بل سوف أقول : إن الذين يتخذون من غير الله إلهاً محرومون من الاستقرار والطمأنينة الحقيقيين ، كالطفل اليتيم الذي يحاول أن يتخذ

من مصنوعات البلاستيك « أمّاً » له .

وكل ملحد ، مهما بدا له ، أو للآخرين ، أنه ناجح ، يتعرض في حياته لمواجهة لمحات ، يضطر إزاءها أن يفكر فيما إذا كانت الحقيقة التي قَبِلها ــ مصطنعة وزائفةً ؟

• • •

وعندما ختم « جواهر لال نهرو » سيرته الذاتية سنة ١٩٣٥ ، أي قبل اثني عشر عاماً من استقلال الهند ، كتب في خاتمتها قائلاً :

« إنني لأشعر أن فصلاً من حياتي قد انتهى ، وأن فصلاً آخر على وشك البدء ، ترى ماذا سيحوي هذا الفصل ؟ لا يستطيع أحدٌ أن يتنبأ به ؛ فإن أوراق الحياة القادمة مختومة . »

وعندما ظهرت الأوراق الأخرى من حياة نهرو ، وجَدَ نَفْسَه رئيساً لوزارة ثالث كبريات دول العالم ، يحكم سدس المعمورة بدون شريك . ولكن « نهرو » لم يقتنع بهذا ، بل ما زال يشعر ، وهو في أوج بروزه السياسي ، أن هناك فصولاً أخرى من كتاب حياته لمّا تُفْتَحْ .

لقد كان يعتمل في قرارة ذهنه نفسُ السؤال الذي يولد معه الإنسان ، وقد قال نهرو ، وهو يخاطب مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في دلهي في يناير من عام ١٩٦٤ ، والذي اشترك فيه ألف ومائتان من الممثلين من جميع أرجاء العالم ، قال :

« إنني سياسي ، ولا أجد وقتاً كثيراً للإمعان والتفكير . ولكنني أُضْطَرّ في بعض الأحيان أن أفكر : ما حقيقة هذه الدنيا ؟ ومن نحن ؟ وماذا نقوم به ؟ إنني على يقين كامل أن هناك قُوىً تصوغ أقدارنا »[1] .

(١) جريدة National Herald عدد ٤ يناير عام ١٩٦٤ .

وهذا هو الشعور بعدم الطمأنينة الذي يسيطر على أرواح الذين يكفرون بالله معبوداً لهم ، ويخيل إليهم في غمرة الملذات الموقتة والأعمال الدنيوية الشاغلة – أنهم قد ظفروا بالاستقرار .. ولكنهم لا يلبثون أن يحسوا مرةً أخرى بأنهم محرومون من الطمأنينة والسعادة والاستقرار .

وهذه الحالة التي تنعدم فيها الطمأنينة والاستقرار لدى القلوب المحرومة من رحمة الله ليست مسألة أيام هذه الحياة الموقتة وسنيها ، وإنما هي أهم من ذلك بكثير

إنها مسألة أزلية وأبدية ، تتمثل فيها آثار الحياة المعتمة الحالكة ، التي يقف على حافتها هؤلاء الأصحاب .

إنها البادرة الأولى لحياة الخنق الأبدية ، التي سوف يواجهونها بعد موتهم دون شك .

إنها أجراس التنبيه الأولى في حياتهم ، تنذرهم بالأحوال الرهيبة ، والظروف المروعة التي سوف تمر بها أرواحهم .

وهي دخان من الجحيم الذي لا بد لهم أن يخلدوا فيه .

ولو أن النيران شبت في منزل أحدهم ، فقد ينبهه الدخان الذي سيدخل في أنفه إلى الخطر الوشيك ، وهو يستطيع أن ينقذ نفسه لو استيقظ في الوقت المناسب ؛ ولكن حين تمسك ألسنة النيران بسريره فسيكون الأوان قد فات . ولات حين مناص ؛ بل هو الهلاك الذي يحيط به من كل جانب ، فقد قدر له أن يحترق في النيران ، لبلادة حسه ، وجهالته من أمره .

ترى ، هل يستيقظ الناس في إبان النجاة ؟ فإن اليقظة النافعة هي التي تكون قبل فوات الأوان ، واليقظة عند الهلاك والدمار لا تمنح صاحبها غير القرار في قاع البوار .

° ° °

كتب البروفيسور «مايكل بريتشر» ترجمة لحياة جواهر لال نهرو — وقد سأل المؤلفُ نهرو في لقاء له معه بنيودلهي في ١٣ يونيه من عام ١٩٥٦:

«ما المقومات اللازمة لبيئة صالحة — طبقاً لفلسفتكم الأساسية في الحياة؟»

وأجاب رئيس الوزراء الأسبق قائلاً:

«إنني أؤمن ببعض المعايير، قل: إنها (المعايير الأخلاقية)، ولا بد لكل فرد وبيئة من التمسك بها، وعند القضاء على هذه المعايير لا يمكنك الوصول إلى نتائج مفيدة، رغم إحراز التقدم المادي الهائل، وأما (سبل) إقامة هذه المعايير والاحتفاظ بها في المجتمع، فإنني لا أعرفها، وهناك نظرية دينية لإقامة هذه المعايير، ولكنها تبدو لي ضيقة جداً مع كل طقوسها وطرقها، فأنا أهتم اهتماماً كبيراً بالقيم الأخلاقية والروحية، بعيداً عن الدين، ولكنني لا أعرف كيف يمكن الحفاظ على هذه القيم في الحيـــاة الجديدة. إنها لمشكلة [1].»

وهذا السؤال وجوابه يبيّنان بوضوح الفراغَ الذي يواجهه الإنسان بشدة في حياته؛ فإن إقامة القيم والمعايير الأخلاقية من أهم ضرورات كل مجتمع، حتى يتاح له جو الاستقرار لمواصلـــة مسيرة الحضارة. ولكن الإنسان، بعد أن خذل الإله، أخذ يخبط خبط عشواء بحثاً عن هذه المعايير، وسبل إقامتها في حياة أفراد المجتمع. ولا يزال الإنسان، رغم مئات السنين التي مضت، في أولى مراحل بحثه عن هذه المعايير المجردة عن الدين...

إنهم يحتفلون، مثـــلاً، بأسبوع الكرم Courtesy Week لإذابـــة الحواجز بين الشعب والحكام، ولكن العقلية البيروقراطية لا تذوب عند المسئولين، رغم كل الجهود التي تبذل في هذه المناسبات باسم «الأخلاق».

---

(١) *Nehru — A Political Biography*, pp. 607-8.

ويعلقون على المحطات وداخل عربات القطارات لافتـات كبيرة تقول : « إن السفر بدون تذكرة جريمة اجتماعية » — ولكن نسبة السفر بدون التذاكر لا تقل ، بل تزداد يوماً بعد يوم . وذلك يثبت أن عبارة « جريمة اجتماعية » غير كافية لتحريك ضمير الفرد ، والحفاظ على النظام[1].

إنهم يبذلون جهوداً ضخمة للتنفير من الجرائم ، عن طريق الصحافة ، قائلين مثلاً : « الجريمة لا تفيد » Crime does not pay . ولكن النسبة المرتفعة للجرائم ، يوماً بعد آخر ، دليل على أن « عواقب الجريمة » في الدنيا ليست رادعة ، حتى تمنع المجرمين من القيام بجرائمهم .

وكثيراً ما طبعوا على جدران المكاتب عبارات تقول : « إن تقديم الرشوة ، وقبولها — ذنب » ، ولكن المرء ، عندما يشاهد أن جرائم الرشوة تمضي في طريقها على قدم وساق ، بمشهد من هذه العبارات نفسها ، يضطر إلى أن يعترف بأن الدعاية الحكومية لن تستطيع أن تمنع هذه الجريمة الاجتماعية القبيحة .

إنهم يكتبون في كل عربة من عربات القطار : « إن القطارات ملك للشعب ، وإلحاق أي ضرر بها جريمة ضد الشعب . » ، ولكن المسافرين في نفس هذه العربات يسرقون لمباتها الكهربائية الرخيصة ، ويحطمون زجاجها ، وربما يثورون فيشعلون فيها النيران . وهو دليل على : أن فائدة الشعب ليست بأقوى من فائدة الفرد ! ! ..

إن كبار الزعماء والسياسيين يعلنون في خطبهم : أن استغلال الوسائل الحكومية لصالح الأغراض الفردية خيانةٌ في حق الشعب والدولة . »

---

(١) كل ما يقدمه المؤلف من أمثلة للتدليل على إفلاس الفلسفات المادية الإلحادية ، غربية وشرقية ، موجود بوفرة في بلاد شرقنا العربي ، وتوحي شواهد الواقع أن الأمور تزداد كل يوم سوءاً ، نتيجة سيطرة المنحلين والملاحدة على أجهزة التوجيه من جانب ، وقعود رجال الدين عن أداء رسالتهم من جانب آخر ، ولا حل للمشكلة إلا بعودة الأمة إلى الله مرة أخرى (المراجع).

ولكن المشروعات الكبرى تفشل في تحقيق أهدافها ، لأن النسبة الكبرى من الميزانيات المقررة تأخذ طريقها إلى جيوب المسئولين ، القائمين بأمر هذه المشروعات ، بدلاً من إنفاقها في مكانها الصحيح . وهكذا اختفت المعايير والقيم من الحياة القومية ، رغم كل الجهود التي بذلت من جانبي المصلحين والزعماء ، وباءت كل الوسائل التي استخدموها بالفشل الذريع[1] .

هذه الظواهر هي في الواقع دلائل على أن الحضارة الإلحادية قد انتهت بركب البشرية إلى الوحل ، وقد ضللتها عن طريقها ، التي لم يكن منها بدٌّ لمواصلة المسيرة . ولا حلَّ لهذه الأزمة إلا بالرجوع إلى الله ، والتسليم بأهمية الدين للحياة ، فهو الأساس الوحيد الذي يساعد على النهوض بالحياة البشرية على خير وجه ، وليست هناك من أسس أخرى .

• • •

كتب البروفيسور تشستر باولز[2] ، السفير الأمريكي الأسبق لدى الهند ، يقول :

« إن الدول النامية تواجه مشكلات من نوعين ، في طريق نهضتها الصناعية . والنوعان معقدان غاية التعقيد . **فأما أولهما** : فهو مشكلات الحصول على رأس المال ، والمواد الخام ، والخبرة الفنية ، وطرق استخدامها

---

(١) إن الأمثلة التي ذكرها المؤلف هنا – من أسبوع الكرم إلى التلاعب في أموال الدولة – أمور عادية جداً في الهند ، وهي تحدث على مسمع ومشهد من الجمهور والمسئولين ، وترتب على ذلك أن الحالة الأخلاقية للشعب الهندي آخذة في التدهور بشكل يخيف السياسيين من عواقبها على المدى البعيد ، وهؤلاء (الوثنيون منهم أو الملحدون) لا يعرفون كيف يسدون هذا السيل الخطر ، فغالبيتهم العظمى تجري وراء مصالحها الذاتية ، ولذلك قد تفشى الفساد وعمت الرشوة وسادت اعتبارات المحسوبية في كل وسط ، من أدناه إلى أرقاه – وهي حال تدمي قلوب الساسة الوطنيين المخلصين ، ولكنهم مغلوبون على أمرهم المعرب

(٢) Chester Bowles. هو من أشهر الخبراء الاقتصاديين في الولايات المتحدة الأمريكية . المعرب

أفضل استخدام . وأما النوع الثاني من هذه المشكلات فيتعلــق بالشعب والإدارة الحكومية . فعلينا قبل المضي في ثورتنا الصناعية أن نتيقن من ان هذه الصناعة لن تخلق مشكلات أكثر مما تقضي عليه (من المشكلات) فعلاً . ومن كلمات المهاتما غاندي : إن المعلومات العلمية والكشوف سوف تزيد من شراهة الإنسان ، على حين أن الإنسان هو الشيء الأهم من كل الأشياء[1] . »

فالشعب مجتمعٌ يخضع للبرامج التقدمية ، ولكن عناصر التقدم ، وهي رأس المال والخبرة الفنية ، لا تجدي نفعاً في مجتمع يسوده الفراغ السياسي والحضاري[2] .

ما الطريق إلى سد هذا الفراغ ، لبناء مجتمع يضطلع فيه الشعب والحكام، كلٌ بواجبه ، لرفع شأن البلاد ؟

إنه سؤال بدون جواب لدى المفكرين المحدثين . والحق أن الإنسان لن يستطيع الوصول إلى جوابه في ظل المجتمع الإلحادي . فكل مشروع تقدمي يصاب بتناقض مثير ، يتجلى في أن العقائد الشخصية لدى أفراده تخالف العقيدة الاجتماعية . فبرنامج التقدم الاجتماعي مثلاً يهدف إلى إقامة مجتمع رفاهي يتمتع بالأمن والسلام ، ثم يقول المفكرون : « إن هدف الإنسان الأساسي هو الحصول على السعادة المادية ! » فهم بذلك ينكرون المبدأ الأول لبرنامجهم ، لأنهم يحرّضون الأفراد على عملٍ هو عكس ما يحتاج إليه المجتمع .

ويرجع إلى هذا التناقض أن برنامجاً من هذا النوع لم يحقق أهدافه إلى يوم الناس هذا ، وفشلت جميع الفلسفات المادية للنهوض بالحياة الاجتماعية .

---

(١) *The Makings of a Just Society*, (Delhi) 1963, pp. 68-69.

(٢) المرجع السابق : ص — ٣١ .

إن معنى الحصول على السعادة المادية هو أن يسعى الإنسان بكل قواه إلى تحقيق كل ما تصبو إليه أمانيه ، ولكن تحقيق الأهداف الشخصية ، في هذا العالم المحدود ، لا طريق إليه دون التأثير على الآخرين . ولذلك ، فعندما يسعى الفرد إلى تحقيق مطالبه يتحول إلى رُزْء بالنسبة للآخرين .. فأمنية الفرد تدمر أماني المجتمع . وحين يجد فرد ، يتقاضى مرتباً بسيطاً ، أن موارده لا تكفي لتحقيق سعادته الشخصية فإنه يسعى إلى تحقيق ذلك بكل الصور الممكنة ، حتى لَيُقْدِمُ على السرقات ، والرشاوى ، والغش ، والتزوير ، والاستيلاء على حقوق الغير بالقوة .. وعندئذ يبدأ المجتمع في في أن يعاني نفس المشكلات التي كان يعاني منها أحد أفراده .

• • •

إن العالَم الحديث يعاني من مشكلة ، لم يجرّبْها الإنسان طوال تاريخه هي مشكلة « **جرائم الأطفال** » ، التي أصبحت جزءاً من المجتمع الحديث ! من أين يأتي هؤلاء المجرمون الصغار ؟ إنهم ضحايا « السعادة المادية » .. فكثير من الفتيان والفتيات يسأمون حياة الزواج بعد وقت قليل ، وحينئذ يبدأون في البحث عن وجوه وأجساد جديدة ، ويحصلون على الطلاق ، بيد أن المجتمع هو الذي يدفع ثمن الطلاق ، حين يلملم في رحابه « أطفالاً يتامى في حياة آبائهم وأمهاتهم » ، وما دام المجتمع المنحل هو الآخر لا يستطيع أن يهيىء لهؤلاء الأطفال الطعام واللباس والمأوى ، فهم أحرار من كل قيد ، وهم ثائرون على المجتمع الذي أنجبهم . وتبدأ هذه الحال بالصعلكة ، ثم تنتهي إلى الجرائم القذرة التي كانوا ثمرتها .

ولقد صدق السير الفريد ديننج في مقاله : « إن أكثرية المجرمين الأطفال غير البالغين تخرج من أنقاض « أسر محطمة[1] . »

---

(١) *The Changing Law*, p. 111.

هذا التناقض بين الفلسفة الاجتماعية وأهداف الأفراد هو أصل كل المشكلات الاجتماعية. فجميع الحوادث التي نسميها في قواميسنا «جريمة وذنباً» هي محاولة قوم للحصول على أمانيهم الذاتية في الحياة، بعد أن أخفقوا في تحقيقها لسبب أو آخر. وهذه الحوادث تظهر في أغلب الأحيان في صور: الاغتيال، والخطف، والتدليس والتزوير، والقرصنة، والحروب، والزنا، وما إلى ذلك من الجرائم التي تعاني منها الإنسانية.

وهذا التناقض يبيّن بجلاء أن هدف الحياة الأساسي هو الحصول على رضا الله في الآخرة، لا غير. إنه هو الهدف الوحيد الذي يمكنه إنقاذ المجتمع والفرد من التناقض الكبير، والسير بهما في طريق الرخاء والسعادة المتبادلة، لأن الفرد في هذا الهدف لا يصادم أماني المجتمع، بل يشترك في كفاحه بطريقة إيجابية فعالة.

فميزة نظرية (الآخرة) تأكيدها على أنها هي الأساس الوحيد لنجاح المشروعات الاجتماعية، في حين تبين، في نفس الوقت، أنها هي الهدف الوحيد للإنسان الفرد أيضاً، لأن أي شيء لا علاقة له بالواقع لا يمكنه أن يصبح بهذا القدر العجيب من الأهمية، والموافقة لأهداف البشرية.

* * *

لقد تقدم الطب الحديث والجراحة إلى أقصى حدودهما في هذا القرن، وبدأ الأطباء يقولون: «إن العلم يستطيع القضاء على كل مرض، غير الموت والشيخوخة»!! ولكن الأمراض، تكثر وتتشعب، وتنتشر بسرعة مذهلة، ومنها «الأمراض العصبية» التي هي نتائج أعراض التناقض الشديد الذي يمر به الفرد والمجتمع.

لقد حاول العلم الجديث أن يغذي كل الجوانب المادية في الجسم الإنساني، ولكنه فشل في تغذية الشعور، والأماني، والإرادة، وكانت حصيلة ذلك جسماً طويل القامة ممتلىء النواحي، ولكن الجانب الآخر من الجسم،

وهو أصل الإنسان ، أصبح يعاني من أزمات لا حد لها .

لقد أكدت إحصائية* : أن ثمانين في المائة من مرضى المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضاً ناتجة عن الأعصاب : من ناحية أو أخرى . ويقول علماء النفس الحديث : إن من أهم جذور هـــذه الأمراض النفسية : الكراهية ، والحقد ، والجريمـــة ، والخوف ، والإرهاق ، واليأس ، والترقب ، والشك ، والأثَرة ، والانزعاج من البيئة . وكل هذه الأعراض تتعلق مباشرة بالحياة المحرومة من الإيمان بالله .

إن هذا الإيمان بالله يمنح الإنسان يقيناً جباراً ، حتّى يستطيع مواجهة أعتى المشكلات والصعاب ، فهو يجاهد في سبيل هدف سامٍ أعلى ، ويغض بصره عن الأهداف الدنيئة القذرة .

إن الإيمان بالله يعطي الإنسانَ محرّكاً هو أساس سائر الأخلاق الطيبة ، ومصدر قوة العقيدة ؛ **العقيدة** التي عبر عنها « السير وليام أوسلــر » William Osler بقوله : « إنها قوة محرّكة عظيمة ، لا توزن بأي ميزان ، ولا يمكن تجربتها في المعامل . »

إن هذه **العقيدة** هي سرّ مخزن الصحة النفسية الموفورة ، التي يتمتع بها أصحابها ، وأية نفسية محرومة من هذه **العقيدة** لن تنتهي إلا بالأمراض ، أقساها وأعتاها .

ومن شقوة الإنسان أن علماء النفس يبذلون كل ما يمكنهم من الجهود في الكشف عن أمراض نفسية وعصبية جديدة ، ولكنهم في نفس الوقت يهملون بذل الجهود للوصول إلى علاج هذه الأمراض . وهذه الظاهرة تثير شعوراً كئيباً بأن هؤلاء العلماء قد أخفقوا في الميدان الأخير ، ولذلك أكبوا على الميدان الثاني ، يسترون خيبتهم ، ويُظهرون بطولتهم أمام العالم !

وإلى ذلك أشار أحد العلماء المسيحيين قائلاً* : « إن علمـــاء الطب النفسي يبذلون كل جهودهم في كشف أسرار القفل الدقيقة ، الذي سوف

يُغلق علينا كل أبواب الصحة ! »

فالمجتمع الجديد يسير في اتجاهين في وقت واحد . فهو يحاول من جهة الحصولَ على جميع الكماليات المادية ، على حين يتسبب – لتركه الدين – في خلق أحوال تجعل من الحياة جحيماً . إنه يعطيك دواء الشفاء من الفم ، ويحقنك السم في العضل !

وسوف أنقل هنا شهادة لهذه الظاهرة رواها الدكتور بول أرنست أدولف ، يقول :

« تعرفت أثناء دراستي بالكلية الطبيـــة على التغييرات التي تطرأ على أنسجة الجسم بعد الإصابة بالجراح ، وشاهدت أثناء التجارب بالمنظار المكبر أن أعراضاً محددة تطرأ على هذه الأنسجة، مما يؤدي إلى اندمال الجروح وشفائها ، وعندما أصبحت طبيباً بعد إتمام دراستي كنت جد مقتنع بكفاءتي ، وأنني أستطيع أن أحقق نتيجةً موفقة بالتأكيد ، باستعمال الوسائل الطبية اللازمة ، ولكن سرعان ما أُصِبْتُ بصدمة كبيرة ، حيث فرضت عليّ الظروف أن أشعر أنني أعرضت عن أهم عنصر في علم الطب ، ألا وهو : الله » .

«كانت بين المرضى الذين كنت مشرفاً على علاجهم في المستشفى ، عجوز في السبعين من عمرها ، أصيب أعلى فخذها بصدام ، وأكّدَتْ صور الأشعة أن أنسجة جسمها تلتئم بسرعة ، فقدمت لهـــا تهنئاتي لسرعة شفائها ، وأشار لي كبير الجراحين : أن أطلب منها العودة إلى بيتها بعد أربع وعشرين ساعة ، لأنها استطاعت أن تمشي دون أن تستند إلى شيء » .

« وكان ذلك يوم أحد ، حين جاءت ابنتها تزورها على عادتها الأسبوعية ، فقلت لها : إن والدتك تتمتع بصحة جيدة الآن ، وعليك أن تحضري غداً لترافقيها إلى البيت . ولم تلفظ الفتاة بشيء أمامي ، بل توجهت إلى أمها ، وقالتْ لها : إنه تقرر بعد مشورة زوجها أنهما لن يستطيعا تدبير عودتها

(الأم) إلى بيتهما ، وخير لها الآن أن تنظم لها سكنى بإحدى « دور العجزة ».

وبعد بضع ساعات مررت بسرير العجوز ، فشاهدت أن انهياراً سريعاً يطرأ على جسمها ، ولم تمض أربع وعشرون ساعة حتى ماتت العجوز ، لا بسبب فخذ مكسور ، بل جرّاءَ قلب كسير .

« وقد حاولت أن أقوم بجميع الإسعافات اللازمة لإنقاذها ، ولكن حالتها لم تتحسن . كانت عظام فخذها المكسورة قد تحسنت كثيراً ، ولكني لم أجد علاجاً لقلبها الكسير .. أعطيتها كل ما عندي من الفيتامينات، والمعادن، ووسائل التئام العظم المكسور ، ولكن العجوز لم تستطع أن تنهض مرةً أخرى ، لقد انجبرت عظامها دون شك ، وكانت تملك فخذاً قوية ، ولكنها لم تقو على الحياة، لأن ألزم عنصر لحياتها لم يكن الفيتامينات، والمعادن، ولا انجبار العظم ، وإنما كان (الأمل) ، الأمل في أن تعيش على نحو معين ، فمتى ذهب الأمل في الحياة ، ذهبت معه الصحة » .

« وكان لهذا الحادث تأثير عميق في نفسي ، لإحساسي بأن هذا الحادث كان من المستحيل وقوعه ، لو كانت هذه العجوز تعرف « إله الأمل » ، الذي أومن به لكوني مسيحياً[1] . »

هذا المثال يعطينا صورة من التناقض الذي يعاني منه العالم في كل جانب من جوانب حياته ، فالعالم يحاول اليوم بكل قوة أن تَمّحِيَ الأحاسيس والمشاعر الدينية من قلوب الناس ، وهو في هذه المحاولة يسعى إلى نهضة الإنسان ، متجاهلاً (الروح) ، عنصرَه الأصلي .

ومن نتائج هذه المحاولة أن الطب يستطيع أن يجبر عظام فخذ مكسورة ، ولكن حرمان الإنسان من العقيدة الإلهية يفضي به إلى الموت ، رغم كون جسمه في صحة جيدة .

---

(١) The Evidence of God,.pp. 212-14.

لقد دمّر هذا التناقض الإنسانيةَ تدميراً ، فالأجسام تحت الأثواب البراقة أحوج ما تكون إلى الهدوء والسعادة الحقيقيين ؛ والأبنية الفخمة تسكنها قلوب محطمة ؛ والمدن المتلألئة ببريق الحضارة هي بُؤَر الجرائم ، ومصانع المصائب ؛ والحكومات الجبارة مصابة بالدسائس الداخلية وعدم الثقة ؛ والمشروعات الضخمة تبوء بالفشل نتيجة لخيانة القائمين بها .. لقد أصبحت الحياة غير مرغوب فيها رغم التقدم المادي الهائل . وكل هـــذا وذاك يرجع إلى حرمان الإنسان من نعمة الإيمان بالله ، لقد حرمنا أنفسنا من المنبع والأساس الذي هيأه لنا خالقنا ومالكنا .

إن سبب الأمراض النفسية ، التي أشرت إليها ، حقيقة واضحة جلية اعترف بها علماء النفس ، وقد لخص عالم النفس الشهير **البروفيسور يانج C. G. Jung** تجاربه عنها في الكلمات التالية :

« طلب مني أناس كثيرون ، من جميع الدول المتحضرة ، مشورةً لأمراضهم النفسية ، في السنوات الثلاثين الأخيرة . ولم تكن مشكلة أحد من هؤلاء المرضى — الذين جاوزوا النصف الأول من حياتهم ، وهو ما بعد ٣٥ سنة — إلا الحرمان من العقيدة الدينية . ويمكن أن يقال : إن مرضهم لم يكن إلا أنهم فقدوا الشيء الذي تعطيه الأديان الحاضرة للمؤمنين بها في كل عصر ، ولم يُشْفَ أحد من هؤلاء المرضى إلا عندما استرجع فكرته الدينية [١] . »

وإنها لكلمات جلية : « لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد[٢] » .

ولو أردنا المزيد من الإيضاح ، فلسوف أقتبس من الأستاذ « **أ. كريسي موريسون** » رئيس أكاديمية نيويورك للعلوم (سابقاً) ، قوله :

---

(١) Quoted by C.A. Coalson, *Science & Christian Belief*, p. 110

(٢) ق : ٣٧ .

« إن الاحتشام ، والاحترام ، والسخاء ، وعظمة الأخلاق ، والقيم والمشاعر السامية ، وكل ما يمكن اعتباره « نفحات إلهية » ـ لا يمكن الحصول عليها من طريق الإلحاد » .

« فالإلحاد نوع من الأنانية ، حيث يتجلس الإنسان على كرسي الله ».

« لسوف تقضي هذه الحضارة بدون العقيدة والدين » .

« سوف يتحول النظام إلى فوضى » .

« سوف ينعدم التوازن ، وضبط النفس ، والتمسك » .

« سوف يتفشى الشر في كل مكان » .

« إنها لحاجة ملحة أن نقوى من صلتنا وعلاقتنا بالله [1] » .

(انتهى)

---

(1) *Man Does not Stand Alone*, p. 123.

الفهرس